المجلد السادس

من

تيسير الكريم الرحمن

في

تفسير كلام المنان

من منن الله على عبده وابن عبده وابن أمته

عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي

تفسير سورة القصص

وهي مكية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ (١) تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ (٢) نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ
لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ[١] (٣) إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ
يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ
ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ
فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ (٦) وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ
فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ
ٱلۡمُرۡسَلِينَ (٧) فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ
وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ (٨) وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن
يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ (٩) وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ
لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (١٠) وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ
فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ (١١) ۞ وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ فَقَالَتۡ هَلۡ
أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ (١٢) فَرَدَدۡنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيۡ تَقَرَّ
عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَ وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ (١٣) وَلَمَّا
بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ (١٤) وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ
غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن
شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ
مُّبِينٞ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (١٦) قَالَ

(١) في النسختين: إلى آخر القصة.

رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي
اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ
عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي
الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ
الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ
نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ السَّبِيلِ
﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ
تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ
لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا
تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُ وَقَصَّ
عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ اسْتَـْٔجِرْهُ
إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَـْٔجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ
أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِيٓ
إِن شَآءَ اللَّهُ مِنَ الصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ
عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ
الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوٓا إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ
النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَٰرَكَةِ
مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ
كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأٓمِنِينَ ﴿٣١﴾ اسْلُكْ يَدَكَ
فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن
رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا
فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ
أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا
بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا مَا هَٰذَآ إِلَّا

سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ
بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ
أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ
بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ
فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ
﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى
وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ
ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ
تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن
رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ
أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ
وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ
مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾
قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ
يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ
إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾.

﴿٢﴾ ﴿**تلك**﴾ الآيات المستحقَّة للتعظيم والتفخيم، ﴿**آياتُ الكتابِ المبين**﴾: لكلِّ أمرٍ يحتاج إليه العباد؛ من معرفة ربِّهم، ومعرفة حقوقه، ومعرفة أوليائِهِ وأعدائِهِ، ومعرفة وقائعه وأيامه، ومعرفة ثواب الأعمال وجزاء العمَّال؛ فهٰذا القرآن قد بيَّنها غايةَ التَّبيين، وجلَّاها للعباد، ووضَّحها.

﴿٣﴾ من جملة ما أبانَ، قصَّةُ موسى وفرعونَ؛ فإنَّه أبداها وأعادها في عدَّة مواضع، وبسطها في هٰذا الموضع، فقال: ﴿**نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحقِّ**﴾: فإنَّ نبأهما غريبٌ وخبرهما عجيبٌ، ﴿**لقوم يؤمنونَ**﴾: فإليهم يُساق

الخطابُ ويوجَّه الكلام؛ حيث إنَّ معهم من الإيمان ما يُقْبِلونَ به على تدبُّر ذٰلك وتلقِّيه بالقَبول والاهتداء بمواقع العِبَرِ، ويزدادون به إيماناً ويقيناً وخيراً إلى خيرهم، وأما مَن عداهم؛ فلا يستفيدونَ منه إلَّا إقامة الحجَّة عليهم، وصانه اللّٰه عنهم، وجعل بينهم وبينه حجاباً أن يفقهوه.

﴿٤﴾ فأول هٰذه القصَّة: ﴿إنَّ فرعون علا في الأرض﴾: في ملكه وسلطانِهِ وجنودِهِ وجبروتِهِ، فصار من أهل العلوِّ فيها، لا من الأعْلَيْن فيها، ﴿وجعل أهلها شِيَعاً﴾؛ أي: طوائف متفرِّقة يتصرَّف فيهم بشهوته وينفِّذ فيهم ما أراد من قهره وسطوته، ﴿يستضعِفُ طائفةً منهم﴾: وتلك الطائفةُ هم بنو إسرائيل، الذين فضَّلهم اللّٰه على العالمين، الذي ينبغي له أن يكرِمَهم ويجلَّهم، ولٰكنه استضعفهم بحيثُ إنه رأى أنَّهم لا مَنَعَةَ لهم تمنعُهم مما أراده فيهم، فصار لا يُبالي بهم ولا يهتمُّ بشأنهم، وبلغت به الحال إلى أنَّه ﴿يُذَبِّح أبناءهم ويَسْتَحيي نساءهم﴾: خوفاً من أن يكثُروا فيغمروه في بلاده، ويصير لهم الملك. ﴿إنَّه كان من المفسدين﴾: الذين لا قصدَ لهم في صلاح[1] الدين ولا صلاح[1] الدُّنيا. وهٰذا من إفساده في الأرض.

﴿٥﴾ ﴿ونريدِ أن نَمُنَّ على الذين استُضْعِفوا في الأرض﴾: بأن نُزيلَ عنهم موادَّ الاستضعاف ونُهْلِكَ من قاوَمَهم ونخذل من ناوأهم، ﴿ونَجْعَلَهم أئمَّةً﴾ في الدين، وذٰلك لا يحصُلُ مع الاستضعاف، بل لابدَّ من تمكينٍ في الأرض، وقدرةٍ تامَّةٍ، ﴿ونجعلهم الوارثين﴾: للأرض، الذين لهم العاقبة في الدنيا قبل الآخرة.

﴿٦﴾ ﴿ونمكِّن لهم في الأرض﴾: فهٰذه الأمور كلُّها قد تعلَّقت بها إرادة اللّٰه وجرتْ بها مشيئتُه. ﴿و﴾: كذٰلك نريد أن ﴿نُرِيَ فرعون وهامان﴾: وزيره ﴿وجنودَهما﴾: التي بها صالوا، وجالوا وعَلَوا وبَغَوا، ﴿منهم﴾؛ أي: من هٰذه الطائفة المستضعفة ﴿ما كانوا يَحْذَرونَ﴾: من إخراجِهم من ديارهم، ولذٰلك كانوا يسعَوْن في قمعهم وكسر شوكتهم وتقتيل أبنائهم الذين هم محلُّ ذٰلك؛ فكل هٰذا قد أراده اللّٰه، وإذا أراد أمراً؛ سهَّل أسبابه ونَهَّجَ طرقه، وهٰذا الأمر كذٰلك؛ فإنَّه قدَّر وأجرى من الأسباب ـ التي لم يشعرْ بها لا أولياؤه ولا أعداؤه ـ ما هو سببٌ موصلٌ إلى هذا المقصود.

---

(١) في (ب): «إصلاح».

﴿٧﴾ فأول ذٰلك لما أوجدَ اللّه رسولَه موسى الذي جَعَلَ استنقاذَ هٰذا الشعب الإسرائيليِّ على يديه وبسببه، وكان في وقت تلك المخافة العظيمة التي يذبِّحون بها الأبناء، أوحى إلى أمِّه أن ترضِعَه ويمكثَ عندها، ﴿فإذا خِفتِ عليه﴾: بأن أحسستِ أحداً تخافين عليه منه أن يوصِلَه إليهم، ﴿فألقيه في اليمِّ﴾؛ أي: نيل مصر، في وسط تابوتٍ مغلق، ﴿ولا تخافي ولا تحزني إنَّا رادُّوه إليك وجاعلوه من المرسلينَ﴾: فبشَّرها بأنَّه سيردُّه عليها وأنه سيكبر ويَسْلَم من كيدِهم ويجعلُه اللّه رسولاً، وهٰذا من أعظم البشائر الجليلة. وتقديم هٰذه البشارة[1] لأمِّ موسى ليطمئنَّ قلبُها، ويسكنَ رَوْعُها.

﴿٨﴾ فكأنَّها خافتْ عليه، وفعلتْ ما أمِرَت به، ألقته في اليمِّ، وساقه اللّه تعالى، حتى التقطه ﴿آلُ فرعون﴾: فصار من لَقَطِهم، وهم الذين باشروا وُجْدانَه؛ ﴿ليكون لهم عدوًّا وحَزَناً﴾؛ أي: لتكون العاقبةُ والمآلُ من هٰذا الالتقاط أن يكون عدوًّا لهم وحَزَناً يَحْزُنُهم؛ بسبب أنَّ الحذر لا ينفع من القدر، وأنَّ الذي خافوا منه من بني إسرائيل قيَّض اللّه أن يكونَ زعيمُهم يتربَّى تحت أيديهم وعلى نظرِهم وبكفالَتهم.

وعند التدبُّر والتأمُّل تجدُ في طيِّ ذٰلك من المصالح لبني إسرائيل ودفع كثيرٍ من الأمور الفادحة بهم ومنع كثيرٍ من التعدِّيات قبلَ رسالته؛ بحيث إنَّه صار من كبار المملكة، وبالطبع لا بدَّ أن يحصُلَ منه مدافعةٌ عن حقوق شعبِهِ، هٰذا وهو هو ذو الهمة العالية والغيرة المتوقِّدة، ولهٰذا وصلتِ الحالُ بذٰلك الشعب المستضعف ـ الذي بلغ بهم الذُّلُّ والإهانةُ إلى ما قصَّ اللّه علينا بعضَه ـ أنْ صار بعضُ أفراده ينازِعُ ذٰلك الشعبَ القاهرَ العالي في الأرض كما سيأتي بيانُهُ، وهٰذا مقدِّمةٌ للظُّهور؛ فإن اللّه تعالى من سنَّته الجارية أن جعل الأمور تمشي على التدريج شيئاً فشيئاً، ولا تأتي دفعةً واحدة. وقوله: ﴿إن فرعونَ وهامانَ وجنودَهما كانوا خاطِئينَ﴾؛ أي: فأرَدْنا أن نعاقِبهما على خطئهما، ونكيدهم جزاءً على مكرهم وكيدهم.

﴿٩﴾ فلما التَقَطَهُ آلُ فرعون؛ حنَّن اللّهُ عليه امرأة فرعون الفاضلة الجليلة المؤمنة آسية بنت مزاحم، ﴿وقالت﴾: هٰذا الولدُ ﴿قُرَّةُ عينٍ لي ولكَ لا تَقْتُلوهُ﴾؛ أي: أبقِهِ لنا لِتَقَرَّ به أعينُنا، ونُسَرَّ به في حياتنا، ﴿عسى أن يَنفَعَنا أو نَتَّخِذَه ولداً﴾؛ أي: لا

---

(١) في (ب): «البشائر».

يخلو: إمَّا أن يكونَ بمنزلة الخدم الذين يَسْعَونَ في نفعنا وخدمتنا، أو نرقِّيه درجةً[1] أعلى من ذٰلك؛ نجعلَهُ ولداً لنا ونكرِمُه ونُجِلُّه. فقدَّر اللّه تعالى أنَّه نَفَعَ امرأةَ فرعونَ التي قالت تلك المقالة؛ فإنَّه لما صار قُرَّةَ عينٍ لها وأحبَّتْه حبًّا شديداً، فلم يزلْ لها بمنزلة الولد الشفيق، حتى كَبُرَ، ونبَّأه اللّه، وأرسلَه، فبادرتْ إلى الإسلام والإيمان به، رضي اللّه عنها، وأرضاها. قال اللّه تعالى [عن] هٰذه المراجعاتِ والمقاولاتِ في شأن موسى: ﴿وهم لا يشعرونَ﴾: ما جرى به القلمُ، ومضى به القدرُ من وصولِهِ إلى ما وَصَلَ إليه. وهٰذا من لطفِهِ تعالى؛ فإنَّهم لو شَعَروا؛ لكان لهم وله شأنٌ آخر.

﴿١٠﴾ ولما فقدتْ موسى أمُّه حزنت حزناً شديداً، وأصبحَ فؤادُها فارغاً من القلق الذي أزعجها على مقتضى الحالة البشريَّة، مع أنَّ اللّه تعالى نهاها عن الحزن والخوف، ووعدها بردِّه. ﴿إن كادَتْ لَتُبْدي به﴾؛ أي: بما في قلبها ﴿لولا أن رَبَطْنا على قَلْبِها﴾: فثبَّتْناها، فصبرتْ ولم تُبْدِ به؛ ﴿لتكونَ﴾: بذٰلك الصبر والثبات ﴿من المؤمنينَ﴾: فإنَّ العبد إذا أصابتْه مصيبةٌ فصبر وثبتَ؛ ازداد بذٰلك إيمانُه، ودلَّ ذٰلك على أنَّ استمرار الجزع مع العبد دليلٌ على ضعف إيمانه.

﴿١١﴾ ﴿وقالت﴾ أمُّ موسى ﴿لأختِهِ قُصِّيهِ﴾؛ أي: اذهبي فقُصِّي الأثرَ عن أخيك، وابحثي عنه؛ من غيرِ أن يُحِسَّ بك أحدٌ أو يشعروا بمقصودِك، فذهبتْ تقصُّه، ﴿فبَصُرَتْ به عن جُنُبٍ وهم لا يَشْعُرونَ﴾؛ أي: أبصرتْه على وجهٍ كأنَّها مارةٌ لا قصدَ لها فيه، وهٰذا من تمام الحزم والحذرِ؛ فإنَّها لو أبصرتْه وجاءتْ إليهم قاصدةً؛ لظنُّوا بها أنها هي التي ألقتْه، فربَّما عزموا على ذبحِهِ عقوبةً لأهله.

﴿١٢﴾ ومن لُطْفِ اللّه بموسى وأمه أنْ مَنَعَه من قَبول ثدي امرأةٍ، فأخرجوه إلى السوقِ رحمةً به، ولعل أحداً يطلبُهُ، فجاءت أختُه وهو بتلك الحال، ﴿فقالتْ هل أدُلُّكُم على أهل بيتٍ يَكْفُلونَه لكم وهُم له ناصحونَ﴾: وهٰذا جُلُّ غرضِهم؛ فإنَّهم أحبُّوه حبًّا شديداً، وقد منعَهُ اللّهُ من المراضع، فخافوا أن يموتَ.

﴿١٣﴾ فلما قالت لهم أختُه تلكَ المقالَة المشتملةَ على الترغيب في أهل هٰذا البيت بتمام حفظِهِ وكفالتِهِ والنُّصح له؛ بادروا إلى إجابتها، فأعْلَمَتْهم ودلَّتْهم على أهل هٰذا البيت. ﴿فَرَدَدْناه إلى أمِّه﴾: كما وَعَدْناها بذٰلك؛ ﴿كي تَقَرَّ عينُها ولا

---

(١) في (ب): «منزلة».

﴿تَحْزَنَ﴾: بحيث إنَّه تربَّى عندَها على وجهٍ تكون فيه آمنةً مطمئنةً تفرحُ به وتأخذُ الأجرة الكثيرة على ذٰلك، ﴿ولِتَعْلَمَ أنَّ وعدَ اللَّه حقٌّ﴾: فأريْناها بعضَ ما وَعَدْناها به عياناً ليطمئنَّ بذٰلك قلبُها ويزدادَ إيمانُها، ولِتَعْلَمَ أنَّه سيحصُلُ وعدُ اللَّه في حفظِهِ ورسالتِهِ. ﴿ولكنَّ أكثرهم لا يعلمونَ﴾: فإذا رأوا السبب متشوِّشاً؛ شوَّشَ ذٰلك إيمانَهم؛ لعدم علمهم الكامل أنَّ اللَّه تعالى يجعلُ المحنَ والعقباتِ الشاقَّةَ[1] بين يدي الأمور العاليةِ والمطالبِ الفاضلة.

فاستمرَّ موسى عليه الصلاة والسلام عند آلِ فرعونَ يتربَّى في سلطانِهِم ويركبُ مراكِبَهم ويَلْبَسُ ملابِسَهم، وأمُّه بذٰلك مطمئنةٌ، قد استقرَّ أنَّها أمُّه من الرضاع، ولم يُستنكرْ ملازمتُه إيَّاها و[حنوُّها عليه][2]. وتأمل هٰذا اللطف وصيانة نبيِّه موسى من الكذب في منطقِهِ وتيسيرِ الأمر الذي صار به التعلُّق بينه وبينها، الذي بانَ للناس هو الرضاعُ الذي بسببه يسمِّيها أمًّا، فكان الكلامُ الكثيرُ منه ومن غيرِهِ في ذٰلك كلِّه صدقاً وحقًّا.

﴿١٤﴾ ﴿ولمَّا بَلَغَ أشُدَّهُ﴾: من القوَّة والعقل واللب، وذٰلك نحو أربعين سنة في الغالب، ﴿واسْتَوى﴾: كملت فيه تلك الأمورُ ﴿آتيناه حكماً وعلماً﴾؛ أي: حكماً يعرف به الأحكام الشرعيَّة، ويحكُم به بين الناس، وعلماً كثيراً. ﴿وكذٰلك نَجْزي المحسنينَ﴾: في عبادة اللَّه، المحسنين لخلق اللَّه؛ يعطيهم علماً وحكماً بحسب إحسانِهِم. ودلَّ هٰذا على كمال إحسان موسى عليه السلام.

﴿١٥ ـ ١٧﴾ ﴿ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها﴾: إما وقت القائلة أو غير ذٰلك من الأوقات التي بها يغفلون عن الانتشار، ﴿فوجَدَ فيها رجلينِ يقتتلانِ﴾: [أي] يتخاصمانِ ويتضاربانِ. ﴿هٰذا من شيعتِهِ﴾؛ أي: من بني إسرائيل، ﴿وهٰذا من عدوِّه﴾: القبط، ﴿فاستغاثه الذي من شيعتِهِ على الذي من عدوِّهِ﴾: لأنَّه قد اشتهر وعَلِمَ الناسُ أنَّه من بني إسرائيل، واستغاثتُهُ لموسى دليلٌ على أنه بَلَغَ موسى عليه السلام مبلغاً يُخافُ منه ويُرجى من بيت المملكة والسلطان. ﴿فوَكَزَهُ موسى﴾؛ أي: وكز الذي من عدوِّه استجابةً لاستغاثة الإسرائيليِّ، ﴿فقضى عليه﴾؛ أي: أماته من تلك الوكزةِ لشدَّتِها وقوَّة موسى. فندم موسى عليه السلام على ما جرى منه، و﴿قال هٰذا من عمل الشَّيطانِ﴾؛ أي: من تزيينه ووسوسته. ﴿إنَّه عَدُوٌّ مضلٌّ

---

(١) في (ب): «المحن الشاقة».
(٢) في (أ): «حنوه عليها».

مبينٌ﴾: فلذٰلك أجريتُ ما أجريتُ بسبب عداوتِهِ البيِّنة وحرصه على الإضلال. ثم استغفر ربَّه، فـ﴿قَال ربِّ إنِّي ظلمتُ نفسي فاغفِرْ لي فَغَفَرَ له إنَّه هو الغفورُ الرحيم﴾: خصوصاً للمُخْبِتِينَ إليه، المبادِرين للإنابةِ والتوبةِ؛ كما جرى من موسى عليه السلام، فـ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿ربِّ بما أنعَمْتَ عليَّ﴾: بالتوبة والمغفرةِ والنعم الكثيرة، ﴿فلنْ أكونَ ظهيراً﴾؛ أي: مُعيناً ومساعداً ﴿للمجرِمين﴾؛ أي: لا أعين أحداً على معصيةٍ. وهٰذا وعدٌ من موسى عليه السلام بسببِ مِنَّةِ اللّه عليه أنْ لا يُعينَ مجرماً كما فعل في قَتْل القبطيِّ، وهٰذا يفيدُ أنَّ النعم تقتضي من العبدِ فعل الخير وترك الشَّرِّ.

﴿١٨ ـ ١٩﴾ فلمَّا جرى منه قَتْلُ الذي هو من عدوِّه؛ أصبح ﴿في المدينةِ خائفاً يترقَّبُ﴾: هل يشعرُ به آلُ فرعون أم لا؟ وإنما خاف لأنَّه قد عَلِمَ أنَّه لا يتجرأ أحدٌ على مثل هٰذه الحال سوى موسى من بني إسرائيل. فبينما هو على تلك الحال؛ ﴿فإذا الذي استنصره بالأمس﴾: على عدوِّه. ﴿يَسْتَصْرِخُه﴾: على قبطيٍّ آخر، ﴿قال له موسى﴾: موبخاً على حاله: ﴿إنَّك لَغَوِيٌّ مبينٌ﴾؛ أي: بَيِّنُ الغواية ظاهر الجراءة، ﴿فلما أن أراد أن يبطش﴾: موسى ﴿بالذي هو عدو لهما﴾: أي له وللمخاصِم المستصرِخ لموسى؛ أي: لم يزل اللجاجُ بين القبطيِّ والإسرائيليِّ، وهو يستغيثُ بموسى، فأخذته الحميَّة، حتى همَّ أن يبطشَ بالقبطي، فـ﴿قَالَ﴾ له القبطيُّ زاجراً له عن قتله: ﴿أتريدُ أن تَقْتُلَني كما قَتَلْت نفساً بالأمس إن تريدُ إلَّا أن تكونَ جبَّاراً في الأرض﴾: لأنَّ من أعظم آثارِ الجبَّارِ في الأرض قتلَ النفس بغير حق. ﴿وما تريدُ أن تكونَ من المصلِحين﴾: وإلَّا؛ فلو أردت الإصلاح؛ لَحُلْتَ بيني وبينَه من غير قتل أحدٍ. فانكفَّ موسى عن قتلِهِ، وارعوى لوعظِهِ وزجرِهِ.

﴿٢٠﴾ وشاع الخبرُ بما جرى من موسى في هاتين القضيَّتين حتى تراوَدَ ملأُ فرعونَ وفرعونُ على قتلِهِ، وتشاوروا على ذٰلك، فقيَّض[1] اللّه ذٰلك الرجلَ الناصحَ، وبادرهم إلى الإخبار لموسى بما اجتمع عليه رأي ملئهم، فقال: ﴿وجاء رجلٌ من أقصى المدينة يسعى﴾؛ أي: ركضاً على قدميه من نُصْحِهِ لموسى وخوفِهِ أن يوقِعوا به قبلَ أن يشعر، فقال: ﴿يا موسى إنَّ الملأ يأتَمِرونَ﴾؛ أي: يتشاورون فيك؛ ﴿لِيَقْتُلوك فاخرُجْ﴾: عن المدينة ﴿إنِّي لك من الناصحين﴾: فامتثل نُصحه.

(١) في (ب): «وقيض».

﴿٢١﴾ ﴿فخرج منها خائفاً يترقَّب﴾: أن يُوْقَعَ به القتلُ، ودعا اللّه و ﴿قال ربِّ نَجِّني من القوم الظالمينَ﴾: فإنَّه قد تاب من ذنبِهِ، وفعله غضباً من غير قصدٍ منه للقتل؛ فتوعُّدُهم له ظلمٌ منهم وجراءةٌ.

﴿٢٢﴾ ﴿ولـمَّا توجَّهَ تِلْقاءَ مَدْيَنَ﴾؛ أي: قاصداً بوجهه مدينَ، وهو جنوبي فلسطين؛ حيث لا ملك لفرعون، ﴿قال عسى ربِّي أن يَهْدِيَني سواءَ السبيل﴾؛ أي: وسط الطريق المختصر الموصل إليها بسهولةٍ ورفقٍ. فهداه اللّه سواء السبيل، فوصل إلى مَدْيَنَ.

﴿٢٣﴾ ﴿ولـمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ وجدَ عليه أمَّةً من الناس يسقونَ﴾: مواشِيَهم، وكانوا أهل ماشيةٍ كثيرةٍ، ﴿ووجد من دونهم﴾؛ أي: دون تلك الأمة ﴿امرأتينِ تذودانِ﴾: غَنَمَهما عن حياض الناس؛ لعجْزِهما عن مزاحمة الرجال، وبخلِهِم وعدم مروءتهم عن السقي لهما، ﴿قال﴾: لهما موسى: ﴿ما خَطْبُكُما﴾؛ أي: ما شأنُكما بهٰذه الحالة؟ ﴿قالتا لا نسقي حتى يُصْدِرَ الرِّعاءُ﴾؛ أي: قد جرتِ العادةُ أنَّه لا يحصُلُ لنا سقي حتى يُصْدِرَ الرعاءُ مواشِيَهم؛ فإذا خلا لنا الجوُّ؛ سقينا، ﴿وأبونا شيخٌ كبيرٌ﴾؛ أي: لا قوَّة له على السقي، فليس فينا قوَّةٌ نقتدِرُ بها، ولا لنا رجالٌ يزاحِمون الرعاء.

﴿٢٤﴾ فرقَّ لهما موسى عليه السلام ورحِمَهما، ﴿فسقى لهما﴾: غير طالبٍ منهما الأجرَ، ولا له قصدٌ غيرَ وجه اللّه تعالى، فلما سقى لهما، وكان ذٰلك وقت شدة حرٍّ وسط النهار؛ بدليل قوله: ﴿ثمَّ تولَّى إلى الظِّلِّ﴾؛ مستريحاً لتلك الظلال بعد التعب، ﴿فقال﴾ في تلك الحالة مسترزقاً ربَّه: ﴿ربِّ إنِّي لما أنزلتَ إليَّ من خيرٍ فقيرٌ﴾؛ أي: إنِّي مفتقرٌ للخير الذي تسوقُهُ إليَّ وتيسِّره لي، وهٰذا سؤالٌ منه بحالِهِ، والسؤال بالحال أبلغُ من السؤال بلسان المقال.

﴿٢٥﴾ فلم يزل في هٰذه الحالة داعياً ربه متملِّقاً، وأما المرأتان؛ فذهبتا إلى أبيهما وأخبرتاه بما جرى، فأرسل أبوهما إحداهما إلى موسى، فجاءته ﴿تمشي على استحياءٍ﴾، وهٰذا يدلُّ على كرم عنصرِها وخُلُقِها الحسن؛ فإنَّ الحياء من الأخلاق الفاضلة، وخصوصاً في النساء، ويدلُّ على أنَّ موسى عليه السلام لم يكنْ فيما فعله من السقي لهما بمنزلة الأجير والخادم الذي لا يستحى منه عادة، وإنَّما هو عزيزُ النفس، رأتْ من حسنِ خُلُقِهِ ومكارم أخلاقه ما أوجبَ لها الحياء منه، ﴿قالتْ﴾: له: ﴿إنَّ أبي يدعوكَ لِيَجْزِيَكَ أجرَ ما سَقَيْتَ لنا﴾؛ أي: لا لمنٍّ عليك، بل أنت

الذي ابتدأتنا بالإحسان، وإنَّما قصدُه أن يكافِئَك على إحسانِك، فأجابها موسى، ﴿فلمَّا جاءه وقصَّ عليه القَصَصَ﴾: من ابتداء السبب الموجب لهربِهِ إلى أن وَصَلَ إليه، ﴿قال﴾: له مسكِّناً رَوْعَهُ جابراً قَلْبَهُ: ﴿لا تَخَفْ نجوتَ من القوم الظالمينَ﴾؛ أي: ليذهبْ خوفُك ورَوْعُك؛ فإنَّ اللّه نجَّاك منهم حيث وصلتَ إلى هٰذا المحلِّ الذي ليس لهم عليه سلطانٌ.

﴿٢٦﴾ ﴿قالتْ إحداهُما﴾؛ أي: إحدى ابنتيهِ: ﴿يا أبتِ اسْتَأجِرْه﴾؛ أي: اجْعَلْه أجيراً عندك يرعى الغنم ويسقيها، ﴿إنَّ خير مَنِ استأجرتَ القويُّ الأمينُ﴾؛ أي: إنَّ موسى أولى مَنِ استُؤْجِرَ؛ فإنَّه جمع القوَّة والأمانة، وخير أجيرٍ استُؤْجِرَ مَن جَمَعَهما؛ [أي]: القوَّة والقدرة على ما استُؤْجِرَ عليه، والأمانة فيه بعدم الخيانة، وهٰذان الوصفان ينبغي اعتبارُهما في كلِّ مَنْ يَتَوَلَّى للإنسان عملاً بإجارة أو غيرها؛ فإنَّ الخلل لا يكون إلا بفقدِهِما أو فقد إحداهما، وأمَّا اجتماعُهما؛ فإنَّ العمل يتمُّ ويكمُلُ. وإنَّما قالت ذٰلك لأنَّها شاهدت من قوَّةِ موسى عند السَّقْي لهما ونشاطِهِ ما عَرَفَتْ به قوَّته، وشاهدتْ من أمانتِهِ وديانتِهِ وأنَّه رحمهما في حالةٍ لا يُرجى نفعهما، وإنَّما قصدُه بذٰلك وجه اللّه تعالى.

﴿٢٧﴾ فـ﴿قالَ﴾ صاحبُ مَدْيَنَ لموسى: ﴿إنِّي أريدُ أن أُنكِحَكَ إحدى ابنتيَّ هاتينِ على أن تَأجُرَني﴾؛ أي: تصير أجيراً عندي ﴿ثماني حِجَجٍ﴾؛ أي: ثماني سنين، ﴿فإنْ أتممتَ عشراً فمن عندِكَ﴾: تبرُّع منك لا شيء واجبٌ عليك. ﴿وما أريدُ أن أشُقَّ عليك﴾: فأحتِّم عشرَ السنين، أو ما أريد أن أستأجِرَك لأكلِّفَكَ أعمالاً شاقَّة، وإنَّما استأجرتُك لعمل سهل يسيرٍ لا مشقَّةَ فيه. ﴿ستَجِدُني إن شاء اللّه من الصالحينَ﴾: فرغَّبه في سهولة العمل وفي حسن المعاملة، وهٰذا يدلُّ على أن الرجل الصالح ينبغي له أن يُحَسِّنَ خُلُقَهُ مهما أمكنه، وأنَّ الذي يُطْلَبُ منه أبلغُ من غيره.

﴿٢٨﴾ فـ﴿قالَ﴾ موسى عليه السلام مجيباً له فيما طلب منه: ﴿ذٰلك بيني وبينَكَ﴾؛ أي: هٰذا الشرط الذي أنت ذكرتَ رضيتُ به، وقد تمَّ فيما بيني وبينك، ﴿أيَّما الأجلينِ قضيتُ فلا عُدوانَ عليَّ﴾: سواء قضيتُ الثمان الواجبة أم تبرَّعْتُ بالزائد عليها، ﴿واللّه على ما نَقولُ وكيلٌ﴾: حافظٌ يراقِبُنا ويعلم ما تعاقدنا عليه.

وهٰذا الرجلُ أبو المرأتينِ صاحبُ مدينَ ليس بشعيب النبيِّ المعروف كما اشْتُهِرَ

عند كثيرٍ من الناس؛ فإنَّ هٰذا قولٌ لم يدلَّ عليه دليلٌ[١]، وغايةُ ما يكون أن شعيباً عليه السلام قد كانت بلدُهُ مدينَ، وهٰذه القضيةُ جرتْ في مدينَ؛ فأين الملازمة بين الأمرين؟! وأيضاً؛ فإنَّه غير معلوم أن موسى أدركَ زمانَ شعيبٍ؛ فكيف بشخصِهِ؟! ولو كان ذٰلك الرجلُ شعيباً؛ لذكره اللّه تعالى، ولسمَّتْه المرأتان. وأيضاً؛ فإنَّ شعيباً عليه الصلاة والسلام قد أهلك اللّه قومَه بتكذيبِهم إيَّاه، ولم يبقَ إلَّا مَنْ آمن به، وقد أعاذ اللّه المؤمنينَ به أن يرضَوْا لبنتي نبيِّهم بمنعهما عن الماء وصدِّ ماشيتهما حتى يأتِيَهُما رجلٌ غريبٌ فيحسِنُ إليهما ويسقي ماشيتهما، وما كان شعيبٌ ليرضى أن يرعى موسى عنده ويكون خادماً له وهو أفضلُ منه وأعلى درجةً؛ إلَّا أنْ يُقال: هٰذا قبل نبوَّة موسى؛ فلا منافاة. وعلى كلِّ حال؛ لا يُعْتَمَدُ على أنَّه شعيبٌ النبيُّ بغير نقل صحيح عن النبي ﷺ. واللّه أعلم.

﴿٢٩﴾ **﴿فلما قضى موسى الأجلَ﴾**: يُحتمل أنَّه قضى الأجل الواجب أو الزائد عليه كما هو الظنُّ بموسى ووفائِهِ؛ اشتاق إلى الوصول إلى أهله ووالدتِهِ وعشيرتِهِ ووطنِهِ، وظنَّ[٢] من طول المدَّة أنَّهم قد تناسَوْا ما صدر منه. **﴿سار بأهلِهِ﴾**: قاصداً مصر، **﴿آنس﴾**؛ أي: أبصر، **﴿من جانب الطُّورِ ناراً﴾**، فـ**﴿قالَ لأهلِهِ امْكُثوا إنِّي آنستُ ناراً لعلِّي آتيكُم منها بخبرٍ﴾** أو آتيكم بشهاب قبس، **﴿لعلَّكم تَصْطَلونَ﴾**: وكان قد أصابهم البردُ، وتاهوا الطريق.

﴿٣٠﴾ فلمَّا أتاها نودي: **﴿يا موسى إنِّي أنا اللّه ربُّ العالمينَ﴾**: فأخبره بألوهيَّته وربوبيَّته، ويلزم من ذٰلك أنْ يأمُرَه بعبادتِهِ وتألُّهه كما صرَّح به في الآية الأخرى، **﴿فاعْبُدْني وأقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْري﴾**.

﴿٣١﴾ **﴿وأنْ ألقِ عصاكَ﴾**: فألقاها، **﴿فلمَّا رآها تَهتَزُّ﴾**: تسعى سعياً شديداً، ولها صورةٌ مُهيلة **﴿كأنها جانٌّ﴾**: ذكرُ الحيات العظيم، **﴿ولَّى مُدْبِراً ولم يُعَقِّبْ﴾**؛ أي: يرجع لاستيلاء الروع على قلبه، فقال اللّه له: **﴿يا موسى أقْبِلْ ولا تَخَفْ إنَّك من الآمنين﴾**: وهٰذا أبلغُ ما يكون في التأمين وعدم الخوف؛ فإنَّ قولَه: **﴿أقبل﴾**:

---

(١) قال الطبري (١٩/ ٥٦٢): «وهٰذا مما لا يدرك علمه إلاَّ بخبر ولا خبر بذٰلك تجب حجته». وقال ابن كثير: «إنه لو كان إياه [أنه شعيب النبي عليه السلام] لأوشك أن ينص على اسمه في القرآن هاهنا، وما جاء في بعض الأحاديث، من التصريح بذكره في قصة موسى لم يصح إسناده»، «تفسير ابن كثير» (٦/ ٢٣٨).

(٢) في (ب): «وعلم».

يقتضي الأمر بإقباله ويجب عليه الامتثال، ولٰكن قد يكونُ إقبالُهُ وهو لم يزل الأمرُ المخوفُ، فقال: ﴿ولا تَخَفْ﴾: أمر له بشيئين: إقباله، وأنْ لا يكون في قلبِهِ خوفٌ. ولكن يبقى احتمالٌ، وهو أنَّه قد يُقْبِلُ وهو غير خائفٍ، ولكن لا تحصُلُ له الوقاية والأمن من المكروه فقال: ﴿إنك من الآمنين﴾: فحينئذٍ اندفع المحذور من جميع الوجوه. فأقبل موسى عليه السلام غير خائف ولا مرعوبٍ، بل مطمئنًا واثقاً بخبر ربِّه، قد ازداد إيمانُه وتمَّ يقينُه. فهٰذه آيةٌ أراه اللّه إيَّاها قبلَ ذَهابه إلى فرعون؛ ليكونَ على يقين تامٍّ، ليكون أجرأ له وأقوى وأصلب.

﴿٣٢﴾ ثم أراه الآية الأخرى، فقال: ﴿اسْلُكْ يَدَكَ﴾؛ أي: أدْخِلْها ﴿في جيبِك تَخْرُجْ بيضاءَ من غير سوءٍ﴾: فسَلَكَها وأخرجها كما ذكر[1] اللّه تعالى، ﴿واضْمُمْ إليك جناحك من الرَّهْبِ﴾؛ أي: ضمَّ جناحك ـ وهو عضُدُك ـ إلى جنبك؛ ليزولَ عنك الرهبُ والخوفُ. ﴿فذٰنِكَ﴾؛ أي: انقلاب العصا حيةً وخروجُ اليد بيضاء من غير سوء ﴿برهانانِ من ربِّك﴾؛ أي: حجتان قاطعتان من اللّه ﴿إلى فرعون وملئه إنَّهم كانوا قوماً فاسقين﴾: فلا يكفيهم مجردُ الإنذار وأمر الرسول إيَّاهم، بل لا بدَّ من الآيات الباهرة إن نفعت.

﴿٣٣ ـ ٣٤﴾ فَـ﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام معتذراً من ربِّه وسائلاً له المعونَةَ على ما حَمَلَه وذاكراً له الموانعَ التي فيه ليزيلَ ربُّه ما يَحْذَرُهُ منها: ﴿ربِّ إنِّي قتلتُ منهم نفساً﴾؛ أي: ﴿فأخافُ أن يقتلونِ. وأخي هارونُ هو أفصحُ مني لساناً فأرسِلْهُ معي ردءاً﴾؛ أي: معاوناً ومساعداً، يصدِّقون فإنَّه مع تضافرِ الأخبار يقوى الحقُّ.

﴿٣٥﴾ فأجابه اللّه إلى سؤاله، فقال: ﴿سنشدُّ عَضُدَكَ بأخيكَ﴾؛ أي: نعاونُك به ونقوِّيك. ثم أزال عنه محذورَ القتل، فقال: ﴿ونجعلُ لكُما سلطاناً﴾؛ أي: تسلُّطاً وتمكُّناً من الدعوة بالحجَّة والهيبة الإلٰهيَّة من عدوِّهما لهما؛ ﴿فلا يَصِلون إليكُما﴾: وذٰلك بسبب آياتِنا وما دلَّت عليه من الحقِّ وما أزعجتْ به من باشرها ونظر إليها؛ فهي التي بها حَصَلَ لكما السلطان، واندفَعَ بها عنكم كيدُ عدوِّكم[2]، وصارت لكم أبلغَ من الجنود أولي العدد والعُدد. ﴿أنتُما ومَنِ اتَّبَعَكما الغالبونَ﴾: وهٰذا وعدٌ لموسى في ذٰلك الوقت، وهو وحده فريدٌ، وقد رجع إلى بلدِهِ بعدما كان شريداً، فلم تزلِ الأحوال تتطوَّر والأمور تنتقل حتى أنجزَ له موعوده، ومكَّنه

---

(١) في (ب): «ذكره». (٢) في (ب): «عدوهم».

من العباد والبلاد، وصار له ولأتباعِهِ الغلبةُ والظهورُ.

﴿٣٦﴾ فذهب موسى برسالة ربِّه، ﴿فلمَّا جاءهم موسى بآياتِنا بيِّناتٍ﴾: واضحاتِ الدِّلالة على ما قال لهم[١]، ليس فيها قصورٌ ولا خفاءٌ، ﴿قالوا﴾: على وجه الظُّلم والعلوِّ والعناد: ﴿ما هٰذا إلَّا سحرٌ مفترى﴾؛ كما قال فرعونُ في تلك الحال التي ظهر فيها الحقُّ، واستعلى على الباطل، واضمحلَّ الباطلُ، وخضع له الرؤساءُ العارِفون حقائقَ الأمور: ﴿إنَّه لكبيرُكُمُ الذي علَّمَكُمُ السحرَ﴾! هٰذا؛ وهو الذكيُّ غير الزكيِّ، الذي بلغ من المكر والخداع والكيد ما قصَّه اللّه علينا، وقد علم ما أنزل هٰؤلاء إلَّا رب السماوات والأرض، ولكنَّ الشقاء غالبٌ، ﴿وما سمعنا بهٰذا في آبائنا الأولين﴾: وقد كَذَبوا في ذٰلك؛ فإنَّ اللّه أرسل يوسفَ قبل موسى؛ كما قال تعالى: ﴿ولقد جاءكم يوسُفُ من قبلُ بالبيِّناتِ فما زِلْتُم في شكٍّ مما جاءكم به حتى إذا هَلَكَ قلتُم لن يَبْعَثَ اللّه من بعدِهِ رسولاً كذٰلك يُضِلُّ اللّه من هو مسرفٌ مرتاب﴾.

﴿٣٧﴾ ﴿وقال موسى﴾: حين زعموا أنَّ الذي جاءَهم به سحرٌ وضلالٌ، وأنَّ ما هم عليه هو الهدى: ﴿ربِّي أعلمُ بمن جاء بالهُدى مِنْ عندِهِ ومَن تكونُ له عاقبةُ الدار﴾؛ أي: إذا لم تُفِدِ المقابلةُ معكم وتبيينُ الآيات البيِّناتِ وأبيتُم إلَّا التَّمادي في غيِّكم واللَّجاج على كفرِكُم؛ فاللّه تعالى العالم بالمهتدي وغيره ومن تكونُ له عاقبةُ الدار؛ نحن أم أنتُم. ﴿إنَّه لا يُفْلِحُ الظالمون﴾: فصار عاقبةُ الدار لموسى وأتباعِهِ والفلاحُ والفوزُ، وصار لأولٰئك الخسار وسوء العاقبة والهلاك.

﴿٣٨﴾ ﴿وقال فرعونُ﴾: متجرِّئاً على ربِّه ومموِّهاً على قومِهِ السفهاء أخفاء العقول: ﴿يا أيُّها الملأ ما علمتُ لكم من إلٰهٍ غيري﴾؛ أي: أنا وحدي إلٰهُكم ومعبودُكم، ولو كان ثَمَّ إلٰهٌ غيري؛ لعلمتُه! فانظرُ إلى هٰذا الورع التامِّ من فرعون؛ حيثُ لم يَقُلْ: ما لكم من إلٰهٍ غيري! بل تورَّعَ وقال: ما علمتُ لكم من إلٰهٍ غيري! وهٰذا لأنَّه عندَهم العالم الفاضل، الذي مهما قال؛ فهو الحقُّ، ومهما أمر؛ أطاعوه.

فلما قال هٰذه المقالةَ التي قد تحتملُ أنَّ ثمَّ إلٰهاً غيره؛ أراد أن يحقِّق النفي الذي جعل فيه ذٰلك الاحتمال، فقال لهامان: ﴿فأوقِدْ لي يا هامانُ على الطينِ﴾: ليجعلَ له لَبِناً من فخَّار، ﴿فاجْعَلْ لي صرحاً﴾؛ أي: بناءً عالياً[٢]؛

---

(١) في (ب): «ما قاله لهم».

﴿لعلّي أطّلِعُ إلى إلٰهِ موسى وإنّي لأظنُّه﴾ كاذباً ولٰكنْ سنحقِّقُ هٰذا الظنَّ ونريكم كَذِبَ موسى.

فانْظُرْ هٰذه الجراءة العظيمة على الله، التي ما بَلَغَها آدميٌّ! كذَّبَ موسى، وادَّعى أنه الله، ونفى أن يكونَ له علمٌ بالإلٰه الحق، وفعل الأسباب ليتوصل إلى إلٰه موسى، وكل هٰذا ترويجٌ. ولكن العجب من هٰؤلاء الملأ الذين يزعمون أنَّهم كبارُ المملكة المدبِّرون لشؤونها؛ كيف لعب هٰذا الرجل بعقولهم، واستخفَّ أحلامَهم؟! وهٰذا لِفِسْقِهِم الذي صار صفةً راسخةً فيهم؛ فسد دينهم، ثم تبع ذٰلك فساد عقولهم؛ فنسألك اللهمَّ الثبات على الإيمان، وأن لا تُزيغَ قلوبَنا بعد إذْ هَدَيْتَنا، وتَهَبَ لنا من لَدُنْكَ رحمةً إنَّك أنت الوهاب.

﴿٣٩﴾ قال تعالى: ﴿واستكبر هو وجنودُهُ في الأرضِ بغيرِ الحقِّ﴾: استكبروا على عبادِ الله، وساموهم سوء العذاب، واستكبروا على رسل الله وما جاؤوهم به من الآيات، فكذَّبوها، وزعموا أنَّ ما هم عليه أعلى منها وأفضل، ﴿وظنُّوا أنَّهم إلينا لا يُرْجَعون﴾: فلذٰلك[1] تجرَّؤوا، وإلَّا؛ فلو علموا أو ظنُّوا أنَّهم يُرْجَعون إلى الله؛ لما كان منهم ما كان.

﴿٤٠﴾ ﴿فأخَذْناه وجنودَه﴾: عندما استمرَّ عنادُهُم وبَغْيُهم، ﴿فَنَبَذْناهم في اليمِّ فانظُرْ كيفَ كان عاقبةُ الظالمينَ﴾: كانت أشرَّ العواقبِ وأخسرَها عاقبةً، أعقبتْها العقوبةُ الدنيويَّة المستمرَّة المتَّصلة بالعقوبة الأخرويَّة.

﴿٤١﴾ ﴿وجعلناهم أئمةً يدعون إلى النار﴾؛ أي: جعلنا فرعونَ وملأه من الأئمة الذين يُقتدى بهم، ويُمشَى خلفَهم إلى دار الخزي والشقاء. ﴿ويوم القيامةِ لا يُنْصَرونَ﴾: من عذاب الله؛ فهم أضعف شيء عن دفعه عن أنفسهم، وليس لهم من دون الله من وليٍّ ولا نصيرٍ.

﴿٤٢﴾ ﴿وأتْبَعْناهم في هٰذه الدُّنيا لعنةً﴾؛ أي: وأتْبَعْناهم زيادةً في عقوبتهم وخِزْيِهِم في الدنيا لعنةً يلعنون، ولهم عند الخلق الثناء القبيح والمقتُ والذمُّ، وهٰذا أمرٌ مشاهدٌ؛ فهم أئمةُ الملعونين في الدُّنيا ومقدمتهم. ﴿ويوم القيامةِ هم من المقبوحينَ﴾: المبعَدين، المستقذرة أفعالهم، الذين[2] اجتمع عليهم مقتُ الله ومقتُ خلقِهِ ومقتُ أنفسهم.

---

(١) في (ب): «فكذلك».

(٢) في (ب): «الذي».

﴿٤٣﴾ ﴿ولقد آتَينا موسى الكتابَ﴾: وهو التوراةُ ﴿من بعدِ ما أهلَكْنا القرونَ الأولى﴾: الذين كان خاتِمَتُهُم في الإهلاك العامِّ فرعونَ وجنودَه، وهٰذا دليلٌ على أنَّه بعد نزول التوراة انقطعَ الهلاك العامُّ، وشُرِعَ جهادُ الكفار بالسيف؛ ﴿بصائرَ للناس﴾؛ أي: كتاب اللّه الذي أنزله على موسى فيه بصائرُ للناس؛ أي: أمور يبصرون بها ما ينفعهم وما يضرُّهم، فتقوم الحجَّةُ على العاصي، وينتفع بها المؤمن، فتكون رحمةً في حقِّه وهداية له إلى الصراط المستقيم، ولهٰذا قال: ﴿وهدىً ورحمةً لعلَّهم يتذكَّرونَ﴾.

﴿٤٤﴾ ولمَّا قصَّ اللّه على رسولِهِ ما قصَّ من هٰذه الأخبار الغيبيَّة؛ نبَّه العبادَ على أنَّ هٰذا خبرٌ إلٰهيٌّ محضٌ، ليس للرسول طريقٌ إلى علمِهِ؛ إلَّا من جهة الوحي؛ ولهٰذا قال: ﴿وما كنتَ بجانِبِ الغربيِّ﴾؛ أي: بجانب الطُّورِ الغربيِّ وقت قضائنا لموسى الأمر، ﴿وما كنتَ من الشاهدينَ﴾: على ذٰلك حتى يُقالَ: إنَّه وصل إليك من هٰذا الطريق.

﴿٤٥﴾ ﴿ولٰكنَّا أنشأنا قروناً فتطاولَ عليهم العُمُرُ﴾: فاندرس العلمُ ونُسِيَتْ آياتُهُ، فبعثناك في وقتٍ اشتدَّت الحاجةُ إليك وإلى ما علَّمناك وأوحينا إليك، ﴿وما كنتَ ثاوياً﴾؛ أي: مقيماً، ﴿في أهل مَدْيَنَ تتلو عليهم آياتِنا﴾؛ أي: تعلِّمُهم وتتعلَّم منهم، حتى أخبرتَ بما أخبرت من شأن موسى في مدين. ﴿ولٰكنَّا كنَّا مرسِلينَ﴾؛ أي: ولٰكنَّ ذٰلك الخبرَ الذي جئتَ به عن موسى أثرٌ من آثار إرسالِنا إيَّاكَ ووحيٌ لا بسبيل لك إلى علمه بدون إرسالِنا.

﴿٤٦﴾ ﴿وما كنتَ بجانِبِ الطُّورِ إذْ نادَيْنا﴾: موسى وأمَرْناه أنْ يأتي القومَ الظالمين ويبلِّغَهم رسالتنا ويُرِيَهم من آياتنا وعجائبنا ما قَصَصْنا عليك.

والمقصودُ أن الماجريات التي جرت لموسى عليه الصلاة والسلام في هٰذه الأماكن، فقصصتَها كما هي من غيرِ زيادةٍ ولا نقصٍ، لا يخلو من أحد أمرين: إمَّا أن تكونَ حَضَرْتَها وشاهَدْتَها، أو ذهبتَ إلى محالِّها فتعلَّمتها من أهلها؛ فحينئذٍ قد لا يدلُّ ذٰلك على أنَّك رسول اللّه؛ إذ الأمور التي يُخْبَرُ بها عن شهادةٍ ودراسةٍ من الأمور المشتركة غير المختصَّة بالأنبياء، ولٰكن هٰذا قد عُلِمَ وتُيُقِّنَ أنه ما كان وما صار؛ فأولياؤك وأعداؤك يعلَمون عدم ذٰلك. فتعيَّن الأمر الثاني، وهو أن هٰذا جاءك من قِبَلِ اللّه ووحيه وإرسالِهِ، فثبت بالدليل القطعيِّ صحةُ رسالتك ورحمةُ اللّه بك للعبادِ، ولهٰذا قال: ﴿ولٰكن رحمةً من

ربِّك لِتُنذِرَ قوماً ما أتاهم من نذيرٍ من قَبْلِكَ﴾؛ أي: العرب وقريش؛ فإنَّ الرسالة عندهم لا تُعرف وقت إرسال الرسول وقبله بأزمانٍ متطاولة، ﴿لعلَّهم يتذكَّرون﴾: تفصيل الخير فيفعلونه، والشر فيتركونه. فإذا كنتَ بهٰذه المنزلة؛ كان الواجبُ عليهم المبادرةَ إلى الإيمان بك وشكرِ هٰذه النعمة التي لا يُقادَرُ قَدْرُها ولا يُدْرَكُ شُكرها. وإنذارُه للعرب لا ينفي أنْ يكون مرسَلاً لغيرِهم؛ فإنَّه عربيٌّ، والقرآن الذي نزل[1] عليه عربيٌّ، وأول من باشر بدعوته العرب، فكانت رسالتُه لهم أصلاً ولغيرِهم تبعاً؛ كما قال تعالى: ﴿أكان للناس عَجَباً أنْ أوْحَيْنا إلى رجل منهم أنْ أنذِرِ الناس﴾، ﴿قلْ يا أيُّها الناسُ إنِّي رسولُ اللّه إليكم جميعاً﴾.

﴿٤٧﴾ ﴿ولولا أن تُصيبَهم مصيبةٌ بما قدَّمَتْ أيديهم﴾: من الكفر والمعاصي، لقالوا: ﴿ربَّنا لولا أرسَلْتَ إلينا رسولاً فنتَّبِعَ آياتِكَ ونكونَ من المؤمنينَ﴾؛ أي: فأرسلناك يا محمدُ، لدفع حُجَّتِهِم، وقطع مقالتهم.

﴿٤٨﴾ ﴿فلمَّا جاءهم الحقُّ﴾: الذي لا شكَّ فيه ﴿من عندِنا﴾: وهو القرآنُ الذي أوحيناه إليك، ﴿قالوا﴾: مكذِّبين له ومعترِضين بما ليس يُعْتَرَضُ به: ﴿لولا أوتي مِثْلَ ما أوتي موسى﴾؛ أي: أُنزِلَ عليه كتابٌ من السماء جملةً واحدةً؛ أي: فأما ما دام ينزل متفرقاً؛ فإنَّه ليس من عند اللّه، وأيُّ دليل في هٰذا؟! وأيُّ شبهة أنَّه ليس من عند اللّه حين نزل مفرَّقاً؟! بل من كمال هٰذا القرآن واعتناءِ اللّه بمن أُنزِلَ عليه أن نزل متفرِّقاً؛ ليثبِّتَ اللّه به فؤادَ رسولِهِ، ويحصُلَ زيادةُ الإيمان للمؤمنين، ﴿ولا يأتونَكَ بِمَثَلٍ إلَّا جئناكَ بالحقِّ وأحسنَ تفسيراً﴾. وأيضاً؛ فإنَّ قياسهم على كتاب موسى قياسٌ قد نقضوه؛ فكيف يقيسونَه على كتابٍ كفروا به ولم يؤمنوا [به]؟! ولهٰذا قال: ﴿أوَلَمْ يكفُروا بما أوتي موسى من قبلُ قالوا سِحْرانِ تَظاهَرا﴾؛ أي: القرآن والتوراة تعاونا في سحرِهما وإضلال الناس ﴿وقالوا إنَّا بكلٍّ كافرون﴾: فثبت بهٰذا أن القوم يريدون إبطال الحقِّ بما ليس ببرهانٍ، وينقُضونه بما لا يُنْقَضُ، ويقولون الأقوال المتناقضة المختلفة، وهٰذا شأن كلِّ كافرٍ، ولهٰذا صرَّح أنهم كفروا بالكتابين والرسولين.

﴿٤٩﴾ ولٰكنْ هل كفرُهُم بهما طلباً للحقِّ واتِّباعاً لأمرٍ عندهم خيرٌ منهما، أم

(١) في (ب): «أنزل».

مجرَّدُ هوىً؟! قال تعالى ملزماً لهم بذلك: ﴿قُلْ فأتوا بكتابٍ من عندِ اللّه هو أهدى منهما﴾؛ أي: من التوراة والقرآن؛ ﴿أتَّبِعْهُ إن كنتُم صادقينَ﴾: ولا سبيل لهم ولا لغيرِهِم أن يأتوا بمثلِهِما؛ فإنَّه ما طرق العالم منذ خَلَقَهُ اللّه مثل هٰذين الكتابين علماً وهدىً وبياناً ورحمةً للخلق، وهٰذا من كمال الإنصاف من الداعي أنْ قال: أنا مقصودي الحقُّ والهدى والرشدُ، وقد جئتُكم بهٰذا الكتاب المشتمل على ذٰلك الموافق لكتاب موسى؛ فيجبُ علينا جميعاً الإذعان لهما واتِّباعُهما من حيث كونُهما هدىً وحقًّا؛ فإنْ جئتُموني بكتاب من عند اللّه هو أهدى منهما؛ اتَّبَعْتُه، وإلاَّ؛ فلا أترك هدىً وحقًّا قد علمتُه لغير هدىً وحقٍّ.

﴿٥٠﴾ ﴿فإن لم يَسْتَجيبوا لك﴾: فلم يأتوا بكتابٍ أهدى منهما، ﴿فاعْلَمْ أنَّما يتَّبِعون أهواءهم﴾؛ أي: فاعلم أنَّ تركَهم اتِّباعك ليسوا ذاهبين إلى حقٍّ يعرِفونه ولا إلى هدىً، وإنَّما ذٰلك مجرَّد اتِّباع لأهوائِهِم. ﴿ومن أضلُّ ممَّنِ اتَّبع هواه بغيرِ هدىً من اللّه﴾: فهٰذا من أضلِّ الناس؛ حيث عرض عليه الهدى والصراط المستقيم الموصل إلى اللّه وإلى دار كرامتِهِ؛ فلم يلتفتْ إليه، ولم يُقْبِلْ عليه، ودعاه هواه إلى سلوك الطرق الموصلة إلى الهلاك والشقاء، فاتَّبعه وترك الهدى؛ فهل أحدٌ أضلُّ ممَّن هٰذا وصفه؟! ولٰكنَّ ظلمه وعدوانَه وعدمَ محبته للحقِّ هو الذي أوجب له أن يبقى على ضلالِهِ ولا يهديه اللّه؛ فلهٰذا قال: ﴿إنَّ اللّه لا يهدي القوم الظالمين﴾؛ أي: الذين صار الظلمُ لهم وصفاً والعنادُ لهم نعتاً، جاءهم الهدى فرفضوه، وعَرَضَ لهم الهوى فتبِعوه، سدُّوا على أنفسهم أبواب الهداية وطُرُقَها، وفتحوا عليهم أبواب الغِواية وسُبُلَها؛ فهم في غيِّهم وظلمهم يعمهون، وفي شقائِهِم وهلاكِهِم يتردَّدون، وفي قوله: ﴿فإن لم يَسْتَجيبوا لك فاعْلَمْ أنَّما يتَّبِعون أهواءهم﴾: دليلٌ على أنَّ كلَّ مَنْ لم يستجبْ للرسول، وذهبَ إلى قولٍ مخالفٍ لقول الرسول؛ فإنَّه لم يذهبْ إلى هدىً، وإنَّما ذهب إلى هوى.

﴿٥١﴾ ﴿ولقد وَصَّلْنا لهم القولَ﴾؛ أي: تابَعْناه وواصَلْناه وأنزَلْناه شيئاً فشيئاً رحمة بهم ولطفاً؛ ﴿لعلَّهم يتذكَّرونَ﴾: حين تتكرَّرُ عليهم آياتُهُ، وتنزِلُ عليهم بيناتُهُ وقت الحاجة إليها، فصار نزولُهُ متفرِّقاً رحمةً بهم، فلِمَ اعترضوا بما هو من مصالحهم؟!

فصل
في ذِكْرِ بعض الفوائد والعبر في هٰذه القصة العجيبة

فمنها: أنَّ آياتِ اللّه [تعالى] وعبرَه وأيامَه في الأمم السابقة إنَّما يستفيدُ بها ويستنيرُ المؤمنون؛ فعلى حسب إيمان العبد تكون عبرتُهُ، وأنَّ اللّه تعالى إنَّما يسوقُ القصص لأجلهم، وأمَّا غيرُهم؛ فلا يعبأ اللّه بهم، وليس لهم منها نورٌ وهدى.

ومنها: أنَّ اللّه تعالى إذا أراد أمراً؛ هيأ أسبابَه، وأتى بها شيئاً فشيئاً بالتدريج لا دفعة واحدة.

ومنها: أنَّ الأمَّة المستضعفة، ولو بلغت في الضعف ما بلغتْ، لا ينبغي لها أنْ يستولي عليها الكسلُ عن طلبِ حقِّها، ولا الإياسُ من ارتقائها إلى أعلى الأمور، خصوصاً إذا كانوا مظلومين؛ كما استنقذ اللّه أمة بني إسرائيل الأمَّة الضعيفة من أسر فرعون وملئه، ومكَّنهم في الأرض، وملَّكهم بلادهم.

ومنها: أنَّ الأمة ما دامت ذليلةً مقهورةً، لا تأخُذُ حقَّها، ولا تتكلَّم به لا يقوم لها أمرُ دينها ولا دُنياها، ولا يكون لها إمامةٌ فيه.

ومنها: لطف اللّه بأمِّ موسى وتهوينُهُ عليها المصيبةَ بالبشارة بأنَّ اللّه [تعالى] سيردُّ إليها ابنها، ويجعله من المرسلين.

ومنها: أنَّ اللّه يقدِّرُ على عبده بعضَ المشاقِّ لِيُنيلَه سروراً أعظم من ذٰلك، أو يدفعَ عنه شرًّا أكثر منه؛ كما قدَّر على أمِّ موسى ذٰلك الحزن الشديد والهمَّ البليغ الذي هو وسيلةٌ إلى أن يَصِلَ إليها ابنُها على وجهٍ تطمئنُّ به نفسها، وتَقَرُّ به عينُها، وتزداد به غبطةً وسروراً.

وَمنها: أنَّ الخوف الطبيعيَّ من الخَلْقِ لا يُنافي الإيمان ولا يزيلُه؛ كما جرى لأمِّ موسى، ولموسى من تلك المخاوف.

ومنها: أنَّ الإيمان يزيد وينقص، وأنَّ من أعظم ما يزيدُ به الإيمان، ويتمُّ به اليقينُ؛ الصبرُ عند المزعجات، والتثبيت من اللّه عند المقلقاتِ؛ كما قال تعالى: ﴿لولا أن رَبَطْنا على قلبِها لِتكونَ من المؤمنينَ﴾؛ أي: ليزداد إيمانُها بذٰلك، ويطمئنَّ قلبُها.

ومنها: أنَّ من أعظم نعم اللّه على عبدِهِ وأعظم معونةٍ للعبد على أمورِهِ تثبيتُ اللّه إيَّاه وربطُ جأشِهِ وقلبِهِ عند المخاوف وعند الأمور المذهلةِ؛ فإنَّه بذٰلك

يتمكَّن من القول الصواب والفعل الصواب؛ بخلاف من استمرَّ قلقُه وروعه وانزعاجُه؛ فإنَّه يضيع فكرُه، ويذهَلُ عقلُه؛ فلا ينتفعُ بنفسه في تلك الحال.

ومنها: أنَّ العبد ولو عَرَفَ أنَّ القضاء والقدر ووعدَ اللّه نافذٌ لا بدَّ منه؛ فإنَّه لا يهمل فعل الأسباب التي أُمِرَ بها، ولا يكون ذلك منافياً لإيمانِهِ بخبر اللّه؛ فإنَّ اللّه قد وعد أمَّ موسى أن يردَّه عليها، ومع ذلك اجتهدت في ردِّه، وأرسلتْ أختَه لتقُصَّه وتطلُبَه.

ومنها: جواز خروج المرأةِ في حوائِجِها وتكليمها للرجال من غير محذورٍ كما جرى لأخت موسى وابنتي صاحب مدينَ.

ومنها: جوازُ أخذ الأجرة على الكفالة والرضاع والدلالة على من يفعلُ ذلك.

ومنها: أنَّ اللّه من رحمته بعبده الضعيف الذي يريد إكرامه أن يُرِيَهُ من آياتِهِ ويُشْهِدَهُ من بيِّناتِهِ ما يزيدُ به إيمانه؛ كما ردَّ اللّه موسى على أمِّه؛ لتعلَمَ أنَّ وعد اللّه حقٌّ.

ومنها: أنَّ قتل الكافر الذي له عهدٌ بعقدٍ أو عرفٍ لا يجوزُ؛ فإنَّ موسى عليه السلام عَدَّ قتلَه القبطيَّ الكافر ذنباً، واستغفر اللّه منه.

ومنها: أنَّ الذي يقتُلُ النفوس بغير حقٍّ؛ يعدُّ من الجبارين الذين يفسِدون في الأرض.

ومنها: أنَّ من قتل النفوس بغير حقٍّ، وزعم أنَّه يريد الإصلاح في الأرض وتهييب أهل المعاصي؛ فإنَّه كاذبٌ في ذلك، وهو مفسدٌ؛ كما حكى اللّه قولَ القبطيِّ: ﴿إن تريدُ إلَّا أن تكونَ جبَّاراً في الأرض وما تريدُ أن تكونَ من المصلحين﴾: على وجه التقرير له لا الإنكار.

ومنها: أنَّ إخبارَ الرجلِ غيرَه بما قيل فيه على وجهِ التحذيرِ له من شرٍّ يقع فيه؛ لا يكونُ ذلك نميمةً، بل قد يكونُ واجباً؛ كما أخبر ذلك الرجلُ لموسى ناصحاً له ومحذراً.

ومنها: أنَّه إذا خاف القتل والتَّلَفَ في الإقامة؛ فإنَّه لا يلقي بيدِهِ إلى التَّهلكة، ولا يستسلم لذلك، بل يذهبُ عنه كما فعل موسى.

ومنها: أنَّه عند تزاحم المفسدتين؛ إذا كان لا بدَّ من ارتكاب إحداهما؛ فإنَّه يرتكبُ الأخفَّ منهما الأسلم؛ كما أنَّ موسى لما دار الأمرُ بين بقائِهِ في مصر ولكنَّه

يُقتل، أو[١] يذهب إلى بعض البلدان البعيدة التي لا يَعْرِفُ الطريق إليها، وليس معه دليلٌ يدلُّه[٢] غير ربِّه، ولٰكن هٰذه الحالة أرجى[٣] للسلامة من الأولى، فتبِعَها موسى.

ومنها: أنَّ الناظر في العلم عند الحاجة إلى التكلُّم فيه إذا لم يترجَّحْ عندَه أحدُ القولين؛ فإنَّه يستهدي ربَّه، ويسألُه أن يَهْدِيَه الصواب من القولين بعد أن يقصِدَ بقلبِهِ الحقَّ ويبحث عنه؛ فإنَّ اللّه لا يخيبُ من هٰذه حالُه؛ كما خرج موسى تلقاءَ مدينَ، فقال: ﴿عسى ربِّي أن يَهْدِيَني سواء السبيل﴾.

ومنها: أنَّ الرحمة بالخلق والإحسان على مَن يعرِفُ ومَن لا يَعْرِفُ من أخلاق الأنبياء، وأنَّ من الإحسان سَقي الماشية الماء وإعانة العاجز.

ومنها: استحباب الدعاء بتبيين الحال وشرحِها، ولو كان اللّه عالماً بها؛ لأنَّه تعالى يحبُّ تضرُّع عبده وإظهار ذُلِّه ومسكنتِهِ؛ كما قال موسى: ﴿ربِّ إنِّي لما أنزلتَ إليَّ من خيرٍ فقيرٌ﴾.

ومنها: أنَّ الحياء ـ خصوصاً من الكرام ـ من الأخلاق الممدوحة.

ومنها: المكافأة على الإحسان لم يزل دأبَ الأمم السابقين.

ومنها: أنَّ العبد إذا فعل العمل للّه تعالى، ثم حصل له مكافأةٌ عليه من غير قصدٍ بالقصد الأول؛ فإنَّه[٤] لا يُلام على ذٰلك؛ كما قبل موسى مجازاة صاحب مدين عن معروفه الذي لم يبتغِ له، ولم يستشرفْ بقلبِهِ على عوض.

ومنها: مشروعيَّة الإجارة، وأنَّها تجوز على رعاية الغنم ونحوها مما لا يُقَدَّرُ به العمل، وإنَّما مرده العرف.

ومنها: أنَّه تجوز الإجارة بالمنفعة، ولو كانت المنفعة بضعاً.

ومنها: أنَّ خطبة الرجل لابنته الرجل الذي يتخيَّره لا يلام عليه.

ومنها: أنَّ خير أجيرٍ وعامل يعمل للإنسان أن يكونَ قويًّا أميناً.

ومنها: أنَّ من مكارم الأخلاق أن يُحَسِّنَ خُلُقَه لأجيره وخادمِهِ، ولا يشقُّ عليه بالعمل؛ لقوله: ﴿وما أريدُ أنْ أشقَّ عليك ستَجِدُني إن شاء اللّه من الصالحين﴾.

---

(١) في (ب): «و».
(٢) في (ب): «دليل له».
(٣) في (ب): «أقرب».
(٤) في (ب): «أنه».

ومنها: جوازُ عقد الإجارة وغيرِها من العقود من دون إشهادٍ؛ لقوله: ﴿والله على ما نقولُ وكيلٌ﴾.

ومنها: ما أجرى الله على يدِ موسى من الآيات البيناتِ والمعجزاتِ الظاهرة من الحيَّة وانقلاب يده بيضاءَ من غير سوء ومن عصمةِ الله لموسى وهارون من فرعون ومن الغرق.

ومنها: أنَّ من أعظم العقوبات أن يكون الإنسانُ إماماً في الشرِّ، وذٰلك بحسب معارضتِهِ لآياتِ الله وبيناتِهِ؛ كما أنَّ من أعظم نعمةٍ أنعم الله بها على عبده، أن يجعله إماماً في الخير هادياً مهديًّا.

ومنها: ما فيها من الدلالة على رسالة محمدٍ ﷺ؛ حيث أخبر بذٰلك تفصيلاً مطابقاً وتأصيلاً موافقاً قصَّه قصًّا صدَّق به المرسلين وأيَّد به الحقَّ المبين، من غير حضور شيءٍ من تلك الوقائع، ولا مشاهدةٍ لموضع واحد من تلك المواضع، ولا تلاوةِ دَرَسَ فيها شيئاً من هٰذه الأمور، ولا مجالسةِ أحدٍ من أهل العلم، إنْ هو إلَّا رسالةُ الرحيم الرحمٰن، ووحيٌ أنزله عليه الكريمُ المنان؛ لينذِرَ به قوماً جاهلين، وعن النُّذُرِ والرسل غافلين؛ فصلوات الله وسلامُه على مَنْ مجرَّدُ خبرِهِ ينبىء أنه رسولُ الله، ومجرَّدُ أمرِهِ ونهيِهِ ينبِّه العقول النيِّرة أنَّه من عند الله؛ كيف وقد تطابَقَ على صحة ما جاء به وصدقِهِ، خبرُ الأوَّلين والآخرين، والشرعُ الذي جاء به من ربِّ العالمين، وما جُبِلَ عليه من الأخلاق الفاضلة التي لا تُناسب ولا تصلح إلا لأعلى الخلقِ درجةً، والنصر المبين لدينهِ وأمتِهِ، حتى بلغَ دينُه مبلغَ الليل والنهار، وفتحتْ أمتُه معظم بلدان الأمصار بالسيف والسنان وقلوبهم بالعلم والإيمان، ولم تزلِ الأممُ المعاندةُ والملوكُ الكفرةُ المتعاضِدَةُ ترميه بقوس واحدةٍ وتكيدُ له المكايدَ وتمكرُ لإطفائِهِ وإخفائِهِ وإخمادِهِ من الأرض، وهو قد بَهَرَها وعَلاها، لا يزداد إلَّا نموًّا، ولا آياته وبراهينه إلا ظهوراً، وكلُّ وقت من الأوقات يظهر من آياته ما هو عبرة للعالَمين، وهداية للعالِمين، ونوراً وبصيرة للمتوسِّمين. والحمد لله وحده.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ [مُسْلِمِينَ][1] ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ

---

(١) في النسختين: «مؤمنين».

بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا
وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

﴿٥٢﴾ يذكر تعالى عظمةَ القرآن وصدقَه وحقَّه، وأنَّ أهل العلم بالحقيقة يعرِفونه، ويؤمنونَ به، ويقرُّون بأنه الحقُّ، فقال: ﴿الذين آتيناهم الكتابَ من قبلِهِ﴾: وهم أهلُ التوراة والإنجيل، الذين لم يغيِّروا ولم يبدِّلوا، ﴿هم به﴾؛ أي: بهٰذا القرآن ومن جاء به ﴿يؤمنون﴾.

﴿٥٣﴾ ﴿وإذا يُتْلى عليهم﴾: استمعوا له وأذْعنوا، و﴿قالوا آمنَّا به إنَّه الحقُّ من ربِّنا﴾: لموافقتِهِ ما جاءت به الرسل، ومطابقتِهِ لما ذُكِرَ في الكتب، واشتمالِهِ على الأخبار الصادقة والأوامر والنواهي الموافقة لغاية الحكمة، وهٰؤلاء الذين تفيدُ شهادتُهم وينفعُ قولُهم؛ لأنَّهم لا يقولون ما يقولون إلَّا عن علم وبصيرةٍ؛ لأنَّهم أهلُ الخبرة وأهلُ الكتب، وغيرهم لا يدلُّ ردُّهم ومعارضتُهم للحقِّ على شبهةٍ فضلاً عن الحجَّة؛ لأنَّهم ما بين جاهل فيه أو متجاهل معاندٍ للحقِّ؛ قال تعالى: ﴿قلْ آمِنوا به أو لا تُؤْمِنوا إنَّ الذين أوتوا العلم من قبلِهِ إذا يُتْلى عليهم يَخِرُّون للأذقان سُجَّداً...﴾ الآيات، وقوله: ﴿إنَّا كُنَّا من قبلِهِ [مسلمين][1]﴾: فلذلك ثبتنا على ما منَّ الله به علينا من الإيمان، فصدقنا بهٰذا القرآن، آمنَّا بالكتاب الأوَّل والكتاب الآخر، وغيرُنا ينقضُ تكذيبُه بهٰذا الكتاب إيمانَه بالكتاب الأول.

﴿٥٤﴾ ﴿أولئك﴾: الذين آمنوا بالكتابين ﴿يؤتَوْن أجْرَهُم مرتينِ﴾: أجراً على الإيمان الأوَّل، وأجراً على الإيمان الثاني؛ ﴿بما صَبَروا﴾: على الإيمان، وثبتوا على العمل، فلم تُزَعْزِعْهم[2] عن ذٰلك شبهةٌ، ولا ثناهم عن الإيمان رياسةٌ ولا شهوة. ﴿و﴾ من خصالهم الفاضلة التي هي من آثار إيمانِهِم الصحيح أنَّهم ﴿يدرؤونَ بالحسنةِ السيئةَ﴾؛ أي: دأبهم وطريقتُهم الإحسان لكلِّ أحدٍ، حتى للمسيء إليهم بالقول والفعل؛ يقابِلونَه بالقول الحميد والفعل الجميل؛ لعلمِهِم بفضيلة هٰذا الخلق العظيم، وأنَّه لا يوفَّق له إلَّا ذو حظ عظيم.

﴿٥٥﴾ ﴿وإذا سمعوا اللغو﴾: من جاهل خاطبهم به، ﴿قالوا﴾: مقالة عباد الرحمٰن أولي الألباب: ﴿لنا أعمالُنا ولكم أعمالُكم﴾؛ أي: كلٌّ سيجازى بعمله الذي عَمِلَه وحده، ليس عليه من وزرِ غيره شيءٌ، ولزم من ذٰلك أنهم يتبرؤون مما

---

(١) في النسختين: «مؤمنين».
(٢) في (ب): «يزعزعهم».

عليه الجاهلون من اللغو والباطل والكلام الذي لا فائدة فيه. ﴿سلامٌ عليكم﴾؛ أي: لا تسمعون منَّا إلَّا الخير، ولا نخاطبكم بمقتضى جهلكم؛ فإنَّكم وإن رضيتُم لأنفسِكم هٰذا المرتعَ اللئيم؛ فإنَّا ننزِّهُ أنفسَنا عنه ونصونُها عن الخوض فيه. ﴿لا نبتغي الجاهلين﴾: من كلِّ وجهٍ.

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿٥٦﴾ يخبر تعالى أنَّك يا محمدُ ـ وغيرُك من باب أولى ـ لا تقدِرُ على هداية أحدٍ، ولو كان من أحبِّ الناس إليك؛ فإنَّ هٰذا أمرٌ غيرُ مقدور للخلق؛ هداية التوفيق وخلق الإيمان في القلب، وإنَّما ذٰلك بيد اللّه تعالى؛ يهدي مَنْ يشاء وهو أعلم بِمَنْ يَصْلُحُ للهداية فيهديه ممَّن لا يَصْلُحُ لها فيبقيه على ضلاله. وأمَّا إثباتُ الهداية للرسول في قوله تعالى: ﴿وإنَّك لَتهدي إلى صراطٍ مستقيم﴾: فتلك هدايةُ البيان والإرشاد؛ فالرسولُ يبيِّن الصراط المستقيم، ويرغِّب فيه، ويبذلُ جهدَه في سلوك الخلقِ له، وأما كونُهُ يخلُقُ في قلوبهم الإيمان، ويوفِّقُهم بالفعل؛ فحاشا وكلَّا، ولهٰذا لو كان قادراً عليها؛ لهدى من وصل إليه إحسانُه ونصرُه ومَنْعُهُ من قومه؛ عمَّه أبا طالب، ولٰكنَّه أوصل إليه من الإحسان بالدعوة له للدين والنصح التامِّ ما هو أعظم مما فعله معه عمُّه، ولٰكنَّ الهداية بيد اللّه.

﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿٥٧﴾ يخبر تعالى أنَّ المكذِّبين من قريش وأهل مكة يقولون للرسول ﷺ: ﴿إن نَتَّبِع الهُدى معكَ نُتَخَطَّفْ من أرضِنا﴾: بالقتل والأسر ونهب الأموال؛ فإنَّ الناس قد عادَوْك وخالَفوك؛ فلو تابعناك؛ لتعرَّضْنا لمعاداة الناس كلِّهم، ولم يكن لنا بهم طاقةٌ. وهٰذا الكلام منهم يدلُّ على سوءِ الظنِّ باللّه تعالى، وأنَّه لا ينصرُ دينَه ولا يُعلي كلمتَه، بل يمكِّنُ الناسَ من أهل دينه، فيسومونهم سوء العذاب، وظنُّوا أنَّ الباطلَ سيعلو على الحقِّ. قال اللّه مبيناً لهم حالةً هم بها دون الناس وأنَّ اللّه اختصَّهم بها، فقال: ﴿أولم نمكِّن لهم حرماً آمناً يُجْبى إليه ثمراتُ كلِّ شيءٍ رزقاً من لَدُنَّا﴾؛ أي:

أولم نجعلْهم متمكِّنين مُمَكَّنين في حرم يكثره المتنابون ويقصدُه الزائرون، قد احترمه القريبُ والبعيد؛ فلا يُهاج أهلُه، ولا يُنْتَقَصون بقليل ولا كثير، والحالُ أنَّ كلَّ ما حولهم من الأماكن قد حَفَّ بها الخوف من كلِّ جانب، وأهلُها غيرُ آمنين ولا مطمئنِّين؛ فَلْيَحْمَدوا ربَّهم على هٰذا الأمن التامِّ الذي ليس فيه غيرُهم، وعلى الرزق الكثير الذي يُجْبى إليهم من كلِّ مكان من الثمرات والأطعمة والبضائع ما به يرتزقون ويتوسَّعون، ولْيَتَّبِعوا هٰذا الرسولَ الكريم؛ لِيَتِمَّ لهم الأمنُ والرغدُ، وإياهم وتكذيبَه والبطرَ بنعمة الله؛ فيبدَّلوا من بعدِ أمْنِهم خوفاً، وبعد عزِّهم ذُلاً، وبعد غِناهم فقراً.

﴿٥٨﴾ ولهٰذا توعَّدهم بما فعل بالأمم قبلَهم، فقال: ﴿وكم أهْلَكْنا من قريةٍ بَطِرَتْ معيشَتَها﴾؛ أي: فخرتْ بها وألهتها واشتغلتْ بها عن الإيمان بالرسل، فأهلكهم الله، وأزال عنهم النعمةَ، وأحلَّ بهم النقمة، ﴿فتلك مساكِنُهم لم تُسْكَن من بعدِهِم إلَّا قليلاً﴾؛ لتوالي الهلاك والتَّلف عليهم وإيحاشها من بعدهم، ﴿وكُنَّا نحن الوارثينَ﴾: للعباد؛ نميتُهم ثم يرجِعُ[1] إلينا جميعُ ما متَّعْناهم به من النعم، ثم نعيدُهم إلينا، فنجازيهم بأعمالهم.

﴿٥٩﴾ ومن حكمتِهِ ورحمتِهِ أنْ لا يعذِّب الأممَ بمجرَّدِ كفرِهم قبل إقامةِ الحجَّة عليهم بإرسال الرسل إليهم، ولهٰذا قال: ﴿وما كان ربُّك مُهْلِكَ القرى﴾؛ أي: بكفرِهم وظلمِهم؛ ﴿حتى يَبْعَثَ في أمِّها﴾؛ أي: في القرية والمدينة التي إليها يَرْجِعون، ونحوها يتردَّدون، وكلُّ ما حولها ينتَجِعها، ولا تَخْفى عليه أخبارها، ﴿رسولاً يتلو عليهم آياتِنا﴾: الدالَّة على صحَّة ما جاء به وصِدْقِ ما دعاهم إليه، فيبلغُ قولُه قاصِيَهم ودانِيَهم؛ بخلاف بعث الرسل في القرى البعيدة والأطراف النائية؛ فإنَّ ذٰلك مظنَّة الخفاء والجفاء، والمدن الأمَّهات مظنَّة الظُّهور والانتشار، وفي الغالب أنَّهم أقلُّ جفاء من غيرهم، ﴿وما كُنَّا مُهْلِكي القُرى إلَّا وأهلُها ظالمونَ﴾: بالكفر والمعاصي، مستحقُّون للعقوبة. والحاصلُ أنَّ الله لا يعذِّب أحداً إلا بظُلْمه وإقامةِ الحجَّةِ عليه.

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَـٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَـٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَـٰهُ مَتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾.

---

(١) في (ب): «ترجع».

﴿٦٠﴾ هٰذا حضٌّ منه تعالى لعبادِهِ على الزُّهد في الدُّنيا وعدم الاغترار بها، وعلى الرغبة في الأخرى وجعلها مقصودَ العبدِ ومطلوبَه، ويخبِرُهم أنَّ جميع ما أوتيه الخلقُ من الذهب والفضة والحيوانات والأمتعة والنساء والبنين والمآكل والمشارب واللذَّات كلِّها متاعُ الحياةِ الدنيا وزينتُها؛ أي: يُتَمَتَّع به وقتاً قصيراً متاعاً قاصراً محشوًّا بالمنغِّصات ممزوجاً بالغُصص، ويتزيَّن به زماناً يسيراً للفخر والرياء، ثم يزولُ ذٰلك سريعاً، وينقضي جميعاً، ولم يستفدْ صاحبُه منه إلَّا الحسرةَ والندمَ والخيبةَ والحرمانَ، ﴿وما عندَ اللهِ﴾: من النعيم المقيم والعيش السليم ﴿خيرٌ وأبقى﴾؛ أي: أفضلُ في وصفِهِ وكميَّته، وهو دائمٌ أبداً ومستمرٌّ سرمداً، ﴿أفلا تعقلونَ﴾؛ أي: أفلا تكون لكم عقولٌ بها تَزِنون؛ أيُّ الأمرين أولى بالإيثار؟! وأيُّ الدارين أحقُّ للعمل لها؟! فدل ذٰلك أنه بحسب عقل العبد يُؤْثِرُ الأخرى على الدُّنيا، وأنَّه ما آثَرَ أحدٌ الدُّنيا إلَّا لنقص في عقله.

﴿٦١﴾ ولهٰذا نبَّه العقول على الموازنة بين عاقبة مؤثِرِ الدُّنيا ومؤثِرِ الآخرة، فقال: ﴿أفَمَن وَعَدْناه وعداً حسناً فهو لاقيهِ﴾؛ أي: هل يستوي مؤمنٌ، ساعٍ للآخرة سَعْيَها، قد عَمِلَ على وعدِ ربِّه له بالثواب الحسن الذي هو الجنَّة وما فيها من النعيم العظيم؛ فهو لاقيه من غير شكٍّ ولا ارتياب؛ لأنَّه وعدٌ من كريم صادقِ الوعدِ لا يُخْلِفُ الميعاد لعبدٍ قام بمرضاتِهِ وجانَبَ سَخَطَه؛ ﴿كمن متَّعْناه متاعَ الحياة الدُّنيا﴾ فهو يأخُذُ فيها ويعطي، ويأكل ويشرب، ويتمتَّع كما تتمتَّع البهائم، قد اشتغل بدُنياه عن آخرته، ولم يرفعْ بهدى الله رأساً، ولم ينقدْ للمرسلين؛ فهو لا يزال كذٰلك؛ لا يتزوَّد من دُنياه إلَّا الخسار والهلاك. ﴿ثم هو يوم القيامةِ من المُحْضَرين﴾: للحساب، وقد عُلِمَ أنَّه لم يقدِّمْ خيراً لنفسه، وإنَّما قدَّم جميع ما يضرُّه، وانتقل إلى دار [الجزاء بالأعمال]؛ فما ظنُّكم إلام يصير إليه؟! وما تحسبَون ما يصنعُ به؟! فليخترِ العاقلُ لنفسه ما هو أولى بالاختيار وأحقُّ الأمرين بالإيثار.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿٦٢ ـ ٦٣﴾ هٰذا إخبارٌ من الله تعالى عما يسأل عنه الخلائق يوم القيامة، وأنَّه

يسألهم عن أصول الأشياء؛ عن عبادة الله، وإجابة رسله، فقال: ﴿ويوم يناديهم﴾؛ أي: ينادي مَنْ أشركوا به شركاء يعبُدونَهم ويرجون نفعَهم ودفعَ الضرر عنهم، فيناديهم ليبيِّنَ لهم عجزها وضلالهم، ﴿فيقولُ أين شركائِيَ﴾: وليس لله شريكٌ، ولٰكن ذٰلك بحسب زعمِهم وافترائِهم، ولهٰذا قال: ﴿الذين كنتم تزعُمونَ﴾: فأين هم بذواتِهم؟! وأين نفعُهم؟! وأين دفعُهم؟! ومن المعلوم أنَّهم يتبيَّن لهم في تلك الحال أنَّ الذي عبدوه ورجَوْه باطلٌ مضمحلٌّ في ذاته وما رجوا منه، فيقرُّون على أنفسهم بالضَّلالة والغواية، ولهٰذا ﴿قال الذين حقَّ عليهم القولُ﴾: من الرؤساء والقادة في الكفر والشرِّ؛ مقرِّين بغوايتهم وإغوائهم: ﴿ربَّنا هٰؤلاء﴾: التابعون ﴿الذين أغوَيْنا أغوَيْناهم كما غوَيْنا﴾؛ أي: كلنا قد اشترك في الغِواية وحقَّ عليه كلمةُ العذاب، ﴿تبرَّأنا إليكَ﴾: من عبادتهم؛ أي: نحن برآءُ منهم ومن عملهم. ﴿ما كانوا إيَّانا يَعْبُدونَ﴾: وإنَّما كانوا يعبُدون الشياطين.

﴿٦٤﴾ ﴿وقيل﴾ لهم: ﴿ادْعُوا شركاءَكم﴾: على ما أمَّلتُم فيهم من النفع، فأُمِروا بدعائهم في ذٰلك الوقت الحرج الذي يضطرُّ فيه العابدُ إلى مَنْ عَبَدَه، ﴿فدَعَوْهم﴾: لينفعوهم أو يدفعوا عنهم من عذاب الله من شيء، ﴿فلم يستجيبوا لهم﴾: فعلم الذين كفروا أنَّهم كانوا كاذبين مستحقِّين للعقوبة، ﴿ورَأوا العذابَ﴾: الذي سيحلُّ بهم عياناً بأبصارهم بعدما كانوا مكذِّبين به منكِرين له؛ ﴿لو أنَّهم كانوا يهتدونَ﴾؛ أي: لـمَا حصلَ عليهم ما حصل، ولهُدوا إلى صراط الجنَّة كما اهْتَدَوا في الدنيا، ولٰكنْ لم يَهْتَدُوا، فلم يُهْتَدَوا.

﴿٦٥ ـ ٦٦﴾ ﴿ويوم يناديهم فيقولُ ماذا أجبتُم المرسلينَ﴾: هل صدَّقتموهم واتَّبعتموهم؟ أم كذَّبتموهم وخالفتموهم؟ ﴿فعَمِيَتْ عليهم الأنباءُ يومئذٍ فهم لا يتساءلون﴾؛ أي: لم يحيروا عن هٰذا السؤال جواباً، ولم يهتدوا إلى الصواب، ومن المعلوم أنَّه لا يُنَجِّي في هٰذا الموضع إلَّا التصريحُ بالجواب الصحيح المطابق لأحوالهم من أنَّنا أجَبْناهم بالإيمان والانقياد، ولٰكن لما علموا تكذيبَهم لهم وعنادَهم لأمرِهم؛ لم ينطِقوا بشيء، ولا يمكنُ أنْ يتساءلوا، ويتراجَعوا بينَهم في ماذا يجيبون به، ولو كان كذباً.

﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿٦٧﴾ لما ذَكَرَ تعالى سؤال الخلق عن معبودِهِم وعن رسلِهِم؛ ذكر الطريقَ الذي ينجو به العبدُ من عقاب الله تعالى، وأنَّه لا نجاة إلَّا لمن اتَّصف بالتوبة من

الشرك والمعاصي، وآمنَ باللّه فعبَدَه، وآمنَ برسلِهِ فصدَّقهم، وعمل صالحاً متَّبعاً فيه للرسل. ﴿فعسى أن يكونَ﴾: من جَمَعَ هٰذه الخصال ﴿من المفلحين﴾: الناجحين بالمطلوب، الناجين من المرهوب؛ فلا سبيل إلى الفلاح بدون هٰذه الأمور.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿٦٨ ـ ٧٠﴾ هٰذه الآياتُ فيها عمومُ خلقِهِ لسائر المخلوقات، ونفوذُ مشيئَتِهِ بجميع البريَّات، وانفرادُهُ باختيار من يختارُهُ ويختصُّه من الأشخاص والأوامر والأزمان والأماكن، وأنَّ أحداً ليس له[1] من الأمر والاختيار شيءٌ، وأنَّه تعالى منزَّه عن كلِّ ما يشركون به من الشريك والظهير والعَوين والولد والصاحبة ونحو ذٰلك مما أشرك به المشركون، وأنَّه العالمُ بما أكنَّتْهُ الصدور وما أعلنوه، وأنَّه وحدَه المعبودُ المحمودُ في الدنيا والآخرة على ما له من صفاتِ الجلال والجمال، وعلى ما أسداه إلى خلقِهِ من الإحسان والإفضال، وأنَّه هو الحاكم في الدارين؛ في الدُّنيا بالحكم القدريِّ الذي أثرُهُ جميعُ ما خَلَقَ وذَرأ، والحكم الدينيِّ الذي أثرُهُ جميعُ الشرائع والأوامر والنواهي. وفي الآخرة يحكم بحكمِهِ القدريِّ والجزائيِّ، ولهٰذا قال: ﴿وإليه تُرجَعونَ﴾: فيجازي كلًّا منكم بعملِهِ من خيرٍ وشرٍّ.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿٧١ ـ ٧٣﴾ هٰذا امتنانٌ من اللّه على عبادِهِ؛ يدعوهم به إلى شكرِهِ والقيام بعبوديتِهِ وحقِّه أنْ[2] جَعَلَ لهم من رحمته النهارَ ليبتغوا من فضل اللّه وينتشروا لطلبِ أرزاقهم ومعايِشِهم في ضيائه، والليلَ ليهدؤوا فيه ويسكُنوا وتستريحَ أبدانُهم وأنفسُهم من تعب التصرُّف في النهار؛ فهٰذا من فضلِهِ ورحمتِهِ بعبادِهِ؛ فهل أحدٌ

(١) في (ب): «لهم».
(٢) في (ب): «أنه».

يقدرُ على شيءٍ من ذٰلك فلو جَعَلَ ﴿عليكُمُ الليلَ سرمداً إلى يوم القيامةِ من إلٰهٌ غيرُ اللَّه يأتيكم بضياءٍ أفلا تسمعونَ﴾: مواعظَ اللَّه وآياتِهِ سماعَ فهم وقَبول وانقيادٍ، ولو ﴿جعل عليكم النَّهار سرمداً إلى يوم القيامة من إلٰهٌ غيرُ اللَّه يأتيكم بليل تسكُنون فيه أفلا تُبْصِرونَ﴾: مواقع العِبَرِ ومواضع الآياتِ فتستنير بصائرُكم وتسلكون الطريق المستقيم، وقال في الليل: ﴿أفلا تسمعونَ﴾، وفي النهار: ﴿أفلا تبصرون﴾؛ لأن سلطانَ السمع في الليل أبلغُ من سلطانِ البصرِ، وعكسُه النهار.

وفي هٰذه الآيات تنبيهٌ إلى أنَّ العبد ينبغي له أن يتدبَّر نعم اللَّه عليه، ويستبصرَ[(١)] فيها، ويقيسَها بحال عدمِها؛ فإنَّه إذا وازنَ بين حالة وجودِها وبين حالةِ عدمِها؛ تنبَّه عقلُه لموضع المنَّةِ؛ بخلاف مَنْ جرى مع العوائدِ، ورأى أنَّ هٰذا أمرٌ لم يزلْ مستمرًّا ولا يزالُ، وعمي قلبُه عن الثناء على اللَّه بنعمِهِ ورؤيةِ افتقارِهِ إليها في كلِّ وقت؛ فإنَّ هٰذا لا يحدثُ له فكرة شكرٍ ولا ذكرٍ.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿٧٤ ـ ٧٥﴾ أي: ويوم ينادي اللَّهُ المشركين به العادلينَ به غيرَه، الذين يزعمونَ أنَّ له شركاءَ يستحقُّون أن يُعبدوا وينفعون ويضرُّون؛ فإذا كان يوم القيامةِ؛ أراد اللَّه أن يُظْهِرَ جراءتهم وكذبهم في زعمهم وتكذيبهم[(٢)] لأنفسهم؛ يناديهم ﴿أينَ شركائيَ الذين كنتُم تزعُمون﴾؛ أي: بزعمهم لا بنفسِ الأمر؛ كما قال: ﴿وما يَتَّبِعُ الذين يَدْعونَ من دون اللَّهِ شركاءَ إن يَتَّبِعون إلَّا الظَّنَّ [وإنْ هم إلَّا يخرصون]﴾، فإذا حضروا هم وإيَّاهم؛ نزع ﴿من كلِّ أمَّةٍ﴾: من الأمم المكذِّبة ﴿شهيداً﴾: يشهدُ على ما جرى في الدُّنيا من شركهم واعتقادِهم، وهٰؤلاء بمنزلةِ المنتَخَبين؛ أي: انتخبنا من رؤساء المكذِّبين مَنْ يتصدَّى للخصومة عنهم والمجادلة عن إخوانهم، وهم على طريقٍ واحدٍ؛ فإذا برزوا للمحاكمة، ﴿فقُلْنا هاتوا برهانَكم﴾: حجَّتَكم ودليلَكم على صحَّةِ شرككم؛ هل أمَرْناكم بذٰلك؟ هل أمرتْكم رُسُلي؟ هل وجدتُم ذٰلك في شيءٍ من كُتُبي؟ هل فيهم أحدٌ يستحقُّ شيئاً من الإلٰهيَّة؟ هل ينفعونكم أو يدفعونَ عنكم من عذاب اللَّه أو يُغنون عنكم؟ فليفعلوا إذاً إن كان فيهم أهليَّةٌ ولْيُروكم إنْ كان لهم قدرةٌ، ﴿فعلموا﴾: حينئذٍ بطلانَ قولِهم وفساده، و﴿أنَّ الحقَّ للَّه﴾: تعالى، قد

---

(١) في (ب): «ويتبصر». (٢) في (ب): «وتكذيب».

توجَّهت عليهم الخصومةُ وانقطعتْ حجَّتهم وأفلجت حجةُ اللّه، ﴿وضلَّ عنهم ما كانوا يفترون﴾: من الكذبِ والإفك؛ اضمحلَّ وتلاشى وعدم، وعلموا أنَّ اللّه قد عدل فيهم؛ حيث لم يضعِ العقوبةَ إلَّا بمن استحقَّها واستأهلها.

﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ[1] وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ
لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ
ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ
إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ
عِندِىٓ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا
وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ
ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ
وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ
وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾
وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ
وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿٧٦﴾ يخبر تعالى عن حالة قارون وما فَعَلَ وفُعِلَ به ونُصِحَ ووُعِظَ، فقال: ﴿إنَّ قارون كان من قوم موسى﴾؛ أي: من بني إسرائيل، الذين فَضلوا العالمين وفاقوهم في زمانهم، وامتَنَّ اللّه عليهم بما امتنَّ به، فكانت حالُهم مناسبةً للاستقامة، ولٰكنَّ قارون هٰذا بغى على قومه، وطغى بما أوتِيَه من الأموال العظيمة المُطْغِيَة، ﴿وآتيناه من الكنوزِ﴾؛ أي: كنوز الأموال شيئاً كثيراً، ﴿ما إنَّ مفاتِحَهُ لَتنوءُ بالعصبةِ أولي القوَّة﴾: والعُصبة من العشرة إلى التسعة إلى السبعة ونحو ذٰلك؛ أي: حتى إنَّ مفاتح خزائنِ أموالِهِ تُثْقِلُ الجماعةَ القوية عن حملها؛ هٰذه المفاتيح؛ فما ظنُّك بالخزائن؟! ﴿إذ قال له قومُهُ﴾: ناصحين له محذِّرين له عن الطُّغيان: ﴿لا تَفْرَحْ إن اللّه لا يحبُّ الفرِحينَ﴾؛ أي: لا تفرحْ بهٰذه الدُّنيا العظيمة، وتفتخرْ بها، وتلهيك عن الآخرة؛ فإنَّ اللّه لا يحبُّ الفرحين بها المكبِّين على محبَّتها.

---

(١) في النسختين: إلى آخر القصة.

﴿٧٧﴾ ﴿وابْتَغِ فيما آتاكَ اللّه الدارَ الآخرةَ﴾؛ أي: قد حصل عندك من وسائل الآخرة ما ليس عند غيرِك من الأموال، فابتغِ بها ما عندَ اللّه، وتصدَّقْ، ولا تقتصِرْ على مجرَّدِ نيل الشهوات وتحصيل اللذَّات، ﴿ولا تنسَ نصيبَكَ من الدُّنيا﴾؛ أي: لا نأمُرُك أن تتصدَّق بجميع مالِكَ وتبقى ضائعاً، بل أنفِقْ لآخِرَتِكَ واستمتِعْ بدُنياك استمتاعاً لا يَثْلُمُ دينَك ولا يضرُّ بآخرتك، ﴿وأحسِنْ﴾: إلى عباد اللّه ﴿كما أحسنَ اللّهُ﴾: عليك بهٰذه الأموال، ﴿ولا تَبْغِ الفسادَ في الأرض﴾: بالتكبُّر والعمل بمعاصي اللّه والاشتغال بالنِّعَم عن المنعِم. ﴿إنَّ اللّه لا يحبُّ المفسدينَ﴾: بل يعاقِبُهم على ذٰلك أشدَّ العقوبة.

﴿٧٨﴾ فَـ﴿قالَ﴾ قارونُ رادًا لنصيحتِهِم كافراً لنعمةِ ربِّه: ﴿إنَّما أوتيتُهُ على علم عندي﴾؛ أي: إنَّما أدركتُ هٰذه الأموالَ بكسبي ومعرفتي بوجوه المكاسب وحِذْقي. أو: على علم من اللّهِ بحالي؛ يعلمُ أنِّي أهلٌ لذٰلك؛ فلم تنصحوني على ما أعطاني اللّه؟! قال تعالى مبيِّناً أنَّ عطاءَه ليس دليلاً على حسنِ حالةِ المُعْطَى: ﴿أوَلَمْ يعلَمْ أنَّ اللّه قد أهلَكَ من قبلِهِ من القرونِ مَنْ هو أشدُّ منه قوَّةً وأكثرُ جمعاً﴾: فما المانعُ من إهلاك قارون مع مضيِّ عادتِنا وسنَّتِنا بإهلاك مَن هُو مثلُه وأعظمُ منه إذا فَعَلَ ما يوجِب الهلاك؟! ﴿ولا يُسْألُ عن ذنوبِهِمُ المجرمونَ﴾: بل يعاقِبُهم اللّه ويعذِّبهم على ما يعلمُه منهم؛ فهم وإن أثْبتوا لأنفسِهِم حالةً حسنةً وشهِدوا لها بالنَّجاة؛ فليس قولُهم مقبولاً، وليس ذٰلك رادًا عنهم من العذاب شيئاً؛ لأنَّ ذنوبَهم غيرُ خفيةٍ؛ فإنكارُهم لها لا محلَّ له.

﴿٧٩﴾ فلم يزل قارونُ مستمرًا على عنادِهِ وبغيِهِ وعدم قَبول نصيحةِ قومِهِ، فرحاً بطراً، قد أعجبتْه نفسُه وغرَّه ما أوتيه من الأموال، ﴿فخرج﴾ ذات يوم ﴿في زينتِهِ﴾؛ أي: بحالةٍ أرفع ما يكونُ من أحوال دُنياه، قد كان له من الأموال ما كان، وقد استعدَّ وتجمَّل بأعظم ما يمكنه، وتلك الزينةُ في العادة من مثله تكونُ هائلةً، جمعت زينة الدُّنيا وزهرتها وبهجتها وغضارتها وفخرها، فرمقتْه في تلك الحالة العيونُ، وملأت بَزَّتُه القلوب، واختلبت زينته النفوس، فانقسم فيه الناظرون قسمين، كلٌّ تكلَّم بحسب ما عنده من الهمَّة والرغبة، فَـ﴿قالَ الذين يريدونَ الحياة الدنيا﴾؛ أي: الذين تعلَّقَتْ إرادتُهم فيها، وصارت منتهى رغبتِهِم، ليس لهم إرادةٌ في سواها: ﴿يا ليتَ لنا مثلَ ما أوتي قارونُ﴾: من الدُّنيا ومتاعها وزهرتها، ﴿إنَّه لذو حظٍّ عظيم﴾: وصدقوا إنَّه لذو حظٍّ عظيم لو كان الأمر منتهياً إلى رغباتهم وإنَّه

ليس وراء الدُّنيا دار أخرى؛ فإنَّه قد أُعْطِيَ منها ما به غايةُ التنعم[1] بنعيم الدنيا، واقتدر بذٰلك على جميع مطالبه، فصار هٰذا الحظُّ العظيم بحسب هِمَّتِهم، وإنَّ هِمَّةً جعلت هٰذا غاية مرادها ومنتهى مطلبها؛ لمن أدنى الهمم وأسفلها وأدناها، وليس لها أدنى صعود إلى المرادات العالية والمطالب الغالية.

﴿٨٠﴾ ﴿وقال الذين أوتوا العلم﴾: الذين عرفوا حقائقَ الأشياء ونظروا إلى باطن الدنيا حين نظر أولٰئك إلى ظاهرها: ﴿ويلَكُم﴾: متوجِّعين من ما تمنَّوا لأنفسهم، راثين لحالهم، منكرين لمقالهم، ﴿ثوابُ اللّه﴾: العاجلُ من لذَّة العبادة ومحبَّته والإنابة إليه والإقبال عليه، والآجلُ من الجنَّة وما فيها ممَّا تشتهيه الأنفس وتلذُّ الأعينُ خير من هٰذا الذي تمنَّيْتُم ورغبتُم فيه؛ فهٰذه حقيقة الأمر، ولٰكنْ ما كلُّ مَنْ يعلم ذٰلك يؤثر الأعلى على الأدنى، فما يُلَقَّى ذٰلك ويوفَّقُ له ﴿إلَّا الصابِرونَ﴾: الذين حبسوا أنفسَهم على طاعة اللّه وعن معصيتِهِ وعلى أقدارِهِ المؤلمةِ وصبروا على جواذب الدُّنيا وشهواتِها أن تَشْغَلَهم عن ربِّهم وأن تحولَ بينهم وبينَ ما خُلِقوا له؛ فهٰؤلاء الذين يؤثرون ثوابَ اللّه على الدُّنيا الفانية.

﴿٨١﴾ فلما انتهت بقارونَ حالةُ البغي والفخرِ، وازَّيَّنت الدُّنيا عنده، وكَثُر بها إعجابُه؛ بَغَتَهُ العذاب، ﴿فَخَسَفْنا به وبدارِهِ الأرضَ﴾: جزاء من جنس عملِهِ؛ فكما رفع نفسه على عباد اللّه؛ أنزله اللّه أسفلَ سافلين هو وما اغترَّ به من داره وأثاثِهِ ومتاعِهِ. ﴿فما كان له من فئةٍ﴾؛ أي: جماعةٍ وعصبةٍ وخدم وجنودٍ، ﴿ينصرونَه من دونِ اللّه وما كان من المنتصرين﴾؛ أي: جاءه العذاب فما نُصِرَ ولا انْتَصَرَ.

﴿٨٢﴾ ﴿وأصبح الذين تَمَنَّوا مكانه بالأمس﴾؛ أي: الذين يريدونَ الحياة الدنيا، الذين قالوا: يا ليت لنا مثل ما أوتي قارونُ ﴿يقولون﴾: متوجِّعين ومعتَبِرين وخائفينَ من وقوع العذاب بهم: ﴿ويكأنَّ اللّهَ يَبْسُطُ الرزقَ لِمَن يشاءُ من عبادِهِ ويقدِرُ﴾؛ أي: يضيِّقُ الرزق على من يشاء. فعلمنا حينئذٍ أنَّ بسطَه لقارون ليس دليلاً على خير فيه، وأنَّنا غالطون في قولنا: إنَّه لذو حظٍّ عظيم، و﴿لولا أن مَنَّ اللّه علينا﴾: فلم يعاقِبْنا على ما قُلْنا؛ فلولا فضلُه ومنَّتُه؛ ﴿لخسف بنا﴾: فصار هلاكُ قارون عقوبةً له وعبرةً وموعظةً لغيرِهِ، حتى إنَّ الذين غبطوه سمعتَ كيف ندِموا، وتغيَّر فِكْرُهم الأول، ﴿ويكأنَّه لا يفلَحُ الكافرون﴾؛ أي: لا في الدنيا، ولا في الآخرة.

---

(١) في (ب): «التنعيم».

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿٨٣﴾ لما ذَكَرَ تعالى قارونَ وما أوتيه من الدُّنيا وما صارتْ إليه عاقبةُ أمره، وأنَّ أهل العلم قالوا: ثوابُ اللّه خيرٌ لمن آمنَ وعمل صالحاً؛ رغَّب تعالى في الدار الآخرة، وأخبر بالسبب الموصل إليها، فقال: ﴿تلك الدارُ الآخرةُ﴾: التي أخبر اللّه بها في كتبِهِ وأخبرت بها رسلُه التي قد جمعت كلَّ نعيم واندفع عنها كلُّ مكدِّر ومنغِّص، ﴿نجعلُها﴾: داراً وقراراً ﴿للذين لا يريدونَ علوًّا في الأرض ولا فساداً﴾؛ أي: ليس لهم إرادةٌ؛ فكيف العملُ للعلوِّ في الأرض على عبادِ اللّه والتكبُّر عليهم وعلى الحقِّ؟! ﴿ولا فساداً﴾: وهٰذا شاملٌ لجميع المعاصي؛ فإذا كان[1] لا إرادة لهم في العلوِّ في الأرض ولا الفسادِ[2]؛ لزم من ذٰلك أن تكون إرادتُهم مصروفةً إلى اللّه، وقصدُهم الدارَ الآخرة، وحالُهم التواضعَ لعبادِ اللّه والانقيادَ للحقِّ والعملَ الصالح، وهٰؤلاء هم المتَّقون، الذين لهم العاقبة، ولهٰذا قال: ﴿والعاقبةُ﴾؛ أي: حالة الفلاح والنجاح التي تستقرُّ وتستمرُّ لمن اتَّقى اللّه تعالى. وغيرهم، وإنْ حَصَلَ لهم بعضُ الظهور والراحة؛ فإنَّه لا يطولُ وقتُه، ويزولُ عن قريب.

وعلم من هٰذا الحصر في الآية الكريمة أنَّ الذين يريدونَ العلوَّ في الأرض أو الفساد ليس لهم في الدار الآخرة نصيبٌ، ولا لهم منها نصيبٌ.

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿٨٤﴾ يخبر تعالى عن مضاعفة فضلِهِ وتمام عدلِهِ، فقال: ﴿من جاء بالحسنة﴾: شَرَطَ فيها أنْ يأتي بها العاملُ؛ لأنه قد يَعْمَلُها ولٰكن يقترن بها ما لا تُقْبَلُ منه أو يُبْطِلُها؛ فهٰذا لم يجِىءْ بالحسنة، والحسنةُ اسم جنس يشملُ جميعَ ما أمر اللّه به ورسولُه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة المتعلِّقة بحقِّه تعالى وحقوق العباد[3]، ﴿فله خيرٌ منها﴾؛ أي: أعظم وأجلُّ، وفي الآية الأخرى: ﴿فله عَشْرُ أمثالِها﴾: هٰذا التضعيف للحسنةِ لا بدَّ منه، وقد يقترنُ بذٰلك من الأسباب ما تزيدُ به المضاعفة؛ كما قال تعالى: ﴿واللّه يضاعِفُ لِمَن يشاءُ واللّهُ واسعٌ عليمٌ﴾:

---

(١) في (ب): «كانوا».
(٢) في (ب): «والإفساد».
(٣) في (ب): «وحق عباده».

بحسب حالِ العاملِ وعملِهِ ونفعِهِ ومحلِّه ومكانِهِ، ﴿ومن جاء بالسيِّئةِ﴾: وهي كلُّ ما نهى الشارعُ عنه نهي تحريم؛ ﴿فلا يُجزى الذين عَمِلوا السيئاتِ إلَّا ما كانوا يعملونَ﴾؛ كقوله تعالى: ﴿مَن جاء بالحسنةِ فله عشرُ أمثالِها ومن جاءَ بالسيِّئةِ فلا يُجزى إلَّا مثلَها وهم لا يُظلمون﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿٨٥﴾ يقول تعالى: ﴿إنَّ الذي فَرَضَ عليك القرآنَ﴾؛ أي: أنزله، وفرضَ فيه الأحكام، وبيَّن فيه الحلال والحرام، وأمرك بتبليغِهِ للعالمين والدعوةِ لأحكامِهِ جميع المكلَّفين؛ لا يليقُ بحكمته أنْ تكون الحياة هي الحياةَ الدُّنيا فقط من غير أن يُثاب العبادُ ويعاقَبوا، بل لا بدَّ أن يَرُدَّكَ إلى معادٍ يُجازَى فيه المحسنونَ بإحسانهم والمسيئون بمعصيَتِهِم، وقد بيَّنت لهم الهدى وأوضحت لهم المنهجَ؛ فإنْ تَبِعوكَ؛ فذٰلك حظُّهم وسعادتُهم، وإنْ أبَوْا إلَّا عِصْيانَكَ والقدحَ بما جئتَ به من الهُدى وتفضيلَ ما معهم من الباطل على الحقِّ؛ فلم يبقَ للمجادلةِ محلٌّ، ولم يبقَ إلَّا المجازاةُ على الأعمال من العالِم بالغيب والشهادة والمحقِّ والمبطل، ولهٰذا قال: ﴿قل ربِّي أعلمُ مَن جاء بالهدى ومَنْ هو في ضلالٍ مبين﴾: وقد علم أنَّ رسولَه هو المهتدي الهادي، وأنَّ أعداءَه هم الضالُّون المضلُّون.

﴿٨٦﴾ ﴿وما كنتَ تَرجو أن يُلْقى إليك الكتابُ﴾؛ أي: لم تكنْ متحرِّياً لنزول هٰذا الكتاب عليك، ولا مستعدًّا له، ولا متصدِّياً، ﴿إلَّا رحمةً من ربِّك﴾: بك وبالعباد، فأرسلك بهٰذا الكتاب الذي رَحِمَ به العالمينَ، وعلَّمهم ما لم يكونوا يعلمون، وزكَّاهم وعلَّمهم الكتاب والحكمة، وإنْ كانوا من قبلُ لَفي ﴿ضلال مبينٍ﴾: فإذا علمتَ أنَّه أنزله إليك رحمةً منه؛ علمتَ أنَّ جميع ما أمر به ونهى عنه؛ فإنَّه رحمةٌ وفضلٌ من اللّٰه؛ فلا يكنْ في صدرِك حرجٌ من شيءٍ منه، وتظنَّ أنَّ مخالِفَه أصلحُ وأنفع، ﴿فلا تكوننَّ ظهيراً للكافرينَ﴾؛ أي: معيناً لهم على ما هو من شُعَبِ كفرهم، ومن جملة مظاهَرَتِهم أن يُقال في شيءٍ منه: إنَّه خلافُ الحكمة والمصلحة والمنفعة.

﴿٨٧﴾ ﴿ولا يَصُدُّنَّكَ عن آياتِ اللّه بعد إذ أُنزلَتْ إليك﴾: بل أَبْلِغْها وأنفِذْها، ولا تُبالِ بمكرِهم، ولا يَخْدَعُنَّكَ عنها، ولا تتبعْ أهواءهم، ﴿وادعُ إلى ربِّك﴾؛ أي: اجعل الدعوة إلى ربِّك منتهى قصدِكَ وغاية عَمَلِكَ، فكلُّ ما خالف ذٰلك؛ فارفُضْه من رياءٍ أو سمعةٍ أو موافقةِ أغراض أهل الباطل؛ فإنَّ ذٰلك داعٍ إلى الكون معهم ومساعدتهم على أمرهم، ولهٰذا قال: ﴿ولا تكوننَّ من المشركِينَ﴾: لا في شركهم، ولا في فروعه وشعبه التي هي جميع المعاصي.

﴿٨٨﴾ ﴿ولا تَدْعُ مع اللّه إلٰهاً آخرَ﴾: بل أخلِصْ للّه عبادتَك؛ فإنَّه ﴿لا إلٰه إلَّا هو﴾: فلا أحدَ يستحقُّ أن يؤلَّه ويحبَّ ويعبدَ إلَّا اللّه الكامل الباقي الذي ﴿كلُّ شيءٍ هالكٌ إلَّا وَجْهَه﴾: وإذا كان كلُّ شيءٍ هالكٌ مضمحلٌّ سواه؛ فعبادة الهالك الباطل باطلةٌ ببطلان غايتها وفساد نهايتها، ﴿له الحكمُ﴾: في الدُّنيا والآخرة، ﴿وإليه﴾: لا إلى غيره ﴿تُرْجَعون﴾: فإذا كان ما سوى اللّه باطلاً هالكاً، واللّه هو الباقي الذي لا إلٰه إلَّا هو، وله الحكم في الدُّنيا والآخرة، وإليه مرجِعُ الخلائق كلِّهم؛ ليجازِيَهم بأعمالهم؛ تعيَّن على مَنْ له عقلٌ أنْ يعبدَ اللّه وحدَه لا شريك له، ويعملَ لما يقرِّبُه ويُدْنيه، ويحذَرَ من سخطِهِ وعقابِهِ، وأن يُقْدِمَ على ربِّه غير تائبٍ ولا مقلع عن خطئِهِ وذنوبِهِ.

تم تفسير سورة القصص.

وللّه الحمد والثناء والمجد دائماً أبداً.

❁ ❁ ❁

تفسير سورة العنكبوت

[وهي] مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾.

﴿١ ـ ٣﴾ يخبر تعالى عن تمام حكمتِهِ، وأنَّ حكمته لا تقتضي أنَّ كلَّ مَنْ قال إنَّه مؤمنٌ وادَّعى لنفسه الإيمان؛ أن يَبْقَوا في حالة يَسْلَمون فيها من الفتن والمحن، ولا يَعْرِضُ لهم ما يشوِّش عليهم إيمانَهم وفروعه؛ فإنَّهم لو كان الأمر كذٰلك؛ لم

يتميَّزِ الصادقُ من الكاذب والمحقُّ من المبطل، ولٰكن سنَّته وعادته في الأولين وفي هٰذه الأمة أنْ يَبْتَلِيَهُم بالسرَّاء والضرَّاء والعسر واليسر[1] والمنشط والمكره والغنى والفقر وإدالةِ الأعداء عليهم في بعضِ الأحيان ومجاهدةِ الأعداء بالقول والعمل ونحو ذٰلك من الفتن، التي ترجِعُ كلُّها إلى فتنة الشبهات المعارِضَة للعقيدة والشهواتِ المعارضة للإرادة؛ فمن كان عند ورودِ الشُّبُهات يَثْبُتُ إيمانُه ولا يتزلزل ويدفَعُها[2] بما معه من الحقِّ، وعند ورود الشهواتِ الموجبة والداعية إلى المعاصي والذُّنوب أو الصارفة عن ما أمر اللّٰهُ به ورسولُه، يعملُ بمقتضى الإيمان ويجاهدُ شهوتَه؛ دلَّ ذٰلك على صدق إيمانِهِ وصحَّته، ومن كان عند ورود الشُّبُهات تؤثِّر في قلبه شكًّا وريباً، وعند اعتراض الشهواتِ تَصْرِفُهُ إلى المعاصي أو تَصْدِفُه عن الواجبات؛ دلَّ ذٰلك على عدم صحَّة إيمانه وصدقه. والناس في هٰذا المقام درجاتٌ لا يحصيها إلَّا اللّٰه؛ فمستقلٌّ ومستكثرٌ. فنسألُ اللّٰه تعالى أن يُثَبِّتَنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأن يثبِّتَ قلوبَنا على دينه؛ فالابتلاءُ والامتحانُ للنفوس بمنزلة الكيرِ يُخْرِجُ خَبَثَها وطيبَها.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾﴾.

﴿٤﴾ أي: أحسبَ الذين همُّهم فعلُ السيئات وارتكابُ الجنايات أنَّ أعمالهم ستُهْمَلُ وأنَّ اللّٰه سيغفل عنهم أو يفوتونه؛ فلذٰلك أقدموا عليها وسَهُلَ عليهم عملها؟! ﴿ساء ما يحكمونَ﴾؛ أي: ساء حكمهم؛ فإنَّه حكمٌ جائرٌ لتضمُّنه إنكار قدرة اللّٰه وحكمتِهِ، وأنَّ لديهم قدرةً يمتنعون بها من عقاب اللّٰه، وهم أضعفُ شيء وأعجزه.

﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾.

﴿٥﴾ يعني: يا أيُّها المحبُّ لربِّه، المشتاق لقربه ولقائه، المسارع في مرضاته! أبشِرْ بقرب لقاء الحبيب؛ فإنَّه آتٍ، وكل ما هو آتٍ قريب[3]، فتزوَّد للقائِهِ، وسِرْ نحوَه مستصحباً الرجاء مؤمِّلاً الوصول إليه.

---

(١) في (ب): «واليسر والعسر».

(٢) في (ب): «ويدفعه».

(٣) في (ب): «إنما هو قريب».

﴿٦﴾ ولكن ما كل من يدَّعي يُعطى بدعواه، ولا كل من تمنَّى يُعطى ما تمنَّاه؛ فإنَّ اللّه سميعٌ للأصوات عليم بالنيَّات؛ فمن كان صادقاً في ذٰلك؛ أناله ما يرجو، ومن كان كاذباً؛ لم تنفعه دعواه، وهو العليم بمن يَصْلُحُ لحبِّه ومن لا يصلح، ﴿ومَن جاهَدَ﴾: نفسه وشيطانَه وعدوَّه الكافر؛ ﴿فإنَّما يجاهدُ لنفسِهِ﴾: لأنَّ نفعَه راجعٌ إليه، وثمرته عائدةٌ إليه، واللّه غنيٌّ عن العالمين، لم يأمرهم بما أمرهم به لينتفعَ به، ولا نهاهم عمَّا نهاهم عنه بخلاً منه عليهم، وقد علم أنَّ الأوامر والنواهي يحتاج المكلَّف فيها إلى جهادٍ؛ لأنَّ نفسه تتثاقل بطبعها عن الخير، وشيطانَه ينهاه عنه، وعدوَّه الكافر يمنعه من إقامة دينه كما ينبغي، وكل هٰذه[1] معارضاتٌ تحتاج إلى مجاهداتٍ وسعي شديد.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٧﴾.

﴿٧﴾ يعني: أنَّ الذين منَّ اللّه عليهم بالإيمان والعمل الصالح سيكفِّرُ اللّه عنهم سيئاتهم؛ لأنَّ الحسنات يُذْهِبْن السيئات، ﴿ولَنَجزِيَنَّهم أحسنَ الذي كانوا يعملون﴾؛ وهي أعمال الخير من واجبات ومستحبات، فهي أحسن ما يعمل العبد؛ لأنَّه يعمل المباحات أيضاً وغيرها.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨﴾.

﴿٨﴾ أي: وأمرنا الإنسان ووصَّيْناه بوالديه حُسناً؛ أي: ببرِّهما والإحسان إليهما بالقول والعمل، وأن يحافظَ على ذٰلك ولا يعقهما ويسيء إليهما في قوله وعمله، ﴿وإن جاهداك﴾ على أن تشرك ﴿بي ما ليسَ لك به علمٌ﴾: وليس لأحدٍ علمٌ بصحَّة الشرك باللّه، وهٰذا تعظيمٌ لأمر الشرك. ﴿فلا تُطِعْهما إليَّ مرجِعُكم فأنبِّئُكم بما كنتُم تعملونَ﴾: فأجازيكم بأعمالكم؛ فبرُّوا والديكم، وقدِّموا طاعتهما إلَّا على طاعة اللّه ورسوله؛ فإنَّها مقدَّمة على كل شيء.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٩﴾.

---

(١) في (ب): «هذا».

﴿٩﴾ أي: مَنْ آمن بالله وعمل صالحاً؛ فإنَّ الله وعده أن يُدْخِلَه الجنة في جملة عباد[1] الله الصالحين من النبيِّين والصديقين والشهداء والصالحين، كلٌّ على حسب درجته ومرتبته عند الله؛ فالإيمان الصحيح والعمل الصالح عنوانٌ على سعادة صاحبه، وأنَّه من أهل الرحمٰن والصالحين من عباد الله.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾.

﴿١٠ ـ ١١﴾ لما ذكر تعالى أنَّه لا بدَّ أن يَمْتَحِنَ من ادَّعى الإيمان؛ ليظهر الصادقُ من الكاذب؛ بيَّن تعالى أنَّ من الناس فريقاً لا صبر لهم على المحن ولا ثبات لهم على بعض الزلازل، فقال: ﴿ومن الناس مَن يقولُ آمنَّا بالله فإذا أوذي في الله﴾: بضربٍ أو أخذِ مال أو تعييرٍ؛ ليرتدَّ عن دينه، وليراجع الباطل؛ ﴿جَعَلَ فتنةَ الناس كعذابِ الله﴾؛ أي: يجعلها صادةً له عن الإيمان والثبات عليه؛ كما أنَّ العذاب صادٌّ عما هو سببه. ﴿ولئِن جاء نصرٌ من ربِّك ليقولنَّ إنَّا كنَّا معكم﴾: لأنَّه موافقٌ للهوى.

فهٰذا الصنف من الناس من الذين قال الله فيهم: ﴿ومن الناس من يعبدُ الله على حرفٍ فإنْ أصابَه خيرٌ اطمأنَّ به وإنْ أصابَتْه فتنةٌ انقلبَ على وجهِهِ خسر الدنيا والآخرة ذٰلك هو الخسران المبين﴾. ﴿أو ليسَ الله بأعلَمَ بِمَا في صُدُورِ العَالَمِينَ﴾: حيث أخبركم[2] بهٰذا الفريق الذي حالُه كما وَصَفَ لكم، فتعرِفون بذٰلك كمالَ علمهِ وسعةِ حكمتِهِ. ﴿ولَيَعلَمَنَّ الله الذِينَ آمَنُوا ولَيَعلَمَنَّ المُنَافِقِينَ﴾؛ أي: فلذٰلك قَدَّرَ مِحَناً وابتلاءً؛ ليظهر علمه فيهم، فيجازيهم بما ظهر منهم، لا بما يعلمه بمجرَّده؛ لأنَّهم قد يحتجُّون على الله أنهم لو ابْتُلوا لَثَبَتوا.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

(١) في (ب): «عباده».
(٢) في (ب): «خبركم».

﴿١٢﴾ يخبر تعالى عن افتراء الكفار ودعوتِهم للمؤمنين إلى دينِهم، وفي ضمن ذلك تحذيرُ المؤمنين من الاغترار بهم والوقوع في مَكْرِهم، فقال: ﴿وقال الذين كَفَروا للذينَ آمنوا اتَّبِعوا سبيلَنا﴾: فاترُكوا دينَكم أو بعضَه، واتَّبِعونا في دينِنا؛ فإنَّنا نضمنُ لكم الأمر، ونَحْمِلُ ﴿خطاياكم﴾: وهٰذا الأمر ليس بأيديهم؛ فلهٰذا قال: ﴿وما هم بحاملينَ من خطاياهم من شيءٍ﴾: لا قليل ولا كثيرٍ؛ فهٰذا التحمُّل ولو رضي به صاحبه؛ فإنَّه لا يفيدُ شيئاً؛ فإنَّ الحقَّ للّه، واللّه تعالى لم يمكِّن العبد من التصرُّف في حقِّه إلَّا بأمره وحكمِهِ، وحكمُهُ أن لا تَزِرَ وازرةٌ وِزرَ أخرى.

﴿١٣﴾ ولمَّا كان قوله: ﴿وما هُم بحاملينَ مِنْ خطاياهم من شيءٍ﴾: قد يُتَوَهَّم منه أيضاً أنَّ الكفَّار الدَّاعين إلى كفرهم ـ ونحوهم ممَّن دعا إلى باطله ـ ليس عليهم إلَّا ذنبُهم الذي ارتكبوه دون الذَّنب الذي فعله غيرُهم، ولو كانوا متسبِّبين فيه؛ قال محترزاً عن هٰذا الوهم: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أثقالَهم﴾؛ أي: أثقال ذُنوبهم التي عملوها، ﴿وأثقالاً مع أثقالِهم﴾: وهي الذُّنوب التي بسببهم ومن جرَّائهم؛ فالذنبُ الذي فعله التابعُ لكل من التابع والمتبوع حصةٌ منه: هٰذا لأنَّه فَعَلَه وباشَرَه، والمتبوعُ لأنَّه تسبَّب في فعلِهِ ودعا إليه؛ كما أنَّ الحسنة إذا فعلها التابعُ له أجرُها بالمباشرة وللداعي أجره بالتسبب، ﴿وَلَيُسْألُنَّ يومَ القيامةِ عمَّا كانوا يفترونَ﴾: من الشرِّ وتزيينه وقولِهم: ﴿وَلْنَحمِلْ خطاياكم﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿١٤﴾ يخبر تعالى عن حكمِهِ وحكمتِهِ في عقوبات[1] الأمم المكذِّبة، وأنَّ اللّه أرسل عبده ورسوله نوحاً عليه [الصلاة و] السلام إلى قومه يدعوهم إلى التوحيد وإفراد اللّه بالعبادةِ والنهي عن الأنداد والأصنام، ﴿فَلَبِثَ فيهم﴾: نبيًّا داعياً ﴿ألفَ سنة إلَّا خمسينَ عاماً﴾: وهو لا يني بدعوتِهم ولا يفتُرُ في نصحهم؛ يدعوهم ليلاً ونهاراً وسرًّا وجهاراً، فلم يرشُدوا ولا[2] اهتدوا بل استمرُّوا على كفرهم وطغيانهم، حتى دعا عليهم نبيُّهم نوحٌ عليه الصلاة والسلام مع شدَّة صبرِهِ وحلمه واحتماله، فقال: ﴿ربِّ لا تَذَرْ على الأرض من الكافرين دياراً﴾، ﴿فأخَذَهُمُ الطوفانُ﴾؛ أي:

(١) في (ب): «عقوبة».
(٢) في (ب): «ولم».

الماء الذي نزل من السماء بكثرةٍ ونَبَعَ[١] من الأرض بشدَّةٍ، ﴿وهم ظالمونَ﴾؛ مستحقُّون للعذاب.

﴿١٥﴾ ﴿فأنجَيْناه وأصحابَ السفينةِ﴾: الذين ركبوا معه؛ أهلَه ومن آمن به، ﴿وجَعَلْناها﴾؛ أي: السفينة أو قصة نوح ﴿آيةً للعالمينَ﴾: يعتبِرون بها على أنَّ مَنْ كذَّب الرسل آخرُ أمرِهِ الهلاكُ، وأنَّ المؤمنين سيجعل الله لهم من كلِّ همٍّ فرجاً ومن كل ضيقٍ مخرجاً، وجعل الله أيضاً السفينة؛ أي: جنسها آية للعالمين؛ يعتبرون بها رحمة ربِّهم الذي قيَّض لهم أسبابها، ويسَّر لهم أمرها، وجعلها تحملهم، وتحمِلُ متاعَهم من محلٍّ إلى محلٍّ، ومن قطر إلى قطر.

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾
إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا
يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن
تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟
كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾
يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى
ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿١٦﴾ يذكر تعالى أنَّه أرسل خليله إبراهيم عليه السلام إلى قومه يَدْعوهم إلى الله، فقال لهم[٢]: ﴿اعبُدوا اللهَ﴾؛ أي: وحِّدوه وأخلِصوا له العبادةَ وامتَثِلوا ما أمركم به، ﴿واتَّقوه﴾: أن يغضبَ عليكم فيعذِّبَكم، وذٰلك بترك ما يُغضبه من المعاصي. ﴿ذٰلكم﴾؛ أي: عبادة الله وتقواه ﴿خيرٌ لكم﴾: من ترك ذٰلك، وهٰذا من باب إطلاق أفعل التفضيل بما ليس في الطرف الآخر منه شيء؛ فإنَّ تَرْكَ عبادةِ الله وتَرْكَ تقواه لا خير فيه بوجهٍ، وإنَّما كانت عبادة الله وتقواه خيراً للناس لأنَّه لا سبيل إلى نيل كرامته في الدُّنيا والآخرة إلَّا بذٰلك، وكلُّ خيرٍ يوجدُ في الدُّنيا والآخرة؛ فإنَّه من آثار عبادة الله وتقواه. ﴿إن كنتُم تعلَمونَ﴾: ذٰلك؛ فاعلموا الإمور، وانظُروا ما هو أولى بالإيثار.

---

(١) في (ب): «فنبع».
(٢) في (ب): «فقال».

﴿١٧ ـ ١٨﴾ فلمَّا أمرهم بعبادة الله وتقواه؛ نهاهم عن عبادة الأصنام، وبيَّن لهم نقصها وعدم استحقاقها للعبودية، فقال: ﴿إنَّما تعبُدون من دونِ الله أوثاناً وتخلُقون إفكاً﴾: تنحِتونها، وتخلُقونها بأيديكم، وتخلُقونَ لها أسماءَ الآلهة، وتختَلِقون الكذبَ بالأمر بعبادتها والتمسُّك بذلك. ﴿إنَّ الذين﴾ تدعون ﴿من دونِ الله﴾: في نقصِهِ وأنَّه ليس فيه ما يدعو إلى عبادته، ﴿لا يملِكون لكم رزقاً﴾: فكأنَّه قيلَ: قد بان لنا أنَّ هذه الأوثان مخلوقةٌ ناقصةٌ لا تملك نفعاً ولا ضرًّا ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، وأنَّ مَنْ هذا وصفُه لا يستحقُّ أدنى أدنى مثقال مثقال ذرةٍ من العبادة والتألُّه، والقلوبُ لا بدَّ أن تطلب معبوداً تألهُهُ وتسأله حوائجها. فقال حاثًّا لهم على من يستحقُّ العبادة: ﴿فابتَغوا عند الله الرِّزْقَ﴾: فإنَّه هو الميسِّر له المقدِّر المجيب لدعوةِ مَنْ دعاه لمصالح دينِهِ ودُنياه، ﴿واعبُدوه﴾: وحده لا شريكَ له؛ لكونِهِ الكامل النافع الضارَّ المتفرِّد بالتدبير، ﴿واشكُروا له﴾: وحده؛ لكون جميع ما وصل ويصل إلى الخلق من النعم فمنه، وجميع ما اندفع ويندفع من النقم عنهم؛ فهو الدافع لها. ﴿إليه تُرْجَعون﴾: فيجازيكم[1] على ما عملتم، وينبِّئُكم بما أسررتم وأعلنتُم؛ فاحذروا القدوم عليه وأنتم على شِرْكِكم، وارْغَبوا فيما يقرِّبُكم إليه ويثيبكم عند القدوم عليه.

﴿١٩﴾ ﴿أوَلَمْ يَرَوْا كيف يُبدِىء اللهُ الخلقَ ثم يعيدُه﴾: يوم القيامةِ. ﴿إنَّ ذلك على الله يسيرٌ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وهو الذي يبدأ الخلقَ ثم يعيدُه وهو أهونُ عليه﴾.

﴿٢٠﴾ ﴿قل﴾: لهم إن حَصَلَ معهم ريبٌ وشكٌّ في الابتداء: ﴿سيروا في الأرضِ﴾: بأبدانِكم وقلوبِكم، ﴿فانظُروا كيف بَدَأَ الخَلْقَ﴾: فإنَّكم سَتَجِدون أمماً من الآدميين والحيواناتِ لا تزال توجد شيئاً فشيئاً، وتجدون النباتَ والأشجار كيف تحدثُ وقتاً بعد وقت، وتجدون السحاب والرياح ونحوها مستمرَّةً في تجدُّدها، بل الخلق دائماً في بدءٍ وإعادةٍ؛ فانْظُرْ إليهم وقت موتتهم الصغرى ـ النوم ـ؛ وقد هَجَمَ عليهم الليلُ بظلامِهِ، فسكنت منهم الحركاتُ، وانقطعتْ منهم الأصواتُ، وصاروا في فرشهم ومأواهم كالميتين، ثم إنَّهم لم يزالوا على ذلك طول ليلهم حتى انفلق الأصباح، فانتبهوا من رقدتهم، وبُعِثوا من موتتهم؛ قائلين: الحمد لله الذي أحيانا

(١) في (ب): «يجازيكم».

بعدما أماتنا وإليه النُّشور. ولهٰذا قال: ﴿ثم اللّهُ﴾: بعد الإعادة ﴿يُنْشِئُ النشأة الآخرة﴾: وهي النشأةُ التي لا تَقْبَلُ موتاً ولا نوماً، وإنَّما هو الخلودُ والدوامُ في إحدى الدارين. ﴿إنَّ اللّه على كلِّ شيءٍ قديرٌ﴾: فقدرته تعالى لا يُعْجِزُها شيء، وكما قَدِرَ بها على ابتداءِ الخلق؛ فقدرتُه على الإعادة من باب أولى وأحرى.

﴿٢١﴾ ﴿يعذِّبُ من يشاء ويرحمُ من يشاء﴾؛ أي: هو المنفرد بالحكم الجزائي، وهو إثابةُ الطائعين ورحمتهم، وتعذيبُ العاصين والتنكيل بهم، ﴿وإليه تُقْلَبونَ﴾؛ أي: ترجِعونَ إلى الدار التي بها تجري عليكم أحكام عذابِهِ ورحمتِهِ، فاكتسبوا في هٰذه الدار ما هو من أسباب رحمتِهِ من الطاعات، وابتعدوا من أسباب عذابِهِ وهو المعاصي.

﴿٢٢﴾ ﴿وما أنتم بِمُعْجِزِينَ في الأرض ولا في السماء﴾؛ أي: يا هٰؤلاء المكذِّبون المتجرِّؤون على المعاصي! لا تحسبوا أنه مغفولٌ عنكم أو أنكم معجزون[1] للّه في الأرض ولا في السماء؛ فلا تَغُرَّنَّكم قدرتُكم وما زينتْ لكم أنفسكم وخدعتْكم من النجاة من عذاب اللّه، فلستُم بمعجزينَ اللّه في جميع أقطار العالم، ﴿وما لكُم من دونِ اللّه من وليٍّ﴾: يتولَّاكم فيحصِّلَ لكم مصالح دينكم ودنياكم. ﴿ولا نصيرٍ﴾: ينصُرُكم فيدفع عنكم المكارِهَ.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَـٰتِ اللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِى وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿٢٣﴾ يخبر تعالى من هم الذين زال عنهم الخيرُ وحَصَلَ لهم الشرُّ، وأنَّهم الذين كفروا به وبرسله وبما جاؤوهم به، وكذَّبوا بلقاء اللّه، فليس عندهم إلَّا الدُّنيا؛ فلذٰلك أقدموا[2] على ما أقدموا عليه من الشرك والمعاصي؛ لأنه ليس في قلوبهم ما يخوِّفهم من عاقبة ذٰلك، ولهٰذا قال: ﴿أولٰئك يَئِسوا من رحمتي﴾؛ أي: فلذٰلك لم يعملوا سبباً واحداً يُحَصِّلونَ به الرحمةَ، وإلَّا؛ فلو طمعوا في رحمته؛ لعملوا لذٰلك أعمالاً.

والإياس من رحمة اللّه من أعظم المحاذير، وهو **نوعان**: **إياسُ الكفَّار** منها وتركُهم جميع سبب يقرِّبُهم منها. **وإياسُ العصاة** بسبب كثرةِ جناياتهم أوْحَشَتْهم فمَلَكَتْ قلوبَهم، فأحدث لها الإياس. ﴿وأولٰئك لهم عذابٌ أليمٌ﴾؛ أي: مؤلم موجع.

---

(١) في (ب): «أو معجزين الله».
(٢) في (ب): «قدموا».

وكأن هٰذه الآياتِ معترضاتٌ بين كلام إبراهيم لقومه وردِّهم عليه، واللّه أعلمُ بذٰلك.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿٢٤﴾ أي: فما كان مجاوبةُ قوم إبراهيمَ لإبراهيمَ[1] حين دعاهم إلى ربِّه قبولَ دعوتِهِ والاهتداءَ بنُصحه ورؤيةَ نعمة اللّه عليهم بإرساله إليهم، وإنَّما كان مجاوبتُهم له شرَّ مجاوبة، ﴿قالوا اقْتُلوهُ أو حَرِّقوهُ﴾: أشنع القتلات، وهم أناسٌ مقتدرون، لهم السلطانُ، فألقَوْه في النار، ﴿فأنجاه اللّهُ﴾: منها. ﴿إنَّ في ذٰلك لآياتٍ لقوم يؤمنونَ﴾: فيعلمونَ صِحَّةَ ما جاءت به الرسلُ وبِرَّهم ونُصْحَهم وبطلانَ قول من خالفهم وناقَضهم، وأنَّ المعارضين للرُّسل كأنَّهم تواصَوْا وحثَّ بعضُهم بعضاً على التكذيب.

﴿٢٥﴾ ﴿وقال﴾: لهم إبراهيمُ في جملةِ ما قاله من نُصحه: ﴿إنَّما اتَّخذتُم من دون اللّه أوثاناً مودَّةَ بَيْنِكُم في الحياة الدُّنيا﴾؛ أي: غايةُ ذٰلك مودَّةٌ في الدنيا ستنقطعُ وتضمحلُّ، ﴿ثم يومَ القيامةِ يَكْفُرُ بعضُكم ببعض ويلعنُ بعضُكم بعضاً﴾؛ أي: يتبرَّأ كلٌّ من العابدين والمعبودين من الآخر، وإذا حُشِرَ الناسُ؛ كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين؛ فكيف تتعلَّقون بِمَنْ يعلمُ أنه سيتبرأ من عابديه، ويلعنُهم. وأنَّ مأوى الجميع العابدين والمعبودين ﴿النار﴾: وليس أحدٌ ينصُرُهم من عذاب اللّه، ولا يدفعُ عنهم عقابه.

﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿٢٦﴾ أي: لم يزلْ إبراهيمُ عليه الصلاة والسلام يَدْعو قومَه، وهم مستمرُّون

---

(١) في (ب): «إبراهيم».

على عنادهم؛ إلَّا أنَّه آمن له بدعوته لوطٌ الذي نبَّأه اللّه وأرسله إلى قومِهِ كما سيأتي ذِكْره، ﴿وقال﴾: إبراهيمُ حين رأى أنَّ دعوةَ قومِهِ لا تفيدُهم شيئاً: ﴿إنِّي مهاجرٌ إلى ربِّي﴾؛ أي: هاجِرٌ أرضَ السوء، ومهاجِرٌ إلى الأرض المباركة، وهي الشام. ﴿إنَّه هو العزيزُ﴾؛ أي: الذي له القوَّة، وهو يقدِرُ على هدايتِكم، ولٰكنَّه حكيمٌ، ما اقتضت حكمتُه ذٰلك.

ولمَّا اعتزلهم وفارَقهم وهم بحالِهِم؛ لم يذكرِ اللّه عنهم أنَّه أهلكهم بعذاب، بل ذَكَرَ اعتزالَه إيَّاهم وهجرتَه من بين أظهُرِهم، فأمَّا ما يُذْكَرُ في الإسرائيلياتِ أنَّ اللّه تعالى فتح على قومِهِ باب البعوض، فشرب دِماءَهم، وأكل لحومَهم، وأتْلَفَهم عن آخرهم؛ فهٰذا يتوقَّفُ الجزم به على الدليل الشرعيِّ، ولم يوجدْ؛ فلو كان اللّه استأصَلَهم بالعذاب؛ لَذَكَرَه كما ذَكَرَ إهلاكَ الأمم المكذِّبة، ولٰكن هل من أسرار ذٰلك أن الخليل عليه السلام من أرحم الخلق وأفضلهم وأحلمهم وأجلِّهم؛ فلم يَدْعُ على قومِهِ كما دعا غيرُه، ولم يكن اللّهُ لِيَجْزِيَ بسببه عذاباً عامًّا؟ ومما يدلُّ على ذٰلك أنَّه راجع الملائكة في إهلاك قوم لوط، وجادَلَهم، ودافَعَ عنهم، وهم ليسوا قومَه. واللّه أعلم بالحال.

﴿٢٧﴾ ﴿ووهَبْنا له إسحاقَ ويعقوبَ﴾؛ أي: بعدما هاجر إلى الشام، ﴿وجَعَلْنا في ذرِّيَّتِهِ النبوَّة والكتاب﴾: فلم يأتِ بعدَه نبيٌّ إلَّا من ذُرِّيَّتِهِ، ولا نزل كتابٌ إلَّا على ذرِّيَّته، حتى خُتموا بابنه محمد ﷺ وعليهم أجمعين. وهٰذا من أعظم[1] المناقب والمفاخر، أنْ تكونَ موادُّ الهدايةِ والرحمةِ والسعادةِ والفلاح والفوزِ في ذُرِّيَّتِهِ، وعلى أيديهم اهتدى المهتدون، وآمن المؤمنون، وصلح الصالحون، ﴿وآتيناه أجرَه في الدُّنيا﴾: من الزوجة الجميلة فائقة الجمال، والرزق الواسع، والأولاد الذين بهم قَرَّتْ عينُه، ومعرفة اللّه ومحبَّته والإنابة إليه. ﴿وإنَّه في الآخرة لَمِنَ الصالحين﴾: بل هو ومحمدٌ صلى الله عليهما وسَلَّم أفضل الصالحين على الإطلاق وأعلاهم منزلةً. فجمع اللّه له بين سعادةِ الدُّنيا والآخرة.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا

(١) في (ب): «وهذا أعظم».

كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ
رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ [وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا
مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُواْ نَحْنُ
أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا
لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ
كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا
كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾]⁽¹⁾.

تقدَّم أنَّ لوطاً عليه السلام آمن لإبراهيم وصار من المهتدين به، وقد ذكروا أنَّه ليس من ذُرِّيَّة إبراهيم، وإنَّما هو ابن أخي إبراهيم؛ فقوله تعالى: ﴿وجَعَلْنا في ذُرِّيَّتِهِ النبوَّة والكتاب﴾: وإنْ كان عامًّا؛ فلا يناقض كون لوط نبيًّا رسولاً، وهو ليس من ذُرِّيَّتِهِ؛ لأنَّ الآية جيء بها لسياق المدح والثناء على الخليل، وقد أخبر أنَّ لوطاً اهتدى على يديه، ومن اهتدى على يديه؛ أكمل ممَّن اهتدى مِن ذُرِّيَّتِهِ بالنسبة إلى فضيلة الهادي. والله أعلم.

﴿٢٨ ـ ٢٩﴾ فأرسل الله لوطاً إلى قومه، وكانوا مع شركهم قد جمعوا بين فعل الفاحشة في الذُّكور وتقطيع السبيل وفُشُوِّ المُنْكرات في مجالسهم، فنصحهم لوطٌ عن هٰذه الأمور، وبيَّن لهم قبائحها في نفسها وما تؤول إليه من العقوبة البليغة، فلم يَرْعَوا ولم يَذَّكَّروا. ﴿فما كان جوابَ قومِهِ إلَّا أن قالوا ائتِنا بعذابِ الله إن كنتَ من الصادقين﴾.

﴿٣٠ ـ ٣٥﴾ فأيس منهم نبيُّهم، وعلم استحقاقهم العذاب، وجزع من شدة تكذيبهم له، فدعا عليهم، و﴿قال ربِّ انصُرْني على القوم المفسِدين﴾: فاستجاب الله دعاءَه، فأرسل الملائكةَ لإهلاكِهِم، فمرُّوا بإبراهيم قبل ذٰلك، وبشَّروه بإسحاقَ ومن وراءِ إسحاقَ يعقوب، ثم سألهم إبراهيمُ: أين يريدون؟ فأخبروه أنَّهم يريدون إهلاكَ قوم لوط، فجعل يراجِعُهم ويقول: ﴿إنَّ فيها لوطاً﴾، فقالوا له: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُ وأهلَه إلَّا امرأتَه كانت من الغابرين﴾: ثم مَضَوْا حتى أتوا

(١) ما بين المعقوفتين زيادة لا توجد في (أ). وفي (ب): إلى آخر القصة.

لوطاً، فساءه مجيئُهم، وضاق بهم ذَرْعاً؛ بحيث إنه لم يعرِفْهم، وظنَّ أنَّهم من جملة أبناء السبيل الضيوف، فخاف عليهم من قومه، فقالوا له: ﴿لا تَخَفْ ولا تَحْزَنْ﴾: وأخبروه أنَّهم رسل الله، ﴿إنَّا منجُّوك وأهلَكَ إلَّا امرأتَكَ كانت من الغابرين. إنَّا منزلون على أهل هٰذه القرية رجزاً﴾؛ أي: عذاباً ﴿من السماء بما كانوا يَفْسُقون﴾: فأمروه أن يَسْرِيَ بأهله ليلاً، فلما أصبحوا؛ قَلَبَ الله عليهم ديارهم، فجعل عاليها سافلها، وأمطر عليهم حجارةً من سِجِّيل متتابعة حتى أبادتهم وأهلكتهم فصاروا سمراً من الأسمار وعبرةً من العبر. ﴿ولقد تَرَكْنا منها آيةً بَيِّنَةً لقوم يعقلونَ﴾؛ أي: تركنا من ديار قوم لوط آثاراً بيِّنة لقوم يعقلون العِبَرَ بقلوبهم فينتفعونَ بها؛ كما قال تعالى: ﴿وإنَّكُم لَتَمُرُّونَ عليهم مصبحينَ. وباللَّيلِ أفلا تعقِلونَ﴾.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿٣٦ ـ ٣٧﴾ أي: ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إلى مَدْيَنَ﴾: القبيلة المعروفة المشهورة ﴿شُعَيْباً﴾: فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، والإيمان بالبعث ورجائه والعمل له، ونهاهم عن الإفسادِ في الأرض ببخس المكاييل والموازين والسعي بقَطْع الطُّرُق. ﴿فكذبوه﴾: فأخذهم عذابُ الله، ﴿فأصبحوا في دارِهم جاثمينَ﴾.

﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿٣٨﴾ أي: وكذلك ما فَعَلْنا بعادٍ وثمودَ، وقد علمتَ[1] قَصَصهم، وتبيَّن لكم بشيءٍ تشاهدونه بأبصارِكم من مساكِنِهم وآثارِهم التي بانوا عنها، وقد جاءتهم رسلُهم بالآيات البينات المفيدة للبصيرة، فكذَّبوهم وجادلوهم، وزين لهم الشيطان

(١) في (ب): «علمتم».

عملهم، حتى ظنوا أنه أفضل مما جاءتهم به الرسل.

﴿٣٩﴾ وكذلك قارونُ وفرعونُ وهامانُ، حين بعث اللّه إليهم موسى بن عمران بالآيات البينات والبراهين الساطعات، فلم ينقادوا، واستكبروا في الأرض على عباد اللّه فأذلُّوهم، وعلى الحقِّ فردوه فلم يقدروا على النجاء حين نزلت بهم العقوبة. ﴿وما كانوا سابقينَ﴾: اللّهَ ولا فائتينَ، بل سلَّموا واسْتَسْلموا.

﴿٤٠﴾ ﴿فكلاًّ﴾: من هٰؤلاء الأمم المكذِّبة ﴿أخذنا بِذَنبِهِ﴾: على قدره وبعقوبةٍ مناسبة له، ﴿فمنهم مَنْ أرسَلْنا عليه حاصباً﴾؛ أي: عذاباً يَحْصِبُهم كقوم عادٍ حين أرسل اللّه ﴿عليهم الريح العقيم﴾ و﴿سخَّرها عليهم سبعَ ليال وثمانيةَ أيام حسوماً فترى القوم فيها صَرْعى كأنَّهم أعجازُ نخل خاوية﴾، ﴿ومنهم من أخَذَتْه الصيحةُ﴾: كقوم صالح، ﴿ومنهم مَنْ خَسَفْنا به الأرض﴾: كقارون، ﴿ومنهم من أغْرَقْنا﴾: كفرعون وهامان وجنودهما. ﴿وما كان اللّهُ﴾؛ أي: ما ينبغي ولا يليقُ به تعالى أن يظلمهم لكمال عدله وغناه التام عن جميع الخلق، ﴿ولٰكِن كَانُوا أنفُسَهُم يَظلِمُونَ﴾: منعوها حقَّها التي هي بصددِهِ؛ فإنَّها مخلوقةٌ لعبادة اللّه وحده؛ فهٰؤلاء وَضَعوها في غير موضِعِها، وشَغَلوها[1] بالشهواتِ والمعاصي، فضرُّوها غاية الضرر من حيث ظنُّوا أنهم ينفعونها.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿٤١﴾ هٰذا مثلٌ ضربه اللّه لمن عَبَدَ معه غيرَه يقصدُ به التعزُّز والتقوِّي والنفع، وأنَّ الأمر بخلاف مقصوده؛ فإنَّ مَثَلَه كمثل العنكبوت اتَّخذت بيتاً يقيها من الحرِّ والبرد والآفات، ﴿وإنَّ أوهنَ البيوتِ﴾: أضعفها وأوهاها ﴿لبيتُ العنكبوتِ﴾: فالعنكبوت من الحيوانات الضعيفة، وبيتُها من أضعف البيوت؛ فما ازدادتْ باتِّخاذه إلَّا ضعفاً.

كذٰلك هٰؤلاء الذين يتَّخذون من دونه أولياء فقراء عاجزون من جميع الوجوه،

---

(١) في (ب): «وأشغلوها».

وحين اتَّخذوا الأولياء من دونه يتعزَّزون بهم ويستَنْصِرونهم؛ ازدادوا ضَعْفاً إلى ضعفهم ووهناً إلى وهنهم؛ فإنَّهم اتَّكلوا عليهم في كثير من مصالحهم، وألْقَوْها عليهم، وتخلَّوْا هم عنها؛ على أنَّ أولئك سيقومون بها، فخذلوهم، فلم يحصُلوا منهم على طائل، ولا أنالوهم من معونتهم أقلَّ نائل؛ فلو كانوا يعلمون حقيقة العلم حالهم وحال مَن اتَّخذوهم؛ لم يَتَّخِذوهم، ولتبرؤوا منهم، ولتولَّوا الربَّ القادر الرحيم، الذي إذا تولَّاه عبدُه وتوكَّل عليه؛ كفاه مؤونة دينه ودنياه، وازداد قوَّة إلى قوَّته في قلبه وبدنه(١) وحاله وأعماله.

﴿٤٢﴾ ولمَّا بيَّن نهايةَ ضَعْف آلهة المشركين؛ ارتقى من هٰذا إلى ما هو أبلغ منه، وأنَّها ليس بشيء، بل هي مجرَّدُ أسماء سمَّوْها وظنونٍ اعتقدوها، وعند التحقيق يتبيَّن للعاقل بطلانها وعدمها، ولهٰذا قال: ﴿**إنَّ اللّه يعلمُ ما يَدعونَ من دونِهِ من شيءٍ**﴾؛ أي: إنَّه تعالى يعلم ـ وهو عالم الغيب والشهادة ـ أنَّهم ما يدعون من دون اللّه شيئاً موجوداً ولا إلٰهاً له حقيقةً؛ كقوله تعالى: ﴿إنْ هي إلَّا أسماءٌ سَمَّيْتُموها أنتُم وآباؤكم ما أنزَلَ اللّه بها من سلطانٍ﴾، وقوله: ﴿وما يَتَّبِعُ الذين يَدْعون مِن دون اللّه شركاءَ إنْ يَتَّبِعون إلا الظنَّ﴾. ﴿**وهو العزيزُ**﴾: الذي له القوَّة جميعاً، التي قهر بها جميع الخلق. ﴿**الحكيم**﴾: الذي يضع الأشياء مواضِعَها، الذي أحسن كلَّ شيء خَلَقَه وأتقنَ ما أمره.

﴿٤٣﴾ ﴿**وتلك الأمثالُ نَضرِبُها للناس**﴾؛ أي: لأجلهم ولانتفاعهم وتعليمهم؛ لكونِها من الطرق الموضحة للعلوم؛ لأنَّها تُقَرِّبُ الأمور المعقولة بالأمور المحسوسة، فيتَّضح المعنى المطلوب بسببها؛ فهي مصلحة لعموم الناس. ﴿و﴾ لكن ﴿**مَا يَعقِلُهَا**﴾: لفهمها وتدبرها وتطبيقها على ما ضُرِبَتْ له وَعَقَلَها في القلب ﴿**إلَّا العالمونَ**﴾؛ أي: إلَّا أهلُ العلم الحقيقي، الذين وصل العلمُ إلى قلوبهم. وهٰذا مدحٌ للأمثال التي يضرِبُها، وحثٌّ على تدبُّرها وتعقُّلها، ومدحٌ لمن يَعْقِلها، وأنَّه عنوانٌ على أنَّه من أهل العلم، فعُلِمَ أنَّ مَنْ لم يَعْقِلْها ليس من العالمين.

والسببُ في ذٰلك أنَّ الأمثال التي يضرِبها اللّه في القرآن إنَّما هي للأمور الكبار والمطالب العالية والمسائل الجليلة، فأهلُ العلم يعرِفون أنَّها أهمُّ من غيرها؛ لاعتناء اللّه بها، وحثِّه عبادَه على تعقُّلها وتدبُّرها، فيبذلون جهدَهم في معرفتها،

---

(١) في (ب): «وفي بدنه».

وأمّا من لم يَعْقِلْها مع أهميّتها؛ فإنَّ ذٰلك دليلٌ على أنَّه ليس من أهل العلم؛ لأنَّه إذا لم يعرف المسائل المهمَّة، فعدم معرفتِهِ غيرَها من باب أولى وأحرى، ولهٰذا أكثرُ ما يضرِبُ اللّٰهُ الأمثالَ في أصول الدين ونحوها.

﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿٤٤﴾ أي: هو تعالى المنفردُ بخلق السماواتِ على علوِّها وارتفاعها وسَعَتِها وحسنها وما فيها من الشمس والقمر والكواكب والملائكة، والأرض وما فيها من الجبال والبحار والبراري والقفار والأشجار ونحوها، وكلُّ ذٰلك خَلَقَه بالحقِّ؛ أي: لم يَخْلُقْها عبثاً ولا سدىً ولا لغير فائدة، وإنَّما خلقها ليقوم أمره وشرعُه، ولتتمَّ نعمتُه على عباده، ولِيَرَوْا من حكمتِهِ وقهرِهِ وتدبيرِهِ ما يدلُّهم على أنَّه وحدَه معبودُهم ومحبوبُهم وإلٰههم. ﴿إنَّ في ذٰلك لآيةً للمؤمنين﴾: على كثير من المطالب الإيمانيَّة، إذا تدبَّرها المؤمن؛ رأى ذٰلك فيها عياناً.

﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿٤٥﴾ يأمر تعالى بتلاوة وحيه وتنزيله، وهو هٰذا الكتاب العظيم، ومعنى تلاوتِهِ: اتِّباعُهُ بامتثال ما يأمرُ به واجتناب ما ينهى [عنه]، والاهتداءِ بهداه، وتصديق أخباره، وتدبُّر معانيه، وتلاوة ألفاظه. فصار تلاوةُ لفظِهِ جزءَ المعنى وبعضَه، وإذا كان هٰذا معنى تلاوة الكتاب؛ عُلِمَ أنَّ إقامةَ الدين كُلِّه داخلةٌ في تلاوة الكتاب، فيكون قوله: ﴿وأقم الصلاة﴾: من باب عطف الخاصِّ على العامِّ؛ لفضل الصلاة وشرفها وآثارها الجميلة، وهي: ﴿إنَّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾: فالفحشاءُ كلُّ ما استُعْظِمَ واستُفْحِشَ من المعاصي التي تشتهيها النفوس، والمنكر كلُّ معصية تُنْكِرُها العقول والفطر.

ووجْهُ كونِ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر: أنَّ العبد المقيم لها المتمِّم لأركانها وشروطها وخشوعها يستنيرُ قلبُه ويتطهَّر فؤاده ويزدادُ إيمانُه وتقوى رغبتُه في الخير وتقلُّ أو تعدم رغبتُه في الشرِّ؛ فبالضرورة مداومتها، والمحافظةُ عليها على هٰذا الوجه تنهى عن الفحشاء والمنكر؛ فهٰذا من أعظم مقاصدِ الصلاةِ[1] وثمراتها.

(١) في (ب): «أعظم مقاصدها».

وثَمَّ في الصلاة مقصودٌ أعظمُ من هٰذا وأكبرُ، وهو ما اشتملتْ عليه من ذِكْرِ اللّه بالقلب واللسان والبدن؛ فإنَّ اللّه تعالى إنَّما خلق العباد[1] لعبادتِهِ، وأفضلُ عبادةٍ تقع منهم الصلاة، وفيها من عبوديَّات الجوارح كلِّها ما ليس في غيرها، ولهٰذا قال: ﴿ولَذِكْرُ اللّه أكبرُ﴾: ويُحْتَمَلُ أنَّه لـمَّا أمَرَ بالصلاة ومدحها؛ أخبر أنَّ ذِكْرَه تعالى خارجَ الصلاةِ أكبرُ من الصلاة؛ كما هو قولُ جمهور المفسِّرين، لٰكنَّ الأول أولى؛ لأنَّ الصلاة أفضلُ من الذِّكر خارجها، ولأنَّها ـ كما تقدَّم ـ بنفسِها من أكبر الذكر. ﴿واللّه يعلم ما تصنَعونَ﴾: من خيرٍ وشرٍّ، فيجازيكم على ذٰلك أكمل الجزاء وأوفاه.

﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿٤٦﴾ ينهى تعالى عن مجادلة أهل الكتاب إذا كانتْ عن غير بصيرةٍ من المجادِلِ أو بغير قاعدة مَرْضِيَّة، وأنْ لا يجادِلوا إلَّا بالتي هي أحسن؛ بحسن خُلُقٍ ولطفٍ ولينِ كلام ودعوةٍ إلى الحقِّ وتحسينه، وردٍّ عن الباطل وتهجينه بأقرب طريقٍ موصل لذٰلك، وأنْ لا يكون القصدُ منها مجرَّدَ المجادلةِ والمغالبةِ وحبِّ العلو، بل يكونُ القصدُ بيانَ الحقِّ وهداية الخلق، ﴿إلَّا﴾: مَنْ ظَلَمَ من أهل الكتاب؛ بأن ظَهَرَ من قصده وحاله أنه لا إرادةَ له في الحقِّ، وإنَّما يجادِلُ على وجه المشاغبة والمغالبة؛ فهٰذا لا فائدة في جداله؛ لأنَّ المقصود منها ضائع، ﴿وقولوا آمنَّا بالذي أُنزلَ إلَينا وأُنزلَ إليكم وإلٰهُنا وإلٰهُكم واحِدٌ﴾؛ أي: ولتكن مجادلتُكم لأهل الكتاب مبنيَّةً على الإيمان بما أنزل إليكم وأنزل إليهم، وعلى الإيمان برسولكم ورسولهم، وعلى أنَّ الإلٰه واحدٌ، ولا تكنْ مناظرتُكم إيَّاهم على وجهٍ يحصُلُ به القدحُ في شيءٍ من الكتب الإلٰهيَّة أو بأحد من الرسل كما يفعلُه الجهلةُ عند مناظرة الخصوم يقدحُ بجميع ما معهم من حقٍّ وباطلٍ؛ فهٰذا ظلمٌ وخروجٌ عن الواجب وآداب النظر؛ فإنَّ الواجب أن يُرَدَّ ما مع الخصم من الباطل، ويُقْبَلَ ما معه من الحقِّ، ولا يُرَدُّ الحقُّ لأجل قولِهِ، ولو كان كافراً.

وأيضاً؛ فإنَّ بناء مناظرة أهل الكتاب على هٰذا الطريق فيه إلزامٌ لهم بالإقرار بالقرآن وبالرسول الذي جاء به؛ فإنَّه إذا تكلَّم في الأصول الدينيَّة والتي اتَّفقت عليها

---

(١) في (ب): «الخلق».

الأنبياءُ والكُتُب وتقرَّرت عند المتناظرين وثبتت حقائقها عندهما وكانت الكتبُ السابقةُ والمرسَلون مع القرآن ومحمدٍ ﷺ قد بيَّنتها، ودلَّت عليها وأخبرت بها؛ فإنَّه يلزمُ التصديقُ بالكتب كلِّها والرسل كلِّهم، وهٰذا من خصائص الإسلام، فأمَّا أنْ يُقالَ: نؤمن بما دلَّ عليه الكتابُ الفلانيُّ دون الكتاب الفلانيِّ، وهو الحقُّ الذي صَدَّقَ ما قبله؛ فهٰذا ظلمٌ وهوى[1]، وهو يرجِع إلى قوله بالتكذيب؛ لأنَّه إذا كذَّب القرآن الدالَّ عليها المصدق لما بين يديه من التوراة؛ فإنَّه مكذِّب لما زعم أنه به مؤمن. وأيضاً؛ فإنَّ كلَّ طريقٍ تثبت بها نبوَّة أي نبيٍّ كان؛ فإنَّ مثلها وأعظم منها دالَّة على نبوَّة محمدٍ ﷺ، وكلُّ شبهة يُقدح بها في نبوَّة محمدٍ ﷺ؛ فإنَّ مثلَها أو[2] أعظم منها يمكن توجيهها إلى نبوَّة غيرِهِ؛ فإذا ثبت بطلانُها في غيرِهِ؛ فثبُوت بطلانِها في حقِّه ﷺ أظهرُ وأظهرُ. وقوله: ﴿ونحنُ له مسلمونَ﴾؛ أي: منقادون مستسلمون لأمرِهِ، ومَنْ آمنَ به واتَّخذه إلٰهاً وآمنَ بجميع كتبِهِ ورسلِهِ وانقاد للّه واتَّبع رسلَه؛ فهو السعيدُ، ومَنِ انحرفَ عن هٰذا الطريق؛ فهو الشقي.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿٤٧﴾ أي: ﴿وكذٰلك أنزلْنا إليك﴾: يا محمدُ، هٰذا ﴿الكتاب﴾ الكريم، المبيِّنَ كلَّ نبأ عظيم، الداعي إلى كلِّ خُلُق فاضل وأمرٍ كامل، المصدِّق للكتب السابقة، المخبر به الأنبياء الأقدمون، ﴿فالذين آتيناهم الكتابَ﴾: فعرفوه حقَّ معرفتِهِ ولم يداخِلْهم حسدٌ وهوى، ﴿يؤمنونَ به﴾: لأنَّهم تيقَّنوا صِدْقَه بما لديهم من الموافقات، وبما عندَهم من البِشارات، وبما تميَّزوا به من معرفة الحسن والقبيح والصدق والكذب. ﴿ومِن هٰؤلاء﴾: الموجودين ﴿مَن يؤمنُ به﴾: إيماناً عن بصيرةٍ لا عن رغبةٍ ولا رهبةٍ، ﴿وما يجحدُ بآياتنا إلَّا الكافرونَ﴾: الذين دأبهم الجحودُ للحقِّ والعنادُ له، وهٰذا حصرٌ لمن كفر به؛ أنَّه لا يكون من أحدٍ قصدُهُ متابعةُ الحقِّ، وإلَّا؛ فكلُّ مَنْ له قصدٌ صحيحٌ؛ فإنَّه لا بدَّ أن يؤمنَ به؛ لما اشتمل عليه من البيناتِ لكلِّ مَنْ له عقلٌ أو ألقى السمع وهو شهيدٌ. ومما يدلُّ على صحتِهِ أنَّه جاء به هٰذا النبيُّ الأمين، الذي عَرَفَ قومُه صدقَه وأمانتَه ومدخلَه ومخرجَه وسائرَ

---

(١) في (ب): «وجور».

(٢) في (ب): «و».

أحواله، وهو لا يكتبُ بيده خطًّا، بل ولا[1] يقرأ خطًّا مكتوباً، فإتيانه به في هٰذه الحال من أظهر البينات القاطعة التي لا تقبلُ الارتياب أنَّه من عند اللّه العزيز الحميد.

﴿٤٨﴾ ولهٰذا قال: ﴿وما كنتَ تتلو﴾؛ أي: تقرأ ﴿من قبلِهِ من كتاب ولا تَخُطُّه بيمينك إذاً﴾: لو كنت بهٰذه الحال ﴿لارتابَ المبطِلونَ﴾: فقالوا تَعَلَّمَهُ من الكتبِ السابقة أو استنسخه منها، فأمَّا وقد نزل على قلبك كتاباً جليلاً تحدَّيتَ به الفصحاءَ والبلغاءَ الأعداءَ الألدَّاءَ أنْ يأتوا بمثلِهِ أو بسورةٍ من مثله، فعَجَزوا غايةَ العجزِ، بل ولا حدَّثتهم أنفسهم بالمعارضة؛ لعلمهم ببلاغتِهِ وفصاحتِهِ، وأنَّ كلام أحدٍ من البشر لا يبلغ أن يكون مجارياً له أو على منواله، ولهٰذا قال:

﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿٤٩﴾ أي: بل هٰذا القرآن ﴿آياتٌ بيناتٌ﴾: لا خفيَّاتٌ ﴿في صدور الذين أوتوا العلم﴾: وهم سادةُ الخلق وعقلاؤُهم، وأولو الألباب منهم والكُمَّل منهم، فإذا كان آياتٍ بيناتٍ في صدور أمثال هٰؤلاء؛ كانوا حجَّة على غيرهم، وإنكارُ غيرهم لا يضرُّ، ولا يكون ذٰلك إلَّا ظلماً، ولهٰذا قال: ﴿وما يجحدُ بآياتنا إلا الظَّالمونَ﴾: لأنَّه لا يجحَدُها إلَّا جاهلٌ، تكلَّم بغير علم، ولم يقتدِ بأهل العلم، وهو متمكِّن من معرفته على حقيقته، وإمَّا متجاهلٌ عرف أنه حقٌّ فعانَدَه، وعرفَ صدقَه فخالَفه.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿٥٠﴾ أي: واعترض هٰؤلاء الظالمون المكذِّبون للرسول ولما جاء به، واقترحوا عليه نزول آياتٍ عيَّنوها؛ كقولهم: ﴿وقالوا لن نؤمنَ لك حتى تَفْجُرَ لنا من الأرضِ يَنبوعاً. . .﴾ الآيات، فتعيين الآياتِ ليس عندَهم ولا عندَ الرسول ﷺ؛ فإنَّ في ذٰلك تدبيراً مع اللّه، وأنَّه لو كان كذا، وينبغي أن يكون كذا، وليس لأحدٍ من الأمر شيءٌ، ولهٰذا قال: ﴿قل إنما[2] الآياتُ عند اللّه﴾: إنْ شاء أنْزَلَها أو منعها، ﴿وإنما

(١) في (ب): «خطًّا ولا».

(٢) في (ب): «ولهذا قال: إنما. .».

أنا نذيرٌ مبينٌ﴾: وليس لي مرتبة فوق هٰذه المرتبة. وإذا كان القصدُ بيانَ الحقِّ من الباطل؛ فإذا حصل المقصود بأيِّ طريق كان؛ كان اقتراحُ الآيات المعيَّنات على ذٰلك ظلماً وجوراً وتكبُّراً على الله وعلى الحق، بل لو قُدِّرَ أن تنزِلَ تلك الآياتُ ويكونَ في قلوبهم أنَّهم لا يؤمنون بالحقِّ إلَّا بها؛ كان ذٰلك ليس بإيمان، وإنما ذٰلك شيء وافقَ أهواءهم، فآمنوا لا لأنَّه حقٌّ، بل لتلك الآيات؛ فأيُّ فائدة حصلت في إنزالها على التقدير الفرضيِّ؟

﴿٥١﴾ ولما كان المقصودُ بيانَ الحقِّ؛ ذكر تعالى طريقَه، فقال: ﴿أوَلَم يكفِهِم﴾: في علمهم بصدقك وصدق ما جئتَ به، ﴿أنَّا أنزَلْنا عليك الكتابَ يُتلى عليهم﴾: وهٰذا كلامٌ مختصرٌ جامعٌ فيه من الآيات البينات والدلالات الباهرات شيءٌ كثير؛ فإنَّه كما تقدَّم إتيانُ الرسول به بمجرَّده وهو أميٌّ من أكبر الآيات على صدقه، ثم عجزهم عن معارضته وتحدِّيهم إيَّاه[1] آية أخرى، ثم ظهوره وبروزه جهراً علانيةً يُتلى عليهم، ويقالُ هو من عند الله، قد أظهره الرسول وهو في وقتٍ قلَّ فيه أنصارُه وكَثُرَ مخالفوه وأعداؤه؛ فلم يُخفِهِ، ولم يَثْنِ ذٰلك عزمه، بل صرَّح به على رؤوسِ الأشهاد، ونادى به بين الحاضر والباد؛ بأنَّ هٰذا كلامُ ربي؛ فهل أحدٌ يقدر على معارضته أو ينطِقُ بمباراته أو يستطيع مجاراته؟! ثم إخباره عن قصص الأولين وأنباء السالفين[2] والغيوب المتقدِّمة والمتأخِّرة، مع مطابقته للواقع.

ثم هيمنتُهُ على الكتب المتقدِّمة وتصحيحُهُ للصحيح، ونفيُ ما أُدْخِلَ فيها من التحريف والتبديل، ثم هدايته لسواء السبيل في أمره ونهيه؛ فما أمر بشيء فقال العقلُ: ليتَه لم يأمُرْ به، ولا نهى عن شيءٍ فقال العقلُ: ليته لم ينهَ عنه، بل هو مطابقٌ للعدل والميزان والحكمة المعقولة لذوي البصائر والعقول، ثم مسايرةُ إرشاداته وهدايته وأحكامه لكلِّ حال وكلِّ زمان بحيث لا تصلُح الأمورُ إلَّا به؛ فجميع ذٰلك يكفي مَنْ أراد تصديقَ الحقِّ، وعَمِلَ على طلب الحقِّ؛ فلا كفى اللَّهُ من لم يَكْفِهِ القرآن، ولا شَفى الله من لم يَشْفِهِ الفرقان، ومن اهتدى به واكتفى؛ فإنَّه رحمةٌ له وخيرٌ[3]؛ فلذٰلك قال: ﴿إنَّ في ذٰلك لرحمةً وذِكرى لقوم يؤمنونَ﴾: وذٰلك لما يُحَصِّلون فيه من العلم الكثير، والخير الغزير، وتزكية القلوب والأرواح،

---

(١) في (ب): «إيّاهم».

(٢) في (ب): «السابقين».

(٣) في (ب): «فإنه خير له».

وتطهير العقائد، وتكميل الأخلاق، والفتوحات الإلهٰية والأسرار الربانية.

﴿٥٢﴾ ﴿قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً﴾: فأنا قد استَشْهَدْتُه؛ فإنْ كنتُ كاذباً؛ أحلَّ بي ما به تعتبرون، وإنْ كان إنما يؤيِّدني، وينصرني، وييسِّر لي الأمور؛ فلتكفكمْ هٰذه الشهادةُ الجليلةُ من الله؛ فإنْ وقع في قلوبكم أنَّ شهادته ـ وأنتم لم تسمَعوه ولم تَرَوْه ـ لا تكفي دليلاً؛ فإنَّه ﴿يعلم ما في السمٰواتِ والأرضِ﴾: ومن جملةِ معلوماته حالي وحالُكم ومقالي لكم[1]؛ فلو كنت متقوِّلاً عليه مع علمِهِ بذٰلك وقدرتِهِ على عقوبتي؛ لكان قدحاً في علمه وقدرته وحكمته؛ كما قال تعالى: ﴿ولو تَقَوَّلَ عَلَينا بعضَ الأقاويل لأخَذْنا منه باليمينِ ثم لَقَطَعْنا منه الوتينَ﴾. ﴿والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولٰئك هم الخاسرونَ﴾: حيث خَسِروا الإيمان بالله وملائكتِهِ وكتبِهِ ورسلِهِ واليوم الآخر، وحيث فاتهم النعيمُ المقيمُ، وحيث حَصَلَ لهم في مقابلة الحقِّ الصحيح كلُّ باطل قبيح، وفي مقابلة النعيم كلُّ عذاب أليم، فخسروا أنفسَهم وأهليهم يوم القيامةِ.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿٥٣﴾ يخبر تعالى عن جهل المكذِّبين للرسول وما جاء به، وأنَّهم يقولون استعجالاً للعذاب وزيادةَ تكذيبٍ: ﴿متى هٰذا الوعدُ إنْ كُنتُم صادقينَ﴾؟ يقول تعالى: ﴿ولولا أجلٌ مسمًّى﴾: مضروبٌ لنزولِهِ ولم يأتِ بعدُ، ﴿لجاءهم العذابُ﴾: بسبب تعجيزِهم لنا وتكذيبِهم الحقَّ؛ فلو آخذناهم بجهلهم؛ لكان كلامُهم أسرعَ لبلائِهم وعقوبتِهِم، ولٰكن مع ذٰلك؛ فلا يستبطِئون[2] نزوله فإنه سيأتيهم ﴿بغتةً وهم لا يشعرونَ﴾ فوقع كما أخبر الله تعالى، لما قدموا لبدرٍ بَطِرينَ مفاخِرين ظانِّين أنَّهم قادرون على مقصودِهم، فأحانهم[3] الله، وقتل كبارهم، واستوعبَ جملةَ أشرارِهم، ولم يَبْقَ منهم بيتٌ إلَّا أصابتْه تلك المصيبة، فأتاهم العذابُ من حيث لم يحتَسِبوا، ونزل بهم وهم لا يشعرونَ.

---

(١) في (ب): «ومقالكم». (٢) في (ب): «فلا يستعجلون».

(٣) أي: أهلكهم.

﴿٥٤﴾ هٰذا؛ وإنْ لم ينزلْ عليهم العذابُ الدنيويُّ؛ فإنَّ أمامهم العذابَ الأخرويَّ الذي لا يَخْلُصُ منهم أحدٌ منه، سواءٌ عوجِلَ بعذاب الدنيا أو أُمْهِل، فَـ﴿إنَّ جهنَّم لمحيطةٌ بالكافرين﴾: ليس لهم عنه معدلٌ ولا متصرفٌ؛ قد أحاطتْ بهم من كلِّ جانب كما أحاطتْ بهم ذنوبُهم وسيئاتُهم وكفرُهم، وذٰلك العذابُ هو العذابُ الشديد.

﴿٥٥﴾ ﴿يومَ يغشاهُمُ العذابُ من فوقِهم ومن تحتِ أرجلهم ويقولُ ذوقوا ما كنتُم تعملون﴾: فإنَّ أعمالَكم انقلبتْ عليكم عذاباً، وشَمَلَكم العذابُ كما شَمَلَكم الكفرُ والذنوبُ.

﴿يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّـٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿٥٦ ـ ٥٩﴾ يقول تعالى: ﴿يا عبادي الذين آمنوا﴾: بي وصدَّقوا رسولي، ﴿إنَّ أرضي واسعةٌ فإيَّايَ فاعْبُدونِ﴾: فإذا تعذَّرَتْ عليكم عبادةُ ربِّكم في أرضٍ؛ فارْتَحِلوا منها إلى أرضٍ أخرى؛ حيث كانت العبادةُ للّه وحده؛ فأماكنُ العبادة ومواضِعُها واسعةٌ، والمعبودُ واحدٌ، والموتُ لا بدَّ أن ينزل بكم، ثم تُرْجَعون إلى ربكم، فيجازي مَنْ أحسنَ عبادته وَجَمَعَ بين الإيمان والعملِ الصالح بإنزاله الغرفَ العاليةَ والمنازلَ الأنيقةَ الجامعةَ، لما تشتهيه الأنفسُ، وتلذُّ الأعين، وأنتم فيها خالدون. فَنِعَمُ تلك المنازلِ في جنات النعيم أجرُ العاملين للّه. ﴿الذين صبروا﴾: على عبادة اللّه ﴿وعلى ربِّهم يتوكَّلون﴾: في ذٰلك، فصبرُهم على عبادة اللّه يقتضي بَذْلَ الجهد والطاقةِ في ذٰلك، والمحاربة العظيمة للشيطان، الذي يدعوهم إلى الإخلال بشيءٍ من ذٰلك. وتوكُّلهم يقتضي شدَّةَ اعتمادهم على اللّه، وحسنَ ظنِّهم به أن يحقِّقَ ما عزموا عليه من الأعمال ويكمِّلَها. ونصَّ على التوكُّل وإنْ كان داخلاً في الصبر؛ لأنَّه يُحتاج إليه في كل فعلٍ وتركِ مأمورٍ به، ولا يتمُّ إلَّا به.

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿٦٠﴾ أي: الباري تبارك وتعالى قد تكفَّل بأرزاق الخلائق كلِّهم قويِّهم وعاجزهم؛ فكم ﴿من دابَّةٍ﴾ في الأرض ضعيفةِ القُوى ضعيفة العقل، ﴿لا تَحمِلُ رزقَها﴾: ولا تدَّخِرُه، بل لم تزلْ لا شيءَ معها من الرزق، ولا يزال الله يسخِّرُ لها

الرزقَ في كل وقت بوقته. ﴿اللهُ يرزقُها وإيَّاكم﴾: فكلكم عيالُ الله القائم برزقكم كما قام بِخَلْقِكُم وتدبيرِكم. ﴿وهو السميعُ العليم﴾: فلا تخفى[1] عليه خافيةٌ، ولا تهلكُ دابَّةٌ من عدم الرزق بسبب أنها خافيةٌ عليه؛ كما قال تعالى: ﴿وما من دابَّةٍ في الأرض إلَّا على الله رزقُها ويعلم مستقرَّها ومستوْدَعَها كلٌّ في كتاب مبين﴾.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿٦١ ـ ٦٣﴾ هٰذا استدلالٌ على المشركين المكذِّبين بتوحيد الإلٰهية والعبادة، وإلزامٌ لهم بما أثبتوه من توحيد الرُّبوبية؛ فأنتَ لو ﴿سألْتَهم مَنْ خلق السمٰواتِ والأرضَ﴾؟ ومَنْ نزَّل من السماء ماءً فأحيا به الأرض بعد موتها؟ ومن بيدِهِ تدبير جميع الأشياء؟ ﴿ليقولنَّ: الله﴾ وحدَه، ولاعترفوا بعجز الأوثان ومَنْ عَبَدوه مع الله على شيء من ذٰلك! فاعْجَبْ لإفكهم وكذِبِهم وعُدولهم إلى مَنْ أقرُّوا بعجزه وأنه لا يستحقُّ أن يدبِّرَ شيئاً! وستجِلْ عليهم لعدم العقل، وأنَّهم السفهاء ضعفاء الأحلام! فهل تجد أضعف عقلاً وأقلَّ بصيرةً ممَّن أتى إلى حجر أو قبر ونحوه ـ وهو يدري أنَّه لا ينفعُ ولا يضرُّ ولا يخلقُ ولا يرزقُ ـ، ثم صرف له خالصَ الإخلاص وصافي العبوديَّة، وأشركه مع الربِّ الخالق الرازق النافع الضار؟! وقل: الحمدُ لله الذي بيَّن الهدى من الضلال، وأوضح بطلان ما عليه المشركون؛ ليحذره الموفَّقون. وقل: الحمدُ لله الذي خَلَقَ العالَمَ العلويَّ والسفليَّ، وقام بتدبيرهم ورزقِهِم، وبسطَ الرزقَ على مَنْ يشاء، وضيَّقه على من يشاء حكمةً منه، ولعلمه بما يُصْلِحُ عباده، وما ينبغي لهم.

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ

(١) في (ب): «تخفى».

افْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

﴿٦٤﴾ يخبر تعالى عن حالة الدُّنيا والآخرة، وفي ضمن ذٰلك التزهيد في الدنيا والتشويق للأخرى، فقال: ﴿وما هٰذه الحياةُ الدُّنيا﴾: في الحقيقة ﴿إلَّا لهوٌ ولعبٌ﴾: تلهو بها القلوبُ، وتلعبُ بها الأبدانُ؛ بسبب ما جعلَ الله فيها من الزينة واللذَّات والشهواتِ الخالبة للقلوب المعرضة، الباهجة للعيون الغافلة، المفرحة للنفوس المبطِلة الباطلة، ثم تزول سريعاً وتنقضي جميعاً ولم يحصل منها محبُّها إلَّا على الندم والحسرة والخسران. وأما الدارُ الآخرةُ؛ فإنها دار ﴿الحيوان﴾؛ أي: الحياة الكاملة، التي من لوازمها أن تكونَ أبدانُ أهلها في غاية القوَّة، وقواهم في غاية الشدَّة؛ لأنَّها أبدانٌ وقوى خُلِقَتْ للحياة، وأن يكون موجوداً فيها كلُّ ما تَكْمُلُ به الحياة، وتتمُّ به اللذَّة من مفرحات القلوب وشهوات الأبدان من المآكل والمشارب والمناكح وغير ذٰلك، ممَّا لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ ولا خطر على قلب بشر.

﴿لو كانوا يعلمون﴾: لما آثروا الدُّنيا على الآخرة، ولو كانوا يعقِلونَ؛ لما رغبوا عن دار الحيوان، ورغبوا في دار اللهو واللعب. فدلَّ ذٰلك: أنَّ[١] الذين يعلمون لا بدَّ أن يؤثِروا الآخرة على الدُّنيا؛ لما يعلمونه من حالة الدارين.

﴿٦٥ ـ ٦٦﴾ ثم ألزم تعالى المشركين بإخلاصهم للّه في حال[٢] الشدَّة عند ركوب البحر وتلاطُم أمواجه وخوفِهِم الهلاك؛ يتركون إذاً أندادَهم، ويخلِصون الدُّعاء للّه وحدَه لا شريك له، فلمَّا زالتْ عنهم الشدةُ ـ ونجَّاهم من أخلصوا له الدُّعاء إلى البرِّ ـ أشركوا به مَنْ لا نجَّاهم من شدَّة، ولا أزال[٣] عنهم مشقَّة؛ فهلاَّ أخلصوا للّه الدعاءَ في حال الرخاء والشدة واليُسر والعُسر؛ ليكونوا مؤمنين به حقًّا، مستحقِّين ثوابه، مندفعاً عنهم عقابه، ولكن شركهم هٰذا بعد نعمتنا عليهم بالنجاة من البحر ليكونَ عاقبتُهُ كفر ما آتيناهم، ومقابلة النعمة بالإساءة، وليكملوا تمتُّعهم في الدُّنيا، الذي هو كتمتُّع الأنعام، ليس لهم همٌّ إلا بطونُهم وفروجُهم. ﴿فسوف يعلمونَ﴾: حين ينتقِلون من الدُّنيا إلى الآخرة شدَّة الأسف وأليم العقوبة.

---

(١) في (ب): «على أن».

(٢) في (ب): «حالة».

(٣) في (ب): «زال».

﴿٦٧﴾ ثم امتنَّ عليهم بحرمه الآمن، وأنَّهم أهلُه في أمنٍ وسعةٍ ورزقٍ، والناس من حولهم يُتَخَطَّفونَ ويخافون، أفلا يعبدونَ الذي أطعمهم من جوعٍ وآمَنَهم من خوفٍ؟! ﴿أفبالباطل يؤمنونَ﴾: وهو ما هم عليه من الشركِ والأقوالِ والأفعالِ الباطلةِ، ﴿وبنعمةِ اللّه﴾: هم ﴿يكفرونَ﴾؟ فأينَ ذهبتْ عقولهم، وانسلختْ أحلامُهم حيث آثروا الضلال على الهدى، والباطلَ على الحقِّ والشَّقاء على السعادة، وحيث كانوا أظلمَ الخلق؟!

﴿٦٨﴾ فمن ﴿أظلم ممَّن افترى على اللّه كذباً﴾: فنسب ما هو عليه من الضَّلال والباطل إلى اللّه، ﴿وكذَّب بالحقِّ لما جاءه﴾: على يد رسولِهِ محمدٍ ﷺ، ولٰكنَّ هٰذا الظالمَ العنيدَ أمامه جهنَّم، ﴿أليس في جهنَّم مثوىً للكافرينَ﴾: يُؤخَذُ بها منهم الحقُّ، ويُخْزَوْن بها، وتكون منزلهم الدائم الذي[1] لا يخرجون منه؟

﴿٦٩﴾ ﴿والذين جاهدوا فينا﴾: وهم الذين هاجروا في سبيل الله وجاهدوا أعداءَهم وبَذَلوا مجهودَهم في اتِّباع مرضاتِهِ؛ ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا﴾؛ أي: الطرق الموصلة إلينا، وذٰلك لأنَّهم محسنونَ. واللّه مع المحسنينَ: بالعون والنصر والهداية.

دلَّ هٰذا على أنَّ أحرى الناس بموافقة الصواب أهلُ الجهاد، وعلى أنَّ مَنْ أحسنَ فيما أُمِرَ به؛ أعانه اللّه ويَسَّرَ له أسبابَ الهداية، وعلى أنَّ مَنْ جدَّ واجتهد في طلب العلم الشرعيِّ؛ فإنَّه يحصُلُ له من الهداية والمعونة على تحصيل مطلوبِهِ أمورٌ إلٰهيَّةٌ خارجةٌ عن مدرك اجتهادِهِ، وتيسَّر له أمر العلم؛ فإنَّ طلب العلم الشرعيِّ من الجهاد في سبيل اللّه، بل هو أحدُ نوعي الجهاد، الذي لا يقومُ به إلا خواصُّ الخلق، وهو الجهادُ بالقول واللسان للكفار والمنافقين، والجهادُ على تعليم أمور الدين وعلى ردِّ نزاع المخالفين للحقِّ، ولو كانوا من المسلمين.

تم تفسير سورة العنكبوت ـ بحمد اللّه وعونه.

❁ ❁ ❁

(١) في (ب): «الذين».

تفسير سورة الروم

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعْدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾.

﴿١ ـ ٥﴾ كانت الفرس والروم في ذٰلك الوقت من أقوى دول الأرض، وكان يكون بينهما من الحروب والقتال ما يكون بين الدول المتوازنة، وكانتِ الفرسُ مشركينَ يعبُدون النار، وكانت الرومُ أهلَ كتابٍ ينتسبون إلى التوراة والإنجيل، وهم أقربُ إلى المسلمين من الفرس، [فكان المؤمنون][1] يحبُّون غَلَبَتهم وظهورَهم على الفرس، وكان المشركون لاشتراكِهِم والفرسُ في الشرك يحبُّون ظهورَ الفرس على الروم، فظهر الفرسُ على الروم وغلبوهم[2] غُلباً لم يُحِطْ بِمُلْكِهِم بل بأدنى أرضهم، ففرح بذٰلك مشركو مكة وحزن المسلمون، فأخبرهم الله، ووعدَهم أنَّ الروم ستغلب الفرس ﴿في بِضْعِ سنينَ﴾: تسع أو ثمان ونحو ذٰلك مما لا يزيدُ على العشر ولا ينقُصُ عن الثلاث، وأنَّ غلبةَ الفرس للرومِ ثم غلبةَ الروم للفرس كلُّ ذٰلك بمشيئتِهِ وقَدَرِهِ، ولهٰذا قال: ﴿للّه الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ﴾: فليس الغلبةُ والنصر لمجرَّد وجود الأسباب، وإنَّما هي لا بدَّ أن يقترن بها القضاء والقدر.

﴿ويومئذٍ﴾؛ أي: يوم يغلب الرومُ الفرس ويقهرونهم، ﴿يفرحُ المؤمنون. بنصر اللّه ينصُرُ مَنْ يشاءُ﴾؛ أي: يفرحون بانتصارهم على الفرس، وإنْ كان الجميع كفاراً، ولٰكنَّ بعضُ الشرِّ أهونُ من بعض، ويحزنُ يومئذٍ المشركون. ﴿وهو العزيزُ﴾: الذي له العزَّةُ التي قهر بها الخلائق أجمعين، يؤتي المُلْكَ مَنْ يشاء، وينزِعُ الملك ممَّن يشاء، ويعزُّ من يشاء ويذلُّ من يشاء. ﴿الرحيمُ﴾: بعباده المؤمنين؛ حيث قيَّضَ لهم من الأسباب التي تسعِدُهم وتنصُرُهم ما لا يدخُل في الحساب.

---

(١) في (أ): «فكانوا».

(٢) في (ب): «فغلبوهم».

﴿٦﴾ ﴿وعدَ اللهِ لا يُخلِفُ الله وعدَه﴾: فتيقَّنوا ذٰلك، واجْزِمُوا به، واعْلَمُوا أنَّه لا بدَّ من وقوعه. فلمَّا نزلت هٰذه الآيات التي فيها هٰذا الوعدُ؛ صدَّق بها المسلمون، وكفر بها المشركون، حتى تراهن بعضُ المسلمين وبعضُ المشركين على مدَّة سنين عيَّنوها، فلما جاء الأجل الذي ضربه الله. انتصر الروم على الفرس، وأجْلَوْهم من بلادهم التي أخذوها منهم، وتحقَّق وعد الله. وهٰذا من الأمور الغيبيَّة التي أخبر بها الله قبل وقوعها ووجدت في زمان مَنْ أخبرهم الله بها من المسلمين والمشركين. ﴿ولٰكنَّ أكثر الناس لا يعلمونَ﴾: أنَّ ما وَعَدَ اللهُ به حقٌّ؛ فلذٰلك يوجد فريقٌ منهم يكذِّبون بوعده، ويكذِّبون آياته.

﴿٧﴾ وهٰؤلاء الذين لا يعلمون؛ أي: لا يعلمون بواطن الأشياء وعواقِبَها، وإنَّما ﴿يعلمونَ ظاهراً من الحياة الدُّنيا﴾: فينظرون إلى الأسباب، ويجزمون بوقوع الأمر الذي في رأيهم انعقدتْ أسباب وجودِهِ، ويتيقَّنون عدم الأمر الذي لم يشاهِدوا له من الأسباب المقتضية لوجودِهِ شيئاً؛ فهم واقفون مع الأسباب، غيرُ ناظرين إلى مسبِّبها المتصرف فيها. ﴿وهم عن الآخرةِ هم غافلونَ﴾: قد توجَّهت قلوبُهم وأهواؤهم وإراداتهم إلى الدنيا وشهواتِها وحطامِها؛ فعملتْ لها وسعتْ وأقبلتْ بها وأدبرتْ، وغفلت عن الآخرة؛ فلا الجنة تشتاقُ إليها، ولا النار تخافها وتخشاها، ولا المقام بين يدي الله ولقائه يروِّعُها ويزعِجُها، وهٰذا علامة الشقاء، وعنوانه الغفلة عن الآخرة.

ومن العجبِ أنَّ هٰذا القسم من الناس قد بلغتْ بكثيرٍ منهم الفطنةُ والذكاءُ في ظاهر الدُّنيا إلى أمرٍ يحيِّر العقول ويدهش الألباب، وأظهروا من العجائِب الذَّرِّيَّةِ(١) والكهربائيةِ والمراكب البريَّة والبحريَّة والهوائيَّة ما فاقوا به، وبرَّزوا وأعجبوا بعقولهم، ورأوا غيرهم عاجزاً عما أقدرهم اللهُ عليه، فنظروا إليهم بعين الاحتقار والازدراء، وهم مع ذٰلك أبلد الناس في أمرِ دينهم، وأشدُّهم غفلةً عن آخرتهم، وأقلُّهم معرفة بالعواقب. قد رآهم أهل البصائرِ النافذةِ في جهلهم يتخبَّطون، وفي ضلالهم يَعْمَهون، وفي باطِلِهم يتردَّدون، نسوا الله فأنساهم أنفسهم، أولٰئك هم الفاسقون، ثم نظروا إلى ما أعطاهم الله وأقدرهم عليه من الأفكار الدقيقة في الدنيا وظاهرها، وحرموا من العقل العالي، فعرفوا أنَّ الأمر لله والحكم له في عبادِهِ، إنْ هو إلا توفيقُه أو(٢) خذلانُه، فخافوا ربهم وسألوه أن يتمَّ لهم ما وهبهم من نور العقول والإيمان حتى يصلوا إليه ويحلُّوا بساحته. وهٰذه الأمور لو قارنها الإيمان

(١) في (ب): «النارية». (٢) في (ب): «و».

وبُنِيَتْ عليه؛ لأثمرت الرقيَّ العالي والحياة الطيبة، ولٰكنها لما بُني كثيرٌ منها على الإلحاد؛ لم تثمر إلا هبوط الأخلاق وأسباب الفناء والتدمير.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ۝٨ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٩ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ۝١٠﴾.

﴿٨﴾ أي: أفلم يتفكَّر هٰؤلاء المكذِّبون لرسل اللّه ولقائه ﴿في أنفسهم﴾؛ فإنَّ في أنفسهم آيات يَعْرِفُون[1] بها أن الذي أوجدهم من العدم سيعيدُهم بعد ذٰلك، وأن الذي نقلهم أطواراً من نطفةٍ إلى علقةٍ إلى مضغةٍ إلى آدميٍّ قد نفخ فيه الروح إلى طفل إلى شاب إلى شيخ إلى هرم غيرُ لائقٍ أن يتركَهم سدى مهملين. لا يُنهون، ولا يُؤمرون، ولا يثابون، ولا يعاقبون. ﴿ما خلق اللّهُ السمٰواتِ والأرضَ وما بينهما إلَّا بالحق﴾؛ أي: ليبلوكم أيكم أحسن عملاً، ﴿وأجلٍ مسمًّى﴾؛ أي: مؤقَّت بقاؤهما إلى أجل تنقضي به الدنيا وتجيء القيامة، وتبدَّل الأرض غير الأرض والسماوات. ﴿وإنَّ كثيراً من الناس بلقاءِ ربِّهم لكافرونَ﴾: فلذٰلك لم يستعدُّوا للقائه، ولم يصدِّقوا رسلَه التي أخبرت به.

﴿٩﴾ وهٰذا الكفر عن غير دليل، بل الأدلَّة القاطعة دلَّت على البعث والجزاء، ولهٰذا نبَّههم على السير في الأرض والنظر في عاقبة الذين كذَّبوا رسلَهم وخالفوا أمرهم ممَّن هم أشدُّ من هٰؤلاء قوَّة وأكثر آثاراً في الأرض من بناء قصورٍ ومصانع ومن غرس أشجارٍ ومن زرع وإجراء أنهارٍ، فلم تُغْنِ عنهم قوَّتُهم، ولا نفعتْهم آثارُهم حين كذَّبوا رسلَهم الذين جاؤوهم بالبينات الدالات على الحقِّ وصحة ما جاؤوهم به؛ فإنَّهم حين ينظُرون في آثار أولٰئك؛ لم يجِدوا إلَّا أمماً بائدةً، وخلقاً مهلَكين، ومنازل بعدهم موحشة. وذمٌّ من الخلق عليهم متتابعٌ، وهٰذا جزاءٌ معجَّل نموذج للجزاء الأخروي ومبتدأ له؛ وكلُّ هٰذه الأمم المهلَكة لم يظلِمْهُمُ اللّه بذٰلك الإهلاك، وإنما ظلموا أنفسهم وتسبَّبوا في هلاكها.

---

(١) في (ب): «يعرف».

﴿١٠﴾ ﴿ثم كان عاقبةُ الذين أساؤوا﴾؛ أي: المسيئين ﴿السوأى﴾؛ أي: الحالة السيئة الشنيعة، وصار ذٰلك داعياً لهم لأن ﴿كذَّبوا بآيات اللّه وكانوا بها يستهزئون﴾: فهٰذا عقوبةٌ لسوئهم وذنوبهم، ثم ذٰلك الاستهزاء والتكذيب يكونُ سبباً لأعظم العقوبات وأعضل المثلات.

﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿١١ ـ ١٣﴾ يخبر تعالى أنَّه المتفرِّدُ بإبداء المخلوقات، ثم يعيدُهم. ثم إليه يُرجعون بعد إعادتهم ليجازيهم بأعمالهم. ولهٰذا ذكر جزاء أهل الشرِّ ثم جزاء أهل الخير، فقال: ﴿ويوم تقومُ الساعةُ﴾: ويقوم الناس لربِّ العالمين، [ويرون][(١)] القيامة عياناً، يومئذٍ ﴿يُبْلِسُ المجرمون﴾؛ أي: ييأسون من كلِّ خير، وذٰلك أنهم ما قدَّموا لذٰلك اليوم إلَّا الإجرام، وهي الذنوب من كفرٍ وشركٍ ومعاصٍ، فلما قدَّموا أسباب العقاب، ولم يخلِطوها بشيءٍ من أسباب الثواب؛ أيسوا، وأبلسوا، وأفلسوا، وضلَّ عنهم ما كانوا يفترونه من نفع شركائهم وأنهم يشفعون لهم، ولهٰذا قال: ﴿ولم يكن لهم من شركائِهم﴾: التي عَبَدوها مع اللّه ﴿شفعاءُ وكانوا بشركائِهم كافرينَ﴾: تبرَّأ المشركون ممَّن أشركوهم مع اللّه، وتبرَّأ المعبودون وقالوا: تبرَّأنا إليك، ما كانوا إيَّانا يعبدونَ، والتعنوا وابتعدوا.

﴿١٤ ـ ١٦﴾ وفي ذٰلك اليوم يفترق أهل الخير والشرِّ كما افترقتْ أعمالهم في الدنيا. ﴿فأمَّا الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ﴾: آمنوا بقلوبِهِم وصدَّقوا ذٰلك بالأعمال الصالحة ﴿فهم في روضةٍ﴾: فيها سائرُ أنواع النبات وأصنافِ المشتَهَياتِ ﴿يُحْبَرونَ﴾؛ أي: يُسَرُّون، وينعَّمون بالمآكل اللذيذة والأشربة والحور الحسان والخدم والوِلْدان والأصوات المطربات والسماع المشجي والمناظر العجيبة والروائح الطيبة والفرح والسرور واللَّذَّة والحبور، مما لا يقدِرُ أحدٌ أن يصفه. ﴿وأما الذين كفروا﴾: وجَحَدوا نعمه، وقابلوها بالكفر، ﴿وكذَّبوا بآياتنا﴾: التي جاءتهم بها

---

(١) في (أ): «ويردون».

رسُلنا ﴿فأولٰئكَ في العذاب مُحْضَرونَ﴾: فيه، قد أحاطتْ بهم جهنَّم من جميع جهاتهم، واطَّلع العذابُ الأليمُ على أفئدتهم، وشوى الحميمُ وجوهَهم، وقطَّع أمعاءَهم؛ فأين الفرق بين الفريقين؟! وأين التساوي بين المنعمين والمعذبين؟!

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿١٧ ـ ١٨﴾ هٰذا إخبارٌ عن تنزُّهه عن السوء والنقص وتقدُّسه عن أن يماثِلَه أحدٌ من الخلق، وأمرٌ للعباد أن يسبِّحوه حين يُمسون، وحين يُصبحون، ووقت العشي ووقت الظهيرة؛ فهٰذه الأوقات الخمسةُ أوقاتُ الصلوات الخمس، أمر اللّه عبادَه بالتسبيح فيها والحمدِ، ويدخُلُ في ذٰلك الواجب منه؛ كالمشتملة عليه الصلوات الخمس، والمستحبُّ؛ كأذكار الصباح والمساء وأدبار الصلوات وما يقترنُ بها من النوافل؛ لأنَّ هٰذه الأوقات التي اختارها اللّه لأوقات المفروضات هي أفضلُ الأوقات؛ فالتسبيحُ والتحميدُ فيها والعبادة فيها أفضلُ من غيرها، بل العبادةُ وإنْ لم تشتملْ على قول: سبحان اللّه؛ فإنَّ الإخلاص فيها تنزيهٌ للّه بالفعل أنْ يكون له شريكٌ في العبادة، أو أن يستحقَّ أحدٌ من الخلق ما يستحقُّه من الإخلاص والإنابة.

﴿١٩﴾ ﴿يُخرِجُ الحيَّ من الميِّتِ﴾: كما يُخرج النباتَ من الأرض الميتة، والسنبلة من الحبة، والشجرة من النواة، والفرخ من البيضة، والمؤمن من الكافر... ونحو ذٰلك. ﴿ويخرِجُ الميِّتَ من الحيِّ﴾: بعكس المذكور، ﴿ويُحيي الأرضَ بعدَ موتِها﴾: فينزل عليها المطر وهي ميتة هامدةٌ؛ فإذا أنزل عليها الماء؛ اهتزَّتْ، وربَتْ، وأنبتَتْ من كلِّ زوج بهيج. ﴿وكذٰلك تُخرَجونَ﴾: من قبورِكم.

فهٰذا دليلٌ قاطعٌ وبرهانٌ ساطعٌ أنَّ الذي أحيا الأرض بعد موتها فإنه يحيي الأموات؛ فلا فرقَ في نظر العقل بين الأمرين، ولا موجب لاستبعاد أحدهما مع مشاهدة الآخر.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿٢٠﴾ هٰذا شروعٌ في تعداد آياتِهِ الدَّالَّة على انفراده بالإلٰهيَّة وكمال عظمته ونفوذ مشيئتِهِ وقوَّة اقتدارِهِ وجميل صنعِهِ وسعة رحمتِهِ وإحسانه، فقال: ﴿ومن آياتِهِ أنْ خَلَقَكُم من ترابٍ﴾: وذٰلك بخلق أصل النسل آدم عليه السلام، ﴿ثم إذا أنتُم بشرٌ تنتَشِرون﴾؛ [أي: الذي خلقكم من أصلٍ وَاحدٍ وَمَادَّةٍ وَاحدةٍ]، وبثَّكم في أقطار الأرض وأرجائها.

ففي ذٰلك آيات على أنَّ الذي أنشأكم من هٰذا الأصل، وبثَّكم في أقطار الأرض هو الربُّ المعبود الملكُ المحمود والرحيمُ الودود، الذي سيعيدُكم بالبعث بعد الموت.

﴿٢١﴾ ﴿ومن آياتِهِ﴾: الدالَّة على رحمتِهِ وعنايتِهِ بعباده وحكمتِهِ العظيمة وعلمِهِ المحيط، ﴿أنْ خَلَقَ لكم من أنفسِكم أزواجاً﴾: تناسِبُكم، وتناسبونهنَّ، وتشاكِلُكم، وتشاكلونهن؛ ﴿لِتَسْكُنوا إليها وجعل بينكم مودَّةً ورحمةً﴾: بما رتَّب على الزواج من الأسباب الجالبة للمودَّة والرحمة، فحصل بالزوجة الاستمتاع واللَّذَّة والمنفعةُ بوجود الأولاد وتربيتهم والسكون إليها؛ فلا تجد بين أحد في الغالب مثل ما بين الزوجين من المودَّة والرحمة. ﴿إنَّ في ذٰلك لآياتٍ لقومٍ يتفكَّرونَ﴾: يُعْمِلون أفكارَهم، ويتدبَّرون آياتِ الله، وينتَقِلون من شيء إلى شيء.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿٢٢﴾ والعالمون: هم أهلُ العلم الذين يفهمون العِبَرَ ويتدبَّرون الآيات، والآياتُ في ذٰلك كثيرة: فمن آياتِ خَلْقِ ﴿السمٰواتِ والأرضِ﴾: وما فيهما؛ أنَّ ذٰلك دالٌّ على عظمة سلطان الله وكمال اقتدارِهِ، الذي أوجد هٰذه المخلوقات العظيمة، وكمال حكمتِهِ؛ لما فيها من الإتقان، وسعة علمه؛ لأنَّ الخالق لا بدَّ أن يعلم ما خلقه؛ ﴿ألا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾، وعموم رحمته وفضله؛ لما في ذٰلك من المنافع الجليلة، وأنه المريد الذي يختارُ ما يشاءُ؛ لما فيها من التخصيصات والمزايا، وأنَّه وحده الذي يستحقُّ أن يُعبد ويوحَّد؛ لأنه المنفرد بالخلق؛ فيجب أن يُفْرَدَ بالعبادة.

فكل هٰذه أدلَّة عقليَّة نبَّه الله العقول إليها، وأمرها بالتفكُّر واستخراج العبرة منها، ﴿و﴾ كذٰلك في ﴿اختلاف ألسنتكم وألوانكم﴾: على كَثْرَتِكُم وتبايُنِكُم مع أنَّ

الأصل واحدٌ ومخارج الحروف واحدةٌ، ومع ذٰلك؛ لا تجدُ صوتين متَّفقين من كل وجه، ولا لونين متشابهين من كلِّ وجه؛ إلَّا وتجد من الفرق بين ذٰلك ما به يحصُلُ التمييز.

وهٰذا دالٌّ على كمال قدرتِهِ ونفوذِ مشيئتِهِ وعنايته بعبادِهِ ورحمتِهِ بهم، أنْ قدَّرَ ذٰلك الاختلاف؛ لئلاً يقع التشابه، فيحصل الاضطراب، ويفوت كثير من المقاصد والمطالب.

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿٢٣﴾ أي: سماع تدبُّر وتعقُّل للمعاني والآيات في ذٰلك؛ إنَّ ذٰلك دليلٌ على رحمة اللّه تعالى؛ كما قال: ﴿ومن رحمتِهِ جَعَلَ لكم الليلَ والنهارَ لِتَسْكُنوا فيه ولِتَبْتَغوا من فضلِهِ ولعلَّكم تشكرونَ﴾، وعلى تمام حكمتِهِ؛ إذْ حكمتُه اقتضتْ سكون الخلق في وقت ليستريحوا [به] ويجموا، وانتشارهم في وقت لمصالحهم الدينيَّة والدنيويَّة، ولا يتمُّ ذٰلك إلا بتعاقُب الليل والنهار عليهم، والمنفردُ بذٰلك هو المستحق للعبادة.

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿٢٤﴾ أي: ومن آياتِهِ أن يُنَزِّلَ عليكم المطر الذي تحيا به البلادُ والعباد، ويريكم قبلَ نزوله مقدِّماتِهِ من الرعد والبرق الذي يُخاف ويُطمع فيه. ﴿إنَّ في ذٰلك لآياتٍ﴾: دالَّة على عموم إحسانِهِ وسَعةِ علمِهِ وكمال إتْقانِهِ وعظيم حكمتِهِ، وأنَّه يُحيي الموتى، كما أحيا الأرض بعد موتها، ﴿لقوم يعقلونَ﴾؛ أي: لهم عقولٌ تعقِلُ بها ما تسمعُه وتراه وتحفظُه، وتستدلُّ به على ما جعل دليلاً عليه.

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿٢٥﴾ أي: ومن آياته العظيمة أنْ قامت السماواتُ والأرضُ واستقرَّتا وثبتتا لأمرِهِ، فلم يتزلزلا، ولم تسقطِ السماءُ على الأرض؛ فقدرتُه العظيمةُ التي بها

أمسك السماواتِ والأرضَ أن تزولا؛ يقدِرُ بها على أنَّه إذا دعا الخلق دعوةً من الأرض؛ إذا هم يَخْرُجونَ. ﴿لَخَلْقُ السمٰواتِ والأرض أكبرُ من خَلْق الناس﴾.

﴿٢٦﴾ ﴿وله مَن في السمٰواتِ والأرض﴾: الكلُّ خلقُه ومماليكه والمتصرِّف فيهم من غير منازعٍ ولا معاونٍ ولا معارضٍ، وكلُّهم قانتون لجلالِهِ، خاضعون لكماله.

﴿٢٧﴾ ﴿وهو الذي يبدأ الخَلْقَ ثم يعيدُه وهو﴾؛ أي: إعادةُ الخلق بعد موتهم، ﴿أهونُ عليه﴾: من ابتداء خَلْقِهم، وهٰذا بالنسبة إلى الأذهان والعقول؛ فإذا كان قادراً على الابتداء الذي تقرُّون به؛ كان قدرتُه على الإعادة التي هي أهون أولى وأولى.

ولمَّا ذكر من الآيات العظيمةِ ما به يعتبر المعتبرونَ، ويتذكَّر المؤمنون، ويستبصِرُ المهتدون؛ ذكر الأمر العظيمِ والمطلب الكبير، فقال: ﴿وله المَثَلُ الأعلى في السمٰواتِ والأرضِ﴾: وهو كلُّ صفةِ كمال، والكمال من تلك الصفة، والمحبة والإنابة التامة الكاملة في قلوب عباده المخلصين والذكر الجليل والعبادة منهم؛ فالمَثَلُ الأعلى هو وصفُه الأعلى وما ترتَّب عليه، ولهٰذا كان أهلُ العلم يستعمِلون في حقِّ الباري قياس الأولى، فيقولون: كلُّ صفة كمال في المخلوقاتِ؛ فخالِقُها أحق بالاتِّصاف بها على وجه لا يشارِكُه فيها أحدٌ، وكلُّ نقص في المخلوق[1] يُنَزَّهُ عنه؛ فتنزيهُ الخالق عنه من باب أولى وأحرى. ﴿وهو العزيزُ الحكيمُ﴾؛ أي: له العزَّة الكاملة والحكمة الواسعة، فعزَّتُه أوجدَ بها المخلوقاتِ وأظهرَ المأموراتِ، وحكمتُه أتقنَ بها ما صَنَعَه وأحسنَ فيها ما شَرَعَه.

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿٢٨﴾ هٰذا مثلٌ ضربَه الله لِقُبح الشرك وتهجينه، مثلاً من أنفسكم لا يحتاجُ إلى حلٍّ وترحال وإعمال الجِمال. ﴿هل لكم ممَّا ملكتْ أيمانُكم من شُركاء فيما رَزَقْناكم﴾؛ أي: هل أحدٌ من عبيدكم وإمائِكم الأرقاءِ يشارِكُكم في رزقكم، وتَرَوْنَ

(١) في (ب): «المخلوقات».

أنَّكم وهم فيه على حدٍّ سواء. ﴿تخافونَهم كخيفَتِكم أنفسَكُم﴾؛ أي: كالأحرار الشركاء في الحقيقة، الذين[1] يُخاف من قسمه واختصاص كل شيء بحاله؟! ليس الأمر كذٰلك؛ فإنَّه ليس أحدٌ مما ملكت أيمانُكم شريكاً لكم فيما رَزَقَكم الله تعالى، هٰذا؛ ولستُم الذين خَلَقْتُموهم ورزَقْتُموهم، وهم أيضاً مماليكُ مثلُكم؛ فكيف تَرْضَوْنَ أن تجعلوا لله شريكاً من خلقه، وتجعلونَه بمنزلتِهِ وعديلاً له في العبادة، وأنتم لا تَرْضَوْنَ مساواة مماليككم لكم؟! هٰذا من أعجب الأشياء، ومن أدلِّ شيءٍ على سَفَهِ من اتَّخذ شريكاً مع الله، وأنَّ ما اتَّخذه باطل مضمحلٌّ، ليس مساوياً لله ولا له من العبادة شيء. ﴿كذٰلك نفصِّلُ الآيات﴾: بتوضيحها بأمثلتها ﴿لقوم يَعْقِلونَ﴾: الحقائقَ ويعرِفون. وأمَّا مَنْ لا يعقِلُ؛ فلو فُصلت له الآياتُ وبينتْ له البيِّناتُ؛ لم يكن له عقلٌ يبصِرُ به ما تبيَّن، ولا لبٌّ يعقِل به ما توضَّح؛ فأهلُ العقول والألباب هم الذين يُساق إليهم الكلام، ويوجَّه الخطاب.

﴿٢٩﴾ وإذا عُلِمَ من هٰذا المثال أنَّ من اتَّخذ من دون الله شريكاً يعبُدُه ويتوكَّل عليه في أموره؛ فإنه ليس معه من الحقِّ شيءٌ؛ فما الذي أوجبَ لهم الإقدامَ على أمرٍ باطل توضَّح بطلانُه وظهر برهانُه؟ أوجب لهم ذٰلك اتِّباع الهوى، فلهٰذا قال: ﴿بل اتَّبعَ الذين ظَلَموا أهواءَهم بغيرِ علم﴾: هويت أنفسُهم الناقصةُ التي ظهر من نقصها[2] ما تعلَّق به هواها أمراً يجزِمُ العقل بفسادِهِ والفِطَرُ بردِّه بغير علم دلَّهم عليه ولا برهان قادَهُم إليه، ﴿فمن يهدي مَن أضلَّ الله﴾؛ أي: لا تعجبوا من عدم هدايتهم؛ فإنَّ الله تعالى أضلَّهم بظلمهم، ولا طريقَ لهداية من أضلَّ الله؛ لأنَّه ليس أحدٌ معارضاً لله أو منازعاً له في ملكه، ﴿ومالهم من ناصِرينَ﴾: ينصُرونَهم حين تحقُّ عليهم كلمةُ العذاب، وتنقطِعُ بهم الوصل والأسباب.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿٣٠﴾ يأمرُ تعالى بالإخلاص له في جميع الأحوال وإقامةِ دينِهِ، فقال: ﴿فأقم

---

(١) في (ب): «الذي». (٢) في (ب): «نقصانها».

وجهَكَ﴾؛ أي: انصبْه ووجِّهه ﴿للدين﴾: الذي هو الإسلامُ والإيمانُ والإحسان، بأن تتوجَّه بقلبك وقصدِك وبَدَنِكَ إلى إقامة شرائع الدين الظاهرة كالصلاة والزكاة والصوم والحج ونحوها، وشرائعه الباطنة كالمحبَّة والخوف والرجاء والإنابة، والإحسان في الشرائع الظاهرة والباطنة؛ بأن تعبدَ اللّه فيها كأنَّك تراه؛ فإنْ لم تكنْ تراه؛ فإنَّه يراك.

وخص اللّه إقامة الوجه؛ لأنَّ إقبال الوجه تَبَعٌ لإقبال القلب، ويترتَّب على الأمرين سعيُ البدن، ولهٰذا قال: ﴿حَنيفاً﴾؛ أي: مقبلاً على اللّه في ذٰلك معرضاً عمَّا سواه، وهٰذا الأمر الذي أمرناك به هو ﴿فطرةَ اللّه التي فَطَرَ الناس عليها﴾: ووضع في عقولهم حُسْنَها واستقباحَ غيرها؛ فإنَّ جميع أحكام الشرع الظاهرة والباطنة قد وَضَعَ اللّهُ في قلوب الخلق كلِّهم الميلَ إليها، فوضع في قلوبهم محبَّة الحقِّ وإيثار الحقِّ، وهٰذا حقيقة الفطرة. ومَنْ خَرَجَ عن هٰذا الأصل؛ فلعارض عرض لفطرته أفسدها؛ كما قال النبيُّ ﷺ: «كلُّ مولودٍ يولَدُ على الفطرةِ؛ فأبواه يهوِّدانِهِ أو ينصِّرانِهِ أو يمجِّسانِهِ»[1]. ﴿لا تبديلَ لِخَلْقِ اللّهِ﴾؛ أي: لا أحد يبدِّلُ خلق اللّه فيجعلُ المخلوقَ على غير الوضع الذي وَضَعَهُ اللّه. ﴿ذٰلك﴾: الذي أمَرْناك به ﴿الدِّينُ القيِّمُ﴾؛ أي: الطريق المستقيم الموصل إلى اللّه وإلى كرامتِهِ؛ فإنَّ مَن أقام وجهه للدين حنيفًا؛ فإنَّه سالك الصراط المستقيم في جميع شرائعِهِ وطرقِهِ، ﴿ولٰكنَّ أكثرَ الناسِ لا يعلمون﴾: فلا يتعرَّفون الدِّين القيِّم، وإنْ عرفوه؛ لم يَسْلُكوه.

﴿٣١﴾ ﴿منيبينَ إليه واتَّقوه﴾: وهٰذا تفسيرٌ لإقامة الوجه للدين؛ فإنَّ الإنابةَ إنابةُ القلب وانجذابُ دواعيه لمراضي اللّه تعالى، ويلزم من ذٰلك عملُ[2] البدن بمقتضى ما في القلب، فشمل ذٰلك العبادات الظاهرة والباطنة، ولا يتمُّ ذٰلك إلا بترك المعاصي الظاهرة والباطنة؛ فلذٰلك قال: ﴿واتَّقوه﴾؛ فهٰذا يشملُ فعلَ المأمورات وتركَ المنهيات، وخصَّ من المأمورات الصلاةَ لكونها تدعو إلى الإنابة والتقوى لقوله تعالى: ﴿وأقم الصلاةَ إنَّ الصَّلاةَ تَنهى عن الفحشاءِ والمنكرِ﴾: فهٰذا إعانتها على التقوى، ثم قال: ﴿وَلَذِكْرُ اللّه أكبرُ﴾: فهٰذا حثُّها على الإنابةِ. وخصَّ من

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٥٩)، ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رضي اللّه عنه.

(٢) في (ب): «حمل».

المنهيَّات أصلَها، والذي لا يُقبل معه عملٌ، وهو الشركُ، فقال: ﴿ولا تكونوا من المشركين﴾: لكونِ الشرك مضادًّا للإنابة التي رُوحها الإخلاصُ من كلِّ وجه.

﴿٣٢﴾ ثم ذَكَرَ حالة المشركين مهجِّناً لها ومقبِّحاً، فقال: ﴿من الذين فرَّقوا دينَهم﴾: مع أنَّ الدين واحدٌ، وهو إخلاصُ العبادة للّه وحدَه، وهٰؤلاء المشركون فرَّقوه: منهم من يعبدُ الأوثان والأصنام، ومنهم من يعبدُ الشمس والقمر، ومنهم من يعبدُ الأولياء والصالحين، ومنهم يهودٌ، ومنهم نصارى، ولهٰذا قال: ﴿وكانوا شِيَعاً﴾؛ أي: كلُّ فرقةٍ من فرق الشرك تاهتْ وتعصَّبتْ على نصرِ ما معها من الباطل ومنابذةِ غيرِهم ومحاربتِهم. ﴿كلُّ حزبٍ بما لديهم﴾: من العلوم المخالفة لعلوم الرسل ﴿فرِحونَ﴾: به يحكُمون لأنفسِهم بأنَّه الحقُّ وأنَّ غيرهم على باطل.

وفي هٰذا تحذيرٌ للمسلمين من تشتُّتهم وتفرُّقهم فرقاً، كلُّ فريق يتعصَّبُ لما معه من حقٍّ وباطلٍ، فيكونون مشابهين بذٰلك للمشركين في التفرُّق، بل الدين واحدٌ، والرسول واحدٌ، والإلٰه واحدٌ، وأكثر الأمور الدينيَّة وقع فيها الإجماع بين العلماء والأئمَّة، والأخوَّة الإيمانيَّة قد عقدها اللّه وربَطَها أتمَّ ربط؛ فما بالُ ذٰلك كلّه يُلغى ويُبنى التفرُّقُ والشقاقُ بين المسلمين على مسائل خفيَّةٍ أو فروع خلافيَّةٍ يضلِّلُ بها بعضُهم بعضاً ويتميَّز بها بعضُهم عن بعضٍ؟! فهل هٰذا إلَّا من أكبر نزغات الشيطانِ وأعظم مقاصدِهِ التي كاد بها المسلمين؟! وهل السعي في جمع كلمتهم وإزالةِ ما بينَهم من الشقاق المبنيِّ على ذٰلك الأصل الباطل إلَّا من أفضل الجهادِ في سبيل اللّه وأفضلِ الأعمال المقرِّبة إلى اللّه؟!

ولما أمر تعالى بالإنابة إليه، وكان المأمور بها هي الإنابة الاختيارية، التي تكون في حالِ العسر واليسر والسَّعة والضيق؛ ذكر الإنابة الاضطراريَّة التي لا تكون مع الإنسان إلَّا عند ضيقِهِ وكربِهِ؛ فإذا زال عنه الضيق؛ نَبَذَها وراء ظهرِهِ، وهٰذه غيرُ نافعةٍ، فقال:

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشۡرِكُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿٣٣ ـ ٣٤﴾ ﴿وإذا مَسَّ الناسَ ضُرٌّ﴾: مرضٌ أو خوفٌ من هلاك ونحوه، ﴿دَعَوْا ربَّهم منيبين إليه﴾: ونسوا ما كانوا به يشرِكون في تلك الحال؛ لعلمِهم أنَّه

لا يكشفُ الضُرَّ إلَّا اللّه، فَ﴿إذا أذاقَهم منه رحمةً﴾: شفاهم من مرضهم وآمَنَهم من خوفهم، ﴿إذا فريقٌ منهم﴾: ينقُضون تلك الإنابةَ التي صدرت منهم، ويشرِكون به مَنْ لا دَفْعَ عنهم ولا أغنى ولا أفقر ولا أغنى، وكلُّ هٰذا كفرٌ بما آتاهم اللّه ومنَّ به عليهم حيثُ أنجاهم وأنقَذَهم من الشدَّة وأزال عنهم المشقَّة؛ فهلَّا قابلوا هٰذه النعمة الجليلة بالشُّكر والدوام على الإخلاص له في جميع الأحوال؟!

﴿٣٥﴾ ﴿أم أنزَلْنا عليهم سلطاناً﴾؛ أي: حجَّة ظاهرةً، ﴿فهو﴾؛ أي: ذٰلك السلطان ﴿يتكلَّمُ بما كانوا به يشرِكون﴾: ويقول لهم: اثبُتوا على شِرْكِكُم واستمرُّوا على شكِّكُم؛ فإنَّ ما أنتم عليه هو الحقُّ، وما دعتكم الرسلُ إليه باطل؛ فهل ذٰلك السلطان موجودٌ عندهم حتى يوجِبَ لهم شدَّة التمسُّك بالشرك؟ أم البراهين العقليَّة والسمعيَّة والكتب السماويَّة والرسل الكرام وسادات الأنام قد نَهَوْا أشدَّ النهي عن ذٰلك، وحذَّروا من سلوك طرقه الموصلة إليه، وحكموا بفساد عقل ودين من ارتكبه؟! فشركُ هٰؤلاء بغير حجَّة ولا برهانٍ، وإنَّما هو أهواء النُّفوس ونَزَغات الشيطانِ.

﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةً فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿٣٦ ـ ٣٧﴾ يخبر تعالى عن طبيعة أكثر الناس في حال الرخاء والشدَّة أنَّهم إذا أذاقهم اللّه منه رحمةً من صحَّةٍ وغنى ونصرٍ ونحو ذٰلك؛ فرحوا بذٰلك فرحَ بَطَرٍ لا فرح شُكْرٍ وتبجُّح بنعمة اللّه. ﴿وإنْ تُصِبْهم سيئةٌ﴾؛ أي: حالٌ تسوؤهم، وذٰلك ﴿بما قدَّمت أيديهم﴾: من المعاصي، ﴿إذا هم يَقْنَطون﴾: ييأسون من زوال ذٰلك الفقر والمرض ونحوه، وهٰذا جهلٌ منهم وعدم معرفة. ﴿أوَلَم يرَوْا أنَّ اللّه يبسطُ الرزقَ لمن يشاء وَيَقْدِرُ﴾: فالقنوط بعدما علم أن الخير والشرَّ من اللّه والرزق سعته وضيقه من تقديره ضائعٌ ليس له محلٌّ؛ فلا تنظر أيُّها العاقل لمجرَّد الأسباب، بل اجعلْ نَظَرَكَ لمسبِّبها، ولهٰذا قال: ﴿إنَّ في ذٰلك لآياتٍ لقوم يؤمنون﴾: فهم الذين يعتبِرونَ ببسطِ اللّه لِمَنْ يشاءُ وقَبْضِهِ، ويعرفون بذٰلك حكمة اللّه ورحْمته وجوده وجذب القلوب لسؤالِهِ في جميع مطالب الرزق.

﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿٣٨﴾ أي: فأعطِ القريب منك ـ على حسب قربِهِ وحاجتِهِ ـ حقَّه الذي أوجبه الشارع أو حضَّ عليه من النفقةِ الواجبة والصدقةِ والهديَّة والبرِّ والسلام والإكرام والعفوِ عن زلَّته والمسامحة عن هفوتِهِ، وكذٰلك آتِ المسكين الذي أسْكَنَهُ[1] الفقرُ والحاجةُ ما تُزيل به حاجَتَه وتدفعُ به ضرورتَه من إطعامه وسقيه وكسوتِهِ. ﴿وابنَ السبيل﴾: الغريب المنقطع به في غير بلدِهِ، الذي في مظنَّة شدَّة الحاجة، وأنَّه لا مال معه ولا كسب قد دَبَّر نفسَه به في سفره؛ بخلاف الذي في بلده؛ فإنَّه وإن لم يكن له مالٌ، لٰكن لا بدَّ في الغالب أن يكونَ في حرفةٍ أو صناعةٍ ونحوها تسدُّ حاجته، ولهٰذا جعل الله في الزَّكاة حصةً للمسكين وابن السبيل.

﴿ذٰلك﴾؛ أي: إيتاء ذي القربى والمسكين وابن السبيل: ﴿خيرٌ للذين يريدون﴾: بذٰلك العمل ﴿وَجْهَ اللّه﴾؛ أي: خير غزيرٌ وثوابٌ كثيرٌ؛ لأنَّه من أفضل الأعمال الصالحة، والنفعُ المتعدِّي الذي وافق محلَّه المَقْرونُ به الإخلاص؛ فإن لم يُرَدْ به وجهُ الله؛ لم يكن خيراً للمعطي، وإن كان خيراً ونفعاً للمعطىٰ؛ كما قال تعالى: ﴿لا خيرَ في كثير مِن نَجْواهم إلَّا مَنْ أمر بصدقةٍ أو معروفٍ أو إصلاحٍ بينَ الناس﴾: مفهومُها أنَّ هٰذه المستثنيات خيرٌ؛ لنفعها المتعدِّي، ولٰكن مَنْ يفعلُ ذٰلك ابتغاء مرضاة الله؛ فسوف نؤتيه أجراً عظيماً، وقوله: ﴿وأولئك﴾: الذين عملوا هٰذه الأعمالَ وغيرَها لوجه الله، ﴿هم المفلحون﴾: الفائزونَ بثواب الله الناجون من عقابه.

﴿٣٩﴾ ولـمَّا ذكر العمل الذي يُقْصَدُ به وجهُه من النفقات؛ ذكر العمل الذي يُقْصَدُ به مَقْصِدٌ دنيويٌّ، فقال: ﴿وما آتيتُم من ربا لِيَرْبُوا في أموال الناس﴾؛ أي: ما أعطيتم من أموالكم الزائدة عن حوائجكم، وقصدُكم بذٰلك أن يَرْبُوَ؛ أي: يزيد في أموالكم؛ بأن تُعطوها لمن تطمعون أن يعاوِضكم عنها بأكثر منها؛ فهٰذا العمل لا يربو أجرُهُ عند الله؛ لكونه معدومُ الشرط الذي هو الإخلاص.

ومثل ذٰلك العملُ الذي يُراد به الزيادة في الجاه والرياء عند الناس؛ فهٰذا كلُّه لا يربو عند الله. ﴿وما آتيتُم من زكاةٍ﴾؛ أي: مال يطهِّركم من الأخلاق الرَّذيلة، ويطهِّر أموالكم من البُخل بها، ويزيدُ في دفع حاجة المعطىٰ؛ ﴿تريدونَ﴾: بذٰلك ﴿وجهَ الله فأولئك هم المُضعِفونَ﴾؛ أي: المضاعَف لهم الأجر، الذين تربو

---

(١) في (ب): «أسكته».

نفقاتُهم عند اللّه، ويُربيها اللّهُ لهم، حتى تكونَ شيئاً كثيراً، ودلَّ قولُه: ﴿وما آتيتُم من زكاةٍ﴾: أنَّ الصدقة مع اضطرارِ من يَتَعَلَّق بالمنفق أو مع دَيْنٍ عليه لم يَقْضِهِ ويقدِّمُ عليه الصدقَة؛ أنَّ ذٰلك ليس بزكاةٍ يؤجَر عليه العبد، ويُرَدُّ تصرُّفُه شرعاً؛ كما قال تعالى في الذي يُمْدَحُ: ﴿الذي يؤتي ماله يتزكَّى﴾؛ فليس مجردُ إيتاءِ المال خيراً، حتى يكون بهٰذه الصفة، وهو أن يكونَ على وجهٍ يَتَزَكَّى به المؤتي.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿٤٠﴾ يخبر تعالى أنَّه وحده المنفرد بخلقكم ورزقكم وإماتتكم وإحيائكم، وأنه ليس أحدٌ من الشركاء التي يدعوها المشركون مَنْ يشارِكُ اللّه في شيءٍ من هٰذه الأشياء؛ فكيف يشركون بِمَنِ انفردَ بهٰذه الأمور من ليس له تصرُّفٌ فيها بوجهٍ من الوجوه؟ فسبحانَه وتعالى، وتقدَّس، وتنزَّه، وعلا عن شِرْكِهِم؛ فلا يضرُّه ذٰلك، وإنَّما وبالُه[1] عليهم.

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿٤١﴾ أي: استعلن ﴿الفسادُ في البرِّ والبحرِ﴾؛ أي: فساد معايشهم ونقصها وحلول الآفات بها وفي أنفسهم من الأمراض والوباء وغير ذٰلك، وذٰلك بسبب ما قدَّمَتْ أيديهم من الأعمال الفاسدةِ المفسدةِ بطبعها. هٰذه المذكورة، ﴿ليُذيقهم بعضَ الذي عملوا﴾؛ أي: ليعلموا أنَّه المجازي على الأعمال، فعجَّل لهم نموذجاً من جزاء أعمالهم في الدنيا؛ ﴿لعلَّهم يرجِعونَ﴾: عن أعمالهم التي أثَّرت لهم من الفساد ما أثَّرت، فتَصْلُحُ أحوالُهم، ويستقيمُ أمرُهم؛ فسبحان من أنعم ببلائِهِ، وتفضَّلَ بعقوبتِهِ، وإلَّا؛ فلو أذاقهم جميعَ ما كسبوا؛ ما ترك على ظهرِها من دابَّةٍ.

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿٤٢﴾ والأمر بالسير في الأرض يدخُلُ فيه السير بالأبدان[2] والسيرُ في القلوب للنظر والتأمُّل بعواقب المتقدِّمين، ﴿كان أكثرُهم مشركينَ﴾: تجِدون عاقِبَتَهم شرَّ

(١) في (ب): «وبالهم».

(٢) في (ب): «في الأبدان».

العواقب، ومآلهم شرُّ مآلٍ: عذابٌ استأصلهم، وذمٌّ، ولعنٌ من خَلْق الله يتبعهم، وخزيٌ متواصلٌ؛ فاحذروا أن تفعلوا أفعالهم؛ يُحذى بكم حَذْوَهم؛ فإنَّ عدل الله وحكمته في كل زمان ومكان.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿٤٣﴾ أي: أقبل بقلبك وتوجَّه بوجهك، و اسْعَ ببدنِك لإقامة الدين القيِّم المستقيم، فنفِّذْ أوامره ونواهيه بجدٍّ واجتهاد، وقمْ بوظائفِهِ الظاهرة والباطنة، وبادِرْ زمانك وحياتك وشبابك، ﴿من قبلِ أن يأتيَ يومٌ لا مردَّ له من الله﴾: وهو يوم القيامةِ، الذي إذا جاء؛ لا يمكنُ ردُّه، ولا يُرجأ العاملون ليستأنفوا[1] العمل، بل فُرِغَ من الأعمال، ولم يبقَ إلَّا جزاءُ العمال. ﴿يومئذٍ يَصَّدَّعون﴾؛ أي: يتفرَّقون عن ذٰلك اليوم، ويصدُرون أشتاتاً متفاوتين؛ لِيُرَوْا أعمالهم.

﴿٤٤ ـ ٤٥﴾ فـ﴿مَنْ كفر﴾: منهم، ﴿فعليه كفرُهُ﴾: ويعاقَب هو بنفسِهِ، لا تزرُ وازرةٌ وزرَ أخرى، ﴿ومن عَمِلَ صالحاً﴾: من الحقوق التي لله والتي للعباد الواجبة والمستحبَّة ﴿فلأنفسِهِم﴾: لا لغيرهم؛ ﴿يَمْهَدونَ﴾؛ أي: يهيِّئون، ولأنفسهم يعمرون آخرتهم، ويستعدُّون للفوز بمنازلها وغرفاتها، ومع ذٰلك جزاؤهم ليس مقصوراً على أعمالهم، بل يجزيهم الله من فضلِهِ الممدود وكرمِهِ غير المحدود ما[2] لا تبلغُهُ أعمالُهم، وذٰلك لأنَّه أحبَّهم، وإذا أحبَّ الله عبداً؛ صبَّ عليه الإحسان صبًّا، وأجزل له العطايا الفاخرةَ، وأنعم عليه بالنعم الظاهرة والباطنة، وهٰذا بخلاف الكافرين؛ فإنَّ الله لمَّا أبغضَهم ومقَتَهم؛ عاقبَهم وعذَّبهم، ولم يَزِدْهم كما زاد من قبلهم؛ فلهٰذا قال: ﴿إنَّه لا يحبُّ الكافرين﴾.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿٤٦﴾ أي: ومن[3] الأدلَّة الدالَّة على رحمته وبعثِهِ الموتى وأنَّه الإله المعبود

(١) في (ب): «أن يستأنفوا». (٢) في (ب): «وما».
(٣) في (ب): «من».

والملك المحمود، أن أرسل ﴿الرياحَ﴾: أمام المطر ﴿مبشراتٍ﴾: بإثارتها للسحاب ثم جمعِها، فتبشر بذٰلك النفوس قبل نزوله، ﴿وليذيقَكم من رحمتِهِ﴾: فيُنْزِلَ عليكم مطراً تحيا به البلادُ والعبادُ وتذوقون من رحمتِهِ ما تعرِفون أنَّ رحمته هي المنقذة للعباد الجالبة لأرزاقهم، فتشتاقون إلى الإكثار من الأعمال الصالحة الفاتحة لخزائن الرحمة، ﴿ولِتَجْرِيَ الفلكُ﴾: في البحر ﴿بأمرِهِ﴾: القدريِّ، ﴿ولِتَبْتَغوا من فضلِهِ﴾: بالتصرُّفِ في معايشكم ومصالحكم. ﴿ولعلَّكُم تشكُرونَ﴾: مَنْ سخَّر لكم الأسباب، ويَسَّرَ لكم الأمور؛ فهٰذا المقصود من النعم أنْ تقابَلَ بشكر اللّه تعالى؛ ليزيدَكم اللّه منها، ويبقيَها عليكم، وأمَّا مقابلة النعم بالكفرِ والمعاصي؛ فهٰذه حالُ من بدَّل نعمة اللّه كفراً، ونعمته محنةً، وهو معرِّضٌ لها للزوال والانتقال منه إلى غيره.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿٤٧﴾ أي: ﴿ولقد أرسلْنا من قبلِكَ﴾: في الأمم السالفين ﴿رسلاً إلى قومهم﴾: حين جَحَدوا توحيدَ اللّه وكذَّبوا بالحقِّ، فجاءتهم رسلُهم يدعونَهم إلى التوحيد والإخلاص والتصديق بالحقِّ وبطلان ما هم عليه من الكفر والضَّلال، وجاؤوهم بالبينات والأدلَّة على ذٰلك، فلم يؤمِنوا ولم يزولوا عن غيهم، ﴿فانتَقَمْنا من الذين أجْرَموا﴾: ونصرنا المؤمنينَ أتباع الرسل، ﴿وكان حقًّا علينا نصرُ المؤمنين﴾؛ أي: أوجَبْنا ذٰلك على أنفسنا، وجعلْناه من جملةِ الحقوقِ المتعيِّنة، ووعدناهم به؛ فلا بدَّ من وقوعِهِ، فأنتُم أيُّها المكذِّبون لمحمدٍ ﷺ إنْ بقيتُم على تكذيبكم؛ حلَّتْ بكم العقوبةُ، ونصرناه عليكم.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿٤٨ ـ ٤٩﴾ يخبر تعالى عن كمال قدرته وتمام نعمته أنَّه ﴿يرسلُ الرياح فتثير سحاباً﴾: من الأرض، ﴿فيَبْسُطُه في السماء﴾؛ أي: يمدُّه ويوسِّعه ﴿كيف يشاءُ﴾؛ أي: على أيِّ حالة أرادها من ذٰلك، ﴿ثم يجعلُه﴾؛ أي: ذٰلك السحاب الواسع ﴿كِسفاً﴾؛ أي: سحاباً ثخيناً قد طبِّق بعضَه فوق بعض. ﴿فترى الوَدْقَ

يخرُجُ من خلالِهِ﴾؛ أي: السحاب؛ نقطاً صغاراً متفرِّقة، لا تنزل جميعاً فتُفسِدُ ما أتت عليه، ﴿فإذا أصابَ﴾؛ أي: بذٰلك المطر مَنْ ﴿يشاءُ من عبادِهِ إذا هم يستبشرون﴾: يبشِّر بعضهم بعضاً بنزوله، وذٰلك لشدَّة حاجتهم وضرورتهم إليه؛ فلهٰذا قال: ﴿وإن كانوا مِن قبلِ أن يُنَزَّلَ عليهم من قبلِهِ لَمُبْلِسينَ﴾؛ أي: آيِسين قانطين لتأخُّر وقت مجيئه؛ أي: فلما نزل في تلك الحال؛ صار له موقعٌ عظيم عندهم وفرحٌ واستبشار.

﴿٥٠﴾ ﴿فانظر إلى آثارِ رحمةِ اللّه كيف يُحيي الأرضَ بعد موتها﴾: فاهتزَّتْ وربَتْ وأنبتتْ من كلِّ زوجٍ كريم. ﴿إنَّ ذٰلك﴾: الذي أحيا الأرض بعد موتها ﴿لَمُحْيي الموتى وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ﴾: فقدرتُه تعالى لا يتعاصى عليها شيءٌ، وإن تعاصى على قَدْرِ خَلْقِهِ، ودقَّ عن أفهامهم، وحارت فيه عقولهم.

﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿٥١﴾ يخبر تعالى عن حالة الخَلْق وأنَّهم مع هٰذه النعم عليهم بإحياء الأرض بعد موتها ونشرِ رحمةِ اللّه تعالى: لو أرسَلْنا على هٰذا النبات الناشىء عن المطرِ وعلى زُروعهم ريحاً مضرَّةً متلفةً أو منقصةً، ﴿فرأوْهُ مُصفرًّا﴾: قد تداعى إلى التلف، ﴿لَظَلُّوا من بعدِهِ يكفُرون﴾: فينسَوْن النعم الماضية، ويبادِرون إلى الكفر! وهٰؤلاء لا ينفع فيهم وعظٌ ولا زجرٌ.

﴿٥٢﴾ ﴿فإنَّك لا تُسْمِعُ الموتى ولا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاء﴾: وبالأولى: ﴿إذا ولَّوْا مُدْبِرينَ﴾: فإنَّ الموانع قد توفَّرت فيهم عن الانقياد والسماع النافع كتوفُّر هٰذه الموانع المذكورة عن سماع الصوتِ الحسيِّ.

﴿٥٣﴾ ﴿وما أنت بهادِ العُمْيِ عن ضلالَتِهِم﴾: لأنَّهم لا يقبلون الإبصارَ بسبب عَماهم؛ فليس فيهم[1] قابليَّةٌ له. ﴿إن تُسْمِعُ إلَّا مَن يؤمنُ بآياتنا فهم مسلمونَ﴾: فهٰؤلاء الذين ينفعُ فيهم إسماعُ الهدى، المؤمنون بآياتنا بقلوبهم، المنقادون لأوامرنا، المسلمون لنا؛ لأنَّ معهم الداعي القويَّ لقَبول النصائح والمواعظ، وهو

---

(١) في (ب): «منهم».

استعدادُهم للإيمان بكلِّ آيةٍ من آيات اللّه، واستعدادُهم لتنفيذ ما يقدِرون عليه من أوامرِ اللّه ونواهيه.

﴿۞ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿٥٤﴾ يخبر تعالى عن سعةِ علمِهِ وعظيم اقتدارِهِ وكمال حكمتِهِ؛ أنَّه ابتدأ خَلْقَ الآدميين من ضَعْفٍ، وهو الأطوارُ الأولى من خلقِهِ من نطفةٍ إلى علقةٍ إلى مضغةٍ إلى أنْ صار حيواناً في الأرحام إلى أن وُلِدَ وهو في سنِّ الطُّفولية، وهو إذْ ذاك في غاية الضعفِ وعدم القوَّة والقدرة، ثمَّ ما زال اللّه يزيدُ في قوَّته شيئاً فشيئاً، حتى بلغ سنَّ الشبابَ، واستوتْ قوَّتُه، وكملتْ قواه الظاهرةُ والباطنةُ، ثم انتقل من هٰذا الطورِ ورجع إلى الضعف والشيبةِ والهرم. ﴿يَخْلُقُ ما يشاءُ﴾: بحسب حكمتِهِ، ومن حكمتِهِ أن يُرِيَ العبدَ ضعفَه، وأنَّ قوَّتَه محفوفةٌ بضعفين، وأنَّه ليس له من نفسه إلا النقصُ، ولولا تقويةُ اللّه له؛ لما وصل إلى قوَّة وقدرة، ولو استمرَّتْ قوتُه في الزيادة؛ لطغى وبغى وعتا، وليعلم العبادُ كمالَ قدرةِ اللّه، التي لا تزال مستمرَّةً؛ يخلق بها الأشياء، ويدبِّر بها الأمورَ، ولا يلحقُها إعياءٌ ولا ضعفٌ ولا نقصٌ بوجه من الوجوه.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿٥٥﴾ يخبر تعالى عن يوم القيامةِ وسرعةِ مجيئه، وأنَّه إذا قامت الساعةُ؛ أقسم ﴿المجرمونَ﴾: باللّه أنهم ﴿ما لَبِثوا﴾: في الدُّنيا ﴿إلَّا ساعةً﴾، وذٰلك اعتذارٌ منهم؛ لعلَّه ينفعُهم العذر، واستقصارٌ لمدَّة الدنيا. ولمَّا كان قولُهم كذباً لا حقيقةَ له؛ قال تعالى: ﴿كذٰلك كانوا يُؤفَكون﴾؛ أي: ما زالوا وهم في الدنيا يؤفَكون عن الحقائق ويأتَفِكون الكذبَ؛ ففي الدُّنيا كذَّبوا الحقَّ الذي جاءت[1] به المرسلون، وفي الآخرة أنكروا الأمرَ المحسوس، وهو اللبثُ الطويلُ في الدنيا؛ فهٰذا خُلُقهم القبيح، والعبدُ يُبعَثُ على ما مات عليه.

---

(١) في (ب): «جاءتهم».

﴿٥٦﴾ ﴿وقال الذين أوتوا العلم والإيمانَ﴾؛ أي: منَّ اللّهُ عليهم بهما، وصارا وصفاً لهم، العلم بالحق والإيمان المستلزمُ إيثار الحقِّ، وإذا كانوا عالمينَ بالحقِّ، مؤثرين له؛ لزمَ أن يكونَ قولُهم مطابقاً للواقع مناسباً لأحوالهم؛ فلهٰذا قالوا الحقَّ: ﴿لقد لَبِثْتُم في كتاب اللّه﴾؛ أي: في قضائِهِ وقدرِهِ الذي كتبه اللّه عليكم وفي حكمه ﴿إلى يوم البعثِ﴾؛ أي: عُمرتم عمراً يتذكَّر فيه المتذكِّر، ويتدبَّر فيه المتدبِّر ويعتبر فيه المعتبر، حتى صار البعثُ، ووصلتُم إلى هٰذه الحال. ﴿فهٰذا يوم البعثِ ولٰكنَّكم كنتُم لا تعلمون﴾: فلذٰلك أنكرتُموه في الدُّنيا، وأنكرتُم إقامتكم في الدُّنيا وقتاً تتمكَّنون فيه من الإنابةِ والتوبةِ، فلم يزل الجهلُ شعاركم، وآثاره من التكذيبِ والخسارِ دِثاركم.

﴿٥٧﴾ ﴿فيومئذٍ لا ينفعُ الذين ظَلَموا معذِرَتُهم﴾: فإن كذَّبوا، وزعموا أنَّهم ما قامت عليهم الحجَّة، أو ما تمكَّنوا من الإيمان؛ ظهر كَذِبُهم بشهادة أهل العلم والإيمان وشهادة جلودِهِم وأيديهم وأرجلهم، وإنْ طلبوا الإعذارَ، وأنَّهم يردُّون، ولا يعودون لِما نُهوا عنه؛ لم يمكَّنوا؛ فإنَّه فات وقتُ الإعذار، فلا تُقبل معذرتُهم. ﴿ولا هم يُسْتَعْتَبونَ﴾؛ أي: يُزَالُ عتبُهم والعتابُ عنهم.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿٥٨ ـ ٥٩﴾ أي: ﴿ولقد ضَرَبْنا﴾: لأجل عنايتنا ورحْمَتِنا ولطفنا وحسنِ تعليمنا ﴿للناس في هٰذا القرآنِ من كلِّ مثلٍ﴾: تتَّضِح به الحقائقُ وتُعرف به الأمور وتنقطعُ به الحجَّةُ، وهٰذا عامٌّ في الأمثال التي يضربُها اللّه في تقريب الأمور المعقولة بالمحسوسة، وفي الإخبار بما سيكون وجلاءِ حقيقتِهِ حتى كأنَّه وَقَعَ، ومنه في هٰذا الموضع ذكرُ اللّه تعالى ما يكون يوم القيامةِ، وحالةَ المجرمين فيه، وشدَّةَ أسَفِهم، وأنَّه لا يقبلُ منهم عذرٌ ولا عتابٌ، ولٰكن أبى الظالمون الكافرون إلَّا معاندة الحقِّ الواضح، ولهٰذا قال: ﴿ولئن جِئْتَهم بآيةٍ﴾؛ أي: أيَّ آية تدلُّ على صحة ما جئتَ به، ﴿لَيقولَنَّ الذين كَفَروا إن أنتُم إلَّا مبطلونَ﴾؛ أي: قالوا للحقِّ: إنَّه باطل! وهٰذا من كفرهم وجراءتهم وطَبْعِ اللّه على قلوبهم وجَهْلهم المفرطِ، ولهٰذا قال: ﴿كذٰلك يَطْبَعُ اللّه على قلوبِ الذين لا يعلمونَ﴾: فلا يَدْخُلُها خيرٌ، ولا تدركُ الأشياءَ على حقيقتها، بل ترى الحقَّ باطلاً والباطل حقًّا.

﴿٦٠﴾ ﴿فاصبرْ﴾: على ما أمرتَ به وعلى دعوتِهِم إلى اللّٰه ولو رأيتَ منهم إعراضاً؛ فلا يصدَّنَّك ذلك. ﴿إنَّ وعدَ اللّٰه حقٌّ﴾؛ أي: لا شكَّ فيه، وهٰذا مما يُعين على الصبر؛ فإنَّ العبد إذا علم أنَّ عمله غير ضائع، بل سيجدُه كاملاً؛ هانَ عليه ما يلقاه من المكاره، وتيسَّر[1] عليه كلُّ عسيرٍ، واستقلَّ من عملِهِ كلَّ كثير. ﴿ولا يَسْتَخِفَّنَّكَ الذين لا يوقنونَ﴾؛ أي: قد ضعف إيمانُهم وقلَّ يقينُهم فخفَّت لذٰلك أحلامُهم، وقلَّ صبرُهم؛ فإيَّاكَ أن يستخِفَّكَ هٰؤلاء؛ فإنَّك إنْ لم تجعلْهم[2] منكَ على بالٍ، وتحذَرْ منهم، وإلَّا؛ استخفُّوك وحملوك على عدم الثبات على الأوامر والنواهي، والنفسُ تساعِدُهم على هٰذا، وتطلُبُ التشبُّه والموافقة[3]، وهٰذا مما يدلُّ على أنَّ كلَّ مؤمن موقن رزين العقل؛ يَسْهُلُ عليه الصبر، وكلّ ضعيف اليقين؛ ضعيف العقل خفيفُه؛ فالأول بمنزلة اللُّبِّ، والآخر بمنزلة القشور. فاللّٰه المستعان.

❁ ❁ ❁

تفسير سورة لقمان

[وهي] مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾.

﴿٢﴾ يشيرُ تعالى إشارةً دالَّةً على التعظيم إلى ﴿آيات الكتاب الحكيم﴾؛ أي: آياتُه محكمةٌ صدرت من حكيم خبير.

ومن[4] إحكامها أنَّها جاءت بأجلِّ الألفاظ وأفصحها وأبينها، الدالَّة على أجلِّ المعاني وأحسنها.

ومن إحكامها أنها محفوظةٌ من التغييرِ والتبديل والزيادة والنقص والتحريف.

---

(١) في (ب): «ويسر».

(٢) في (ب): «تجعل».

(٣) في (ب): «والمرافقة».

(٤) في (ب): «من».

ومن إحكامها أنَّ جميعَ ما فيها من الأخبار[١] السابقةِ واللاحقة والأمور الغيبيَّة كلِّها مطابقةٌ للواقع، مطابقٌ لها الواقع، لم يخالِفْها كتابٌ من الكتب الإلهية، ولم يخبر بخلافها نبيٌّ من الأنبياء، ولم يأتِ ولن يأتيَ علم محسوسٌ ولا معقولٌ صحيحٌ يناقِضُ ما دلَّتْ عليه.

ومن إحكامها أنها ما أَمَرَتْ بشيء إلَّا وهو خالصُ المصلحة أو راجِحُها، ولا نَهَتْ عن شيء إلَّا وهو خالصُ المفسدة أو راجِحُها، وكثيراً ما يجمع بين الأمر بالشيء مع ذكر حكمتِهِ وفائدتِهِ، والنهي عن الشيء مع ذكرِ مضرَّتِهِ.

ومن إحكامها أنَّها جمعت بين الترغيب والترهيب والوعظ البليغ الذي تعتدل به النفوس الخيِّرة، وتحتكمُ فتعملُ بالحزم.

ومن إحكامها: أنَّك تَجِدُ آياتها[٢] المتكرِّرة كالقصص والأحكام ونحوها قد اتَّفقت كلُّها وتواطأت، فليس فيها تناقضٌ ولا اختلافٌ؛ فكلَّما ازدادَ بها البصير تدبُّراً وأعمل فيها العقل تفكُّراً؛ انبهر عقلُه وذهلَ لبُّه من التوافُق والتواطُؤ، وجزم جزماً لا يُمْتَرى فيه أنه تنزيلٌ من حكيم حميدٍ.

﴿٣﴾ ولكن مع أنه حكيمٌ يدعو إلى كلِّ خُلُق كريم وينهى عن كلِّ خُلُقٍ لئيم، أكثرُ الناس محرومون من الاهتداءِ به، معرِضون عن الإيمان والعمل به؛ إلَّا مَنْ وفَّقَه الله تعالى وعَصَمَه، وهم المحسنون في عبادة ربِّهم، والمحسِنون إلى الخلق؛ فإنَّه ﴿هدىً﴾: لهم يهديهم إلى الصراط المستقيم، ويحذِّرهم من طرق الجحيم. ﴿ورحمةً﴾: لهم تحصُلُ لهم به السعادةُ في الدنيا والآخرة والخيرُ الكثيرُ والثوابُ الجزيلُ والفرح والسرور، ويندفِعُ عنهم الضَّلال والشقاءُ.

﴿٤﴾ ثم وَصَفَ المحسنين بالعلم التامِّ، وهو اليقين الموجب للعمل والخوف من عقاب الله، فيتركون معاصيه، ووصَفَهم بالعمل، وخصَّ من العمل عملين فاضلينِ: ﴿الصلاة﴾ المشتمِلَة على الإخلاص، ومناجاة الله تعالى، والتعبُّد العامِّ للقلب واللسان والجوارح المعينة على سائر الأعمال. ﴿والزَّكاة﴾: التي تُزَكِّي صاحبها من الصفات الرذيلة، وتنفعُ أخاه المسلمَ وتسدُّ حاجته، ويَبينُ بها أنَّ العبدَ يُؤْثِرُ محبَّةَ الله على محبَّتِهِ للمال، فيخرِجُ[٣] محبوبَه من المال لما هو أحبُّ إليه، وهو طلب مرضاة الله.

---

(١) في (ب): «الأحكام».

(٢) في (ب): «آياته».

(٣) في (ب): «فيخرجه».

﴿٥﴾ فَـ﴿أولئك﴾: المحسنون الجامعون بين العلم التامِّ والعمل ﴿على هدىً﴾؛ أي: عظيم كما يفيدُه التنكيرُ، وذٰلك الهدى حاصلٌ لهم وواصلٌ إليهم ﴿من ربِّهم﴾: الذي لم يَزَلْ يربِّيهم بالنعم ويدفَعُ عنهم النِّقَمَ، وهٰذا الهدى الذي أوصله إليهم من تربيتِهِ الخاصَّة بأوليائه، وهو أفضلُ أنواع التربية. ﴿وأولئك هم المفلحونَ﴾: الذين أدركوا رضا ربِّهم وثوابَه الدنيوي والأخروي، وسلموا من سَخَطِهِ وعقابه، وذٰلك لسلوكهم طريقَ الفلاح، الذي لا طريقَ له غيرها.

ولمَّا ذَكَرَ تعالى المهتدين بالقرآن المقبلين عليه؛ ذَكَرَ من أعرض عنه ولم يرفَعْ به رأساً، وأنَّه عوقب على ذٰلك بأن تَعَوَّضَ عنه كل باطل من القول، فترك أعلى الأقوال وأحسن الحديث، واستبدل به أسفل قول وأقبحه؛ فلذٰلك قال:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾.

﴿٦﴾ أي: ﴿ومن الناس من﴾: هو محرومٌ مخذولٌ ﴿يشتري﴾؛ أي: يختارُ ويرغب رغبة من يبذُلُ الثمن في الشيء، ﴿لهو الحديث﴾؛ أي: الأحاديث الملهية للقلوب، الصادَّة لها عن أجلِّ مطلوب، فدخل في هٰذا كلُّ كلام محرَّم وكلُّ لغوٍ وباطل[1] وهَذَيان؛ من الأقوال المرغِّبة في الكفر والفسوق والعصيان، ومن أقوال الرادِّين على الحقِّ المجادلين بالباطل لِيُدْحِضوا به الحقَّ، ومن غيبةٍ ونميمةٍ وكذبٍ وشتم وسبٍّ، ومن غناء ومزامير شيطان. ومن الماجرياتِ الملهيةِ التي لا نفع فيها في دين ولا دُنيا؛ فهٰذا الصنف من الناس ﴿يشتري لهو الحديث﴾ عن هدي الحديث ﴿ليضلَّ﴾ الناس ﴿بغير علم﴾؛ أي: بعد ما ضلَّ في فعله أضلَّ غيرَه؛ لأنَّ الإضلال ناشئ عن الضَّلال، وإضلالُه في هٰذا الحديث صدُّه عن الحديث النافع والعمل النافع والحقِّ المُبين والصراطِ المستقيم، ولا يتمُّ له هٰذا حتى يقدحَ في الهدى والحقِّ، ويتَّخذ آيات الله هُزواً، يَسْخَرُ[2] بها وبِمَنْ جاء بها؛ فإذا جمع بين مدح الباطل والترغيب فيه والقدح في الحقِّ والاستهزاء به وبأهله؛ أضلَّ مَنْ لا علم

(١) في (ب): «لغو باطل».

(٢) في (ب): «ويسخر».

عندَه، وخَدَعَه بما يوحيه إليه من القول الذي لا يميِّزه ذٰلك الضالُّ، ولا يعرف حقيقته، ﴿أولٰئك لهم عذابٌ (مهينٌ)﴾[1]: بما ضلُّوا، وأضلُّوا، واستهزؤوا بآيات الله، وكذَّبوا الحقَّ الواضح.

﴿٧﴾ ولهٰذا قال: ﴿وإذا تُتلى عليه آياتُنا﴾: ليؤمنَ بها وينقادَ لها، ﴿ولَّى مستكبراً﴾؛ أي: أدبر إدبار مستكبرٍ عنها رادٍّ لها ولم تدخُلْ قلبَه ولا أثَّرتْ فيه بل أدبر عنها ﴿كأن لم يَسْمَعْها﴾، بل: ﴿كأنَّ في أذُنَيه وقراً﴾؛ أي: صمماً لا تصلُ إليها الأصوات؛ فهٰذا لا حيلة في هدايتِهِ. ﴿فبشِّرْه﴾: بشارةً تؤثِّر في قلبه الحزنَ والغمَّ، وفي بشرتِهِ السوء والظُّلمة والغبرة، ﴿بعذاب أليم﴾: مؤلم لقلبِهِ ولبدنِهِ، لا يقادَرُ قدرُهُ، ولا يُدرى بعظيم أمره؛ فهٰذه[2] بشارةُ أهل الشرِّ؛ فلا نعمتِ البشارةُ.

﴿٨ ـ ٩﴾ وأما بشارةُ أهل الخير؛ فقال: ﴿إنَّ الذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ﴾: جمعوا بينَ عبادة الباطن بالإيمان والظاهر بالإسلام والعمل الصالح، ﴿لهم جناتُ النعيم﴾: بشارةً لهم بما قدَّموه وقِرىً لهم بما أسلفوه ﴿خالدين فيها﴾؛ أي: في جنات النعيم نعيم القلب والروح والبدن. ﴿وعد الله حقًّا﴾: لا يمكن أن يُخْلَفَ ولا يغيَّر ولا يتبدَّل. ﴿وهو العزيزُ الحكيم﴾: كامل العزَّة، كامل الحكمة، من عزَّته وحكمتِهِ، وَفَّق من وَفَّق، وخَذَل بحسب ما اقتضاه علمُه فيهم وحكمتُه.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿١١﴾﴾.

﴿١٠﴾ يتلو تعالى على عبادِهِ آثاراً من آثار قدرته وبدائعَ من بدائع حكمتِهِ ونعماً من آثار رحمتِهِ، فقال: ﴿خلقَ السمٰواتِ﴾: السبع على عظمها وسَعَتها وكثافتها وارتفاعها الهائل ﴿بغير عَمَدٍ تَرَوْنَها﴾؛ أي: ليس لها عمدٌ، ولو كان لها عَمَدٌ؛ لرؤيتْ، وإنَّما استقرَّتْ، واستمسَكَتْ بقدرة الله تعالى، ﴿وألقى في الأرض رواسِيَ﴾؛ أي: جبالاً عظيمة ركزها في أرجائها وأنحائها لئلاَّ ﴿تميدَ بكم﴾؛ فلولا الجبالُ الراسياتُ؛ لمادتِ الأرض ولما استقرَّتْ بساكنيها، ﴿وبثَّ فيها من كلِّ

---

(١) في النسختين: ﴿أليم﴾. والآية: ﴿مهين﴾.

(٢) في (ب): «وهذه».

دابَّةٍ﴾؛ أي: نشر في الأرض الواسعة من جميع أصناف الدوابِّ التي هي مسخَّرة لبني آدم ولمصالحهم ومنافعهم، ولمَّا بثَّها في الأرض؛ علم تعالى أنه لا بدَّ لها من رزقٍ تعيشُ به، فأنزل من السماء ماء مباركاً، ﴿فأنبتْنا فيها من كلِّ زوج كريم﴾: المنظر، نافع، مبارك، فرتعت فيه الدوابُّ المنبثَّة، وسكن إليه كلُّ حيوان.

﴿١١﴾ ﴿هٰذا﴾؛ أي: خَلْقُ العالم العلويِّ والسفليِّ من جماد وحيوانٍ وسوق أرزاق الخلق إليهم، ﴿خَلْقُ الله﴾: وحدَه لا شريكَ له، كلٌّ مقرٌّ بذٰلك، حتى أنتم يا معشر المشركين، ﴿فأروني ماذا خَلَقَ الذين من دونِهِ﴾؛ أي: الذين جَعَلْتُموهم له شركاءَ تدعونهم وتعبدونهم، يلزم على هٰذا أن يكون لهم خَلْقٌ كخلقِهِ ورزقٌ كرزقِهِ؛ فإنْ كان لهم شيء من ذٰلك؛ فأرونيه؛ ليصحَّ ما ادَّعيتم فيهم من استحقاق العبادة. ومن المعلوم أنَّهم لا يقدرونَ أن يُروه شيئاً من الخلق لها؛ لأنَّ جميع المذكورات قد أقرُّوا أنَّها خلق الله وحده، ولا ثَمَّ شيءٌ يعلم غيرها، فثبت عجزُهم عن إثبات شيء لها تستحقُّ به أن تُعبد، ولٰكن عبادتُهم إيَّاها عن غير علم وبصيرةٍ، بل عن جهل وضلال، ولهٰذا قال: ﴿بل الظالمون في ضلال مبينٍ﴾؛ أي: جليٍّ واضح؛ حيث عَبَدوا من لا يملكُ نفعاً ولا ضرًّا ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، وتركوا الإخلاص للخالقِ الرازق المالك لكلِّ الأمور.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ[1] ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ

---

(١) في النسختين: إلى آخر قصته.

﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ١٩﴾.

﴿١٢﴾ يخبرُ تعالى عن امتنانِهِ على عَبدِهِ الفاضل لقمان بالحكمة، وهي العلم بالحقِّ على وجهه وحكمته؛ فهي العلم بالأحكام، ومعرفةُ ما فيها من الأسرار والأحكام؛ فقد يكون الإنسانُ عالماً ولا يكون حكيماً، وأما الحكمة؛ فهي مستلزمةٌ للعلم، بل وللعمل، ولهذا فُسِّرت الحكمةُ بالعلم النافع والعمل الصالح. ولمَّا أعطاه اللَّه هٰذه المنَّة العظيمة؛ أمره أن يشكره على ما أعطاه؛ ليباركَ له فيه، وليزيدَه من فضله، وأخبره أنَّ شكر الشاكرين يعودُ نفعُه عليهم، وأنَّ من كفر فلم يشكُرِ اللَّه؛ عاد وبالُ ذٰلك عليه، واللَّه غنيٌّ عنه حميدٌ فيما يقدِّره ويقضيه على مَنْ خالف أمره؛ فغناه تعالى من لوازم ذاته، وكونُه حميداً في صفات كماله حميداً في جميل صنعه من لوازم ذاته، وكلٌّ واحد من الوصفين صفة كمال، واجتماع أحدهما إلى الآخر زيادة كمال إلى كمال.

واختلف المفسرون هل كان لقمانُ نبيًّا أو عبداً صالحاً[١]، واللَّه تعالى لم يذكُر عنه إلَّا أنه آتاه الحكمة، وذكر بعضَ ما يدلُّ على حكمته في وعظه لابنه، فذكر أصول الحكمة وقواعدها الكبار، فقال:

﴿١٣﴾ ﴿**وإذ قال لقمانُ لابنِهِ وهو يَعِظُهُ**﴾؛ أو: قال له قولاً به يعظه، **والوعظُ**: الأمرُ والنهيُ[٢] المقرون بالترغيب والترهيب؛ فأمَرَهُ بالإخلاص ونهاه عن الشرك وبيَّن له السبب في ذٰلك، فقال: ﴿**إنَّ الشركَ لظلمٌ عظيمٌ**﴾: ووجه كونه عظيماً أنَّه لا أفظع وأبشع ممَّن سوَّى المخلوق من تراب بمالك الرقاب، وسوَّى الذي لا يملك من الأمر شيئاً بمالك الأمرِ كلِّه، وسوَّى الناقص الفقير من جميع الوجوه بالربِّ الكامل الغنيِّ من جميع الوجوه، وسوَّى مَن لم يُنْعِمْ بمثقال ذرَّةٍ من النعم، بالذي ما بالخلق من نعمةٍ في دينهم ودنياهم وأخراهم وقلوبهم وأبدانهم إلَّا منه، ولا يصرف السوء إلَّا هو؛ فهل أعظم من هٰذا الظلم شيءٌ؟! وهل أعظمُ ظلماً ممَّن

---

(١) قال ابن كثير: «ولهذا كان جمهور السلف على أنه لم يكن نبياً، وإنما ينقل كونه نبياً عن عكرمة إن صح السند إليه، فإنه رواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث وكيع عن إسرائيل عن جابر عن عكرمة قال: كان لقمان نبياً، وجابر هٰذا ابن يزيد الجعفي، وهو ضعيف، واللّه أعلم». «تفسير ابن كثير» (٦/ ٣٣٧).

(٢) في (ب): «يعظه بالأمر والنهي».

خلقه اللّه لعبادته وتوحيدِهِ، فذهب بنفسه الشريفة، فجعلها في أخسِّ المراتب، جعلها عابدةً لمن لا يسوى شيئاً، فظلم نفسه ظلماً كبيراً؟!

﴿١٤﴾ ولما أمر بالقيام بحقِّه بترك الشرك الذي من لوازمه القيام بالتوحيد؛ أمر بالقيام بحقِّ الوالدين، فقال: ﴿ووصَّينا الإنسان﴾؛ أي: عهدنا إليه وجعلناه وصيةً عنده سنسأله عن القيام بها وهل حَفِظَها أم لا؟ فوصيناه ﴿بوالديه﴾، وقلنا له: ﴿اشكرْ لي﴾: بالقيام بعبوديَّتي وأداء حقوقي وأنْ لا تستعينَ بنعمي على معصيتي ﴿ولوالديك﴾: بالإحسان إليهما بالقول الليِّن والكلام اللطيف والفعل الجميل والتواضع لهما وإكرامهما وإجلالهما والقيام بمؤونتهما واجتناب الإساءة إليهما من كلِّ وجه بالقول والفعل، فوصيناه بهذه الوصية وأخبرناه أنَّ ﴿إليَّ المصيرُ﴾؛ أي: سترجع أيُّها الإنسان إلى من وصَّاك وكلَّفك بهٰذه الحقوق، فيسألك: هل قمتَ بها فيثيبك الثواب الجزيل، أم ضيَّعْتها فيعاقبك العقاب الوبيل؟! ثمَّ ذَكَرَ السببَ الموجبَ لبرِّ الوالدين في الأم، فقال: ﴿حَمَلَتْه أمُّه وهناً على وهنٍ﴾؛ أي: مشقة على مشقة؛ فلا تزال تلاقي المشاقَّ من حين يكون نطفةً من الوحم والمرض والضعف والثقل وتغير الحال، ثم وجع الولادة ذٰلك الوجع الشديد، ثم ﴿فصالُهُ في عامينِ﴾: وهو ملازمٌ لحضانة أمِّه وكفالتها ورضاعها. أفما يحسُنُ بمن تحمَّل على ولده هٰذه الشدائد مع شدة الحب أن يؤكِّد على ولده، ويوصي إليه بتمام الإحسان إليه؟

﴿١٥﴾ ﴿وإن جاهداك﴾؛ أي: اجتهد والداك ﴿على أن تشرِكَ بي ما ليس لك به علمٌ فلا تُطِعْهُما﴾: ولا تظنَّ أنَّ هٰذا داخل في الإحسان إليهما؛ لأنَّ حق اللّه مقدَّم على حقِّ كل أحدٍ، ولا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق، ولم يقلْ: وإنْ جاهداك على أن تُشْرِكَ بي ما ليس لك به علمٌ؛ فعقَّهما، بل قال: ﴿فلا تُطِعْهُما﴾؛ أي: في الشرك[1]، وأمَّا برُّهما؛ فاستمرَّ عليه، ولهٰذا قال: ﴿وصاحِبْهُما في الدُّنيا معروفاً﴾؛ أي: صحبة إحسان إليهما بالمعروف، وأما اتِّباعُهما وهما بحالة الكفر والمعاصي؛ فلا تتَّبِعهما، ﴿واتَّبِعْ سبيلَ مَنْ أناب إليَّ﴾: وهم المؤمنون باللّه وملائكته وكتبه ورسله، المستسلمون لربِّهم، المنيبون إليه، واتِّباع سبيلهم أن يَسْلُكَ مسلَكَهم في الإنابة إلى اللّه، التي هي انجذابُ دواعي القلب وإراداته إلى اللّه، ثم يتبَعُها سعي

(١) في (ب): «بالشرك».

البدن فيما يرضي الله ويقرِّبُ منه، ﴿ثمَّ إليَّ مرجِعُكم﴾: الطائع والعاصي والمنيب وغيره، ﴿فأنِبِّئُكم بما كنتُم تعملونَ﴾: فلا يخفى على الله من أعمالهم خافيةٌ.

﴿١٦﴾ ﴿يا بنيَّ إنَّها إن تَكُ مثقالَ حبةٍ من خردلٍ﴾: التي هي أصغرُ الأشياء وأحقرُها ﴿فتكن في صخرةٍ﴾؛ أي: في وسطها، ﴿أو في السمٰواتِ أو في الأرض﴾: في أيِّ جهة من جهاتهما؛ ﴿يأتِ بها اللّهُ﴾: لسعةِ علمِهِ وتمامِ خبرتِهِ وكمال قدرتِهِ، ولهٰذا قال: ﴿إنَّ الله لطيفٌ خبيرٌ﴾؛ أي: لطف في علمه وخبرته، حتى اطَّلع على البواطن والأسرار وخفايا القفار والبحار. والمقصودُ من هٰذا الحثُّ على مراقبة الله والعمل بطاعته مهما أمكن، والترهيبُ من عمل القبيح قلَّ أو كَثُرَ.

﴿١٧﴾ ﴿يا بنيَّ أقِمِ الصَّلاة﴾: حثَّه عليها وخصَّها لأنَّها أكبرُ العبادات البدنيَّة، ﴿وأمُرْ بالمعروفِ وانهَ عن المنكرِ﴾: وذٰلك يستلزم العلم بالمعروف؛ ليأمر به، والعلم بالمنكر؛ لينهى عنه، والأمر بما لا يتمُّ الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر إلَّا به، من الرفق والصبر، وقد صرَّح به في قوله: ﴿واصبِرْ على ما أصابك﴾: ومن كونه فاعلاً لما يأمر به، كافًّا لما يُنهى عنه، فتضمَّن هٰذا تكميلَ نفسه بفعل الخير وترك الشر، وتكميلَ غيره بذٰلك بأمره ونهيه. ولمَّا عُلِمَ أنَّه لا بدَّ أن يُبتلى إذا أمر ونهى وأنَّ في الأمر والنهي مشقَّة على النفوس؛ أمره بالصبر على ذٰلك، فقال: ﴿واصبِرْ على ما أصابَكَ إنَّ ذٰلك﴾: الذي وَعَظَ به لقمانُ ابنَه ﴿من عزم الأمورِ﴾؛ أي: من الأمور التي يُعْزَمُ عليها، ويهتمُّ بها، ولا يوفَّق لها إلا أهلُ العزائم.

﴿١٨﴾ ﴿ولا تُصَعِّرْ خدَّك للناس﴾؛ أي: لا تُمِلْهُ وتعبسْ بوجهك للناس تكبُّراً عليهم وتعاظماً، ﴿ولا تَمْشِ في الأرض مَرَحاً﴾؛ أي: بَطِراً فخراً بالنعم ناسياً المنعِم معجباً بنفسك. ﴿إنَّ الله لا يحبُّ كلَّ مختالٍ﴾: في نفسه وهيئته وتعاظُمه ﴿فخورٍ﴾: بقوله.

﴿١٩﴾ ﴿واقصِدْ في مشيِكَ﴾؛ أي: امش متواضعاً مستكيناً لا مشي البطر والتكبُّر ولا مشي التماوت، ﴿واغضُضْ من صوتِكَ﴾: أدباً مع الناس ومع الله، ﴿إنَّ أنكر الأصواتِ﴾؛ أي: أفظعها وأبشعها ﴿لصوتُ الحميرِ﴾: فلو كان في رفع الصوت البليغ فائدةٌ ومصلحةٌ؛ لما اختصَّ بذٰلك الحمار الذي قد عُلِمَتَ خسَّتَه وبلادَتَه.

وهٰذه الوصايا التي وصَّى بها لقمانُ لابنه؛ تجمَعُ أمَّهاتِ الحكم، وتستلزمُ ما لم

يُذكر منها[1]، وكلُّ وصية يُقرن بها ما يدعو إلى فعلها إن كانتْ أمراً وإلى تركها إن كانت نهياً، وهٰذا يدلُّ على ما ذكرنا في تفسير الحكمة: أنَّها العلم بالأحكام وحِكَمِها ومناسباتها: فأمَرَهُ بأصل الدين وهو التوحيدُ، ونهاه عن الشرك، وبيَّن له الموجب لتركِهِ. وأمَرَه ببرِّ الوالدين، وبيَّن له السبب الموجب لبرِّهما، وأمره بشكرِهِ وشكرِهما، ثم احترز بأنَّ محلَّ برِّهما وامتثال أوامرهما ما لم يأمرا بمعصية، ومع ذٰلك؛ فلا يعقُّهما، بل يحسنُ إليهما، وإن كان لا يطيعُهما إذا جاهداه على الشرك. وأمره بمراقبة اللّٰه وخوفه القدوم عليه، وأنَّه لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً من الخير والشرِّ إلَّا أتى بها، ونهاه عن التكبُّر. وأمره بالتواضُع ونهاه عن البَطَرِ والأشرِ والمرح. وأمره بالسُّكون في الحركات والأصوات، ونهاه عن ضدِّ ذٰلك. وأمره بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الصلاة وبالصبر اللذين يسهل بهما كلُّ أمر؛ كما قال تعالى: ﴿واستَعينوا بالصَّبْر والصلاةِ﴾. فحقيقٌ بمن أوصى بهٰذه الوصايا أن يكون مخصوصاً بالحكمة مشهوراً بها، ولهٰذا من منَّة اللّٰه [عليه وعلى سائر] عباده أن قصَّ عليهم من حكمته ما يكون لهم به أسوةٌ حسنةٌ.

﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾.

﴿٢٠ ـ ٢١﴾ يمتنُّ تعالى على عباده بنعمِهِ، ويدعوهم إلى شكرها ورؤيتها وعدم الغفلة عنها، فقال: ﴿ألم تروا﴾؛ أي: تشاهدوا وتُبصروا بأبصاركم وقلوبكم، ﴿أنَّ اللّٰه سخَّر لكم ما في السمٰواتِ﴾: من الشمس والقمر والنُّجوم كلِّها مسخرات لنفع العباد، ﴿وما في الأرض﴾: من الحيوانات والأشجار والزُّروع والأنهار والمعادن ونحوها؛ كما قال تعالى: ﴿هو الذي خَلَقَ لكم ما في الأرض جميعاً﴾، ﴿وأسبغَ عليكم﴾؛ أي: عمَّكم وغمركم نعمَه الظاهرةَ والباطنةَ؛ التي نعلم بها والتي تخفى علينا؛ نعم الدنيا ونعم الدين، حصول المنافع ودفع المضار؛ فوظيفتُكم أن تقوموا بشكرِ هٰذه النعم بمحبَّة المنعم والخضوع له وصرفها في الاستعانة على طاعتِهِ وأنْ لا يُستعان بشيءٍ منها على معصيته. ﴿و﴾ لٰكن مع توالي هٰذه النعم ﴿مِنَ الناس مَن﴾: لم يَشْكُرْها، بل كَفَرها، وكفر بمنْ أنعم بها، وجحدَ الحقَّ الذي أنزل

---

(١) في (ب): «فيها».

به كتبه، وأرسل به رسله، فجعل ﴿يجادِلُ في اللّه﴾؛ أي: يجادل عن الباطل ليدحضَ به الحقَّ، ويدفع به ما جاء به الرسول من الأمر بعبادةِ اللّه وحده، وهٰذا المجادلُ على غير بصيرة؛ فليس جدالُه عن علم؛ فيترك وشأنه، ويسمح له في الكلام. ﴿ولا هدىً﴾: يقتدي به بالمهتدين ﴿ولا كتابٍ منيرٍ﴾؛ أي: نيِّر مبين للحق؛ فلا معقول ولا منقول ولا اقتداء بالمهتدين، وإنما جداله في اللّه مبنيٌّ على تقليد آباءٍ غير مهتدين، بل ضالِّين مضلِّين، ولهٰذا قال: ﴿وإذا قيلَ لهم اتَّبِعوا ما أنزلَ اللّه﴾: على أيدي رسله؛ فإنَّه الحقُّ، وبُيِّنَتْ لهم أدلتُه الظاهرة، ﴿قالوا﴾ معارضينَ ذٰلك: ﴿بل نتَّبِعُ ما وَجَدْنا عليه آباءنا﴾: فلا نترك ما وجدنا عليه آباءنا لقول أحدٍ كائناً مَن كان. قال تعالى في الردِّ عليهم وعلى آبائهم: ﴿أوَلَوْ كان الشيطانُ يدعوهم إلى عذابِ السعيرِ﴾؛ أي: فاستجاب له آباؤهم، ومشوا خلفه، وصاروا من تلاميذ الشيطان، واستولت عليهم الحيرة؛ فهل هٰذا موجب لاتِّباعهم لهم ومشيهم على طريقتهم؟! أم ذٰلك يرهِبُهم من سلوك سبيلهم، وينادي على ضلالهم وضلال من تبعهم؟! وليس دعوة الشيطان لآبائهم ولهم محبة لهم ومودة، وإنَّما ذٰلك عداوةٌ لهم ومكرٌ لهم، وبالحقيقة أتباعه من أعدائِهِ الذين تمكَّن منهم، وظَفِرَ بهم، وقرَّتْ عينُه[1] باستحقاقهم عذابَ السعير بقَبول دعوته.

﴿۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿٢٢﴾ ﴿ومَن يسلِمْ وجهَه إلى اللّه﴾؛ أي: يخضعُ له وينقادُ له بفعل الشرائع مخلصاً له دينَه، ﴿وهو محسنٌ﴾: في ذٰلك الإسلام؛ بأن كان عملُه مشروعاً، قد اتَّبع فيه الرسولَ ﷺ، **أو**: ومن يسلِمْ وجهَه إلى اللّه بفعل جميع العباداتِ وهو محسنٌ فيها؛ بأن يعبدَ اللّه كأنَّه يراه؛ فإنْ لم يكنْ يراه؛ فإنَّه يراه. **أو**: ومَنْ يسلمْ وجهَه إلى اللّه بالقيام بحقوقه، وهو محسن إلى عباد اللّه، قائم بحقوقهم، والمعاني متلازمةٌ، لا فرق بينها إلَّا من جهة اختلاف مورد اللفظتين، وإلَّا؛ فكلُّها متفقة على القيام بجميع شرائع الدين على وجه تُقبل به وتَكْمل؛ فمن فعل ذٰلك؛

(١) في (ب): «عينهم».

﴿فقد استمسكَ بالعروةِ الوُثقى﴾؛ أي: بالعروة التي مَنْ تمسَّكَ بها؛ توثَّق ونجا وسلم من الهلاك وفاز بكلِّ خير، ومَنْ لم يُسلم وجهه للّه، أو: لم يحسِنْ؛ لم يستمسك بالعروة الوثقى، وإذا لم يستمسكْ [بالعروة الوثقى]؛ لم يكنْ ثَمَّ إلَّا الهلاك والبوار. ﴿وإلى اللّه عاقبةُ الأمور﴾؛ أي: رجوعُها وموئلُها ومنتهاها، فيحكم في عباده ويجازيهم بما آلتْ إليه أعمالُهم، ووصلت إليه عواقِبُهم، فليستعدُّوا لذلك الأمر.

﴿٢٣﴾ ﴿ومَن كَفَرَ فلا يَحْزُنكَ كفرُه﴾: لأنَّك أدَّيت ما عليك من الدَّعوة والبلاغ؛ فإذا لم يهتدِ[١]؛ فقد وجب أجرُك على اللّه، ولم يبقَ للحزن موضعٌ على عدم اهتدائِهِ؛ لأنَّه لو كان فيه خيرٌ؛ لهداه اللّه، ولا تحزنْ أيضاً على كونهم تجرؤوا عليك بالعداوة، ونابذوك المحاربة، واستمرُّوا على غيِّهم وكفرِهم، ولا تتحرَّقْ عليهم بسبب أنَّهم ما بودروا بالعذاب، إنَّ ﴿إلينا مرجِعُهم فننبِّئُهم بما عملوا﴾: من كفرِهم وعداوتِهم وسعيِهم في إطفاءِ نورِ اللّه وأذى رسله. إنه ﴿عليمٌ بذات الصُّدور﴾: التي ما نطق بها الناطقون؛ فكيف بما ظهر وكان شهادة؟!

﴿٢٤﴾ ﴿نمتِّعُهم قليلاً﴾: في الدنيا؛ ليزداد إثمهُم ويتوفَّر عذابُهم. ﴿ثم نضطرُّهم﴾؛ أي: نلجِئُهم ﴿إلى عذابٍ غليظٍ﴾؛ أي: انتهى في عظمِهِ وكبرِهِ وفظاعتِهِ وألمه وشدَّته.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿٢٥﴾ أي: ﴿ولئن﴾ سألتَ هٰؤلاء المشركين المكذِّبين بالحقِّ: ﴿مَن خَلَقَ السمٰواتِ والأرضَ﴾: لعلموا أنَّ أصنامهم ما خلقتْ شيئاً من ذلك، ولبادروا بقولهم: ﴿اللّه﴾: الذي خلقهما وحدَه، فَـ﴿قُل﴾ لهم ملزماً لهم ومحتجًّا عليهم بما أقرُّوا به على ما أنكروا: ﴿الحمدُ للّه﴾: الذي بيَّن النور وأظهر الاستدلال عليكم من أنفسكم؛ فلو كانوا يعلمون؛ لجزموا أنَّ المنفرد بالخَلْق والتدبير هو الذي يُفْرَدُ

(١) في (ب): «يهتدوا».

بالعبادة والتوحيد، ولكن ﴿أكثرَهم لا يعلمونَ﴾: فلذٰلك أشركوا به غيره، ورَضُوا بتناقُض ما ذهبوا إليه على وجه الحيرة والشكِّ لا على وجهِ البصيرةِ.

﴿٢٦﴾ ثم ذكر في هاتين الآيتين نموذجاً من سعة أوصافه؛ ليدعو عباده إلى معرفته ومحبَّته وإخلاص الدين له، فذكر عموم ملكه، وأنَّ جميع ما في السماواتِ والأرض، وهٰذا شاملٌ لجميع العالم العلويِّ والسفليِّ؛ أنَّه ملكه، يتصرَّف فيهم بأحكام المُلك القدريَّة وأحكامه الأمريَّة وأحكامه الجزائيَّة؛ فكلُّهم عبيدٌ مماليكُ مدبَّرون مسخَّرون، ليس لهم من الملك شيءٌ، وأنَّه واسع الغنى؛ فلا يحتاجُ إلى ما يحتاجُ إليه أحدٌ من الخلق، ﴿ما أريدُ منهم من رزقٍ وما أريد أن يُطْعِمونِ﴾، وأنَّ أعمال النبيِّين والصدِّيقين والشهداء والصالحين لا تنفعُ اللّهَ شيئاً، وإنما تنفع عامليها، واللّه غنيٌّ عنهم وعن أعمالهم، ومن غناه أنْ أغناهم وأقناهم في دنياهم وأخراهم.

ثم أخبر تعالى عن سَعَةِ حمدِهِ، وأنَّ حمدَه من لوازم ذاتِهِ؛ فلا يكون إلَّا حميداً من جميع الوجوه؛ فهو حميدٌ في ذاته، وهو حميدٌ في صفاته؛ فكلُّ صفة من صفاته يستحقُّ عليها أكملَ حمدٍ وأتمَّه؛ لكونها صفاتِ عظمةٍ وكمال، وجميع ما فَعَلَه وخَلَقَه يُحمد عليه، وجميع ما أمر به ونهى عنه يُحمد عليه، وجميع ما حكم به في العباد وبين العباد في الدُّنيا والآخرة يُحمد عليه.

﴿٢٧﴾ ثم أخبر عن سعة كلامِهِ وعظمةِ قوله بشرحٍ يبلغُ من القلوبِ كلَّ مبلغ، وتنبهِرُ له العقول وتحير فيه الأفئدة وتسيح في معرفتِهِ أولو الألباب والبصائر، فقال: ﴿ولو أنَّ ما في الأرض من شجرةٍ أقلامٌ﴾: يُكتب بها، ﴿والبحرُ يَمُدُّه من بعدِهِ سبعةُ أبحرٍ﴾: مداداً يستمدُّ بها؛ لتكسَّرت تلك الأقلام، ولفني ذٰلك المداد، ولم تنفد ﴿كلماتُ اللّه﴾: وهٰذا ليس مبالغةً لا حقيقةَ له، بل لـمَّا علم تبارك وتعالى أنَّ العقول تتقاصر عن الإحاطة ببعض صفاته، وعلم تعالى أنَّ معرفته لعباده أفضل نعمةٍ أنعم بها عليهم وأجلُّ منقبةٍ حصَّلوها، وهي لا تمكِنُ على وجهها، ولٰكن ما لا يُدْرَكُ كلُّه لا يُتْرَكُ كلُّه، فنبَّههم تعالى على بعضها تنبيهاً تستنير به قلوبُهم، وتنشرحُ له صدورُهم، ويستدلُّون بما وصلوا إليه إلى ما لم يصلوا إليه، ويقولون كما قال أفضلُهم، وأعلمُهم بربِّه: «لا نُحصي ثناءً عليك، أنت كما أثْنَيْتَ على نفسِك»[(١)]، وإلَّا؛ فالأمر أجلُّ من ذٰلك وأعظم.

(١) كما في «صحيح مسلم» (٤٨٦) من حديث عائشة رضي اللّه عنها.

وهٰذا التمثيلُ من باب تقريب المعنى الذي لا يُطاق الوصول إليه إلى الأفهام والأذهان، وإلَّا؛ فالأشجار وإنْ تضاعَفَتْ على ما ذُكِرَ أضعافاً كثيرةً، والبحور لو امتدَّت بأضعاف مضاعفةٍ؛ فإنَّه يُتَصَوَّر نفادها وانقضاؤها؛ لكونها مخلوقةً، وأمَّا كلام اللّه تعالى؛ فلا يُتَصَوَّرُ نفادُه، بل دلَّنا الدليلُ الشرعيُّ والعقليُّ على أنَّه لا نفاد له ولا منتهى؛ فكل شيء ينتهي إلَّا الباري وصفاته، ﴿وأنَّ إلى ربِّك المنتهى﴾، وإذا تصوَّر العقلُ حقيقة أوَّليَّته تعالى وآخريَّته، وأنَّ[1] كلَّ ما فرضه الذهنُ من الأزمان السابقة مهما تسلسل الفرضُ والتقدير؛ فهو تعالى قبل ذٰلك إلى غير نهاية، وأنَّه مهما فرض الذهنُ والعقل من الأزمان المتأخرة وتسلسلَ الفرضُ والتقديرُ وساعد على ذٰلك مَنْ ساعد بقلبِهِ ولسانِهِ؛ فاللّه تعالى بعد ذٰلك إلى غير غايةٍ ولا نهاية، واللّه في جميع الأوقات يحكُم ويتكلَّم ويقولُ ويفعل كيف أرادَ، وإذا أراد، لا مانعَ له من شيء من أقواله وأفعاله؛ فإذا تصوَّر العقلُ ذٰلك؛ عرف أن المثل الذي ضربه اللّه لكلامه لِيُدْرِكَ العبادُ شيئاً منه، وإلَّا؛ فالأمرُ أعظم وأجلُّ.

ثم ذكر جلالة عزَّته وكمال حكمتِهِ، فقال: ﴿إنَّ اللّه عزيزٌ حكيمٌ﴾؛ أي: له العزَّة جميعاً الذي ما في العالم العلويِّ والسفليِّ من القوَّة إلَّا منه، هو الذي أعطاها للخلق؛ فلا حول ولا قوَّةَ إلَّا به، وبعزَّته قهر الخلق كلَّهم، وتصرَّف فيهم ودبَّرهم، وبحكمته خَلَقَ الخلق، وابتدأه بالحكمة، وجعل غايتَه والمقصودَ منه الحكمة، وكذٰلك الأمرُ والنهي وُجِدَ بالحكمة، وكانت غايتُه المقصودةُ الحكمةَ؛ فهو الحكيم في خلقه وأمره.

﴿٢٨﴾ ثم ذكر عظمةَ قدرتِهِ وكمالها، وأنَّه لا يمكن أن يتصوَّرها العقلُ، فقال: ﴿ما خَلْقُكم ولا بعثُكم إلَّا كنفسٍ واحدةٍ﴾: وهٰذا شيءٌ يحير العقول: أنَّ خَلْقَ جميع الخَلْق على كثرتِهم وبعثهم بعد موتِهِم بعد تفرُّقهم في لمحة واحدةٍ كخلقِهِ نفساً واحدةً؛ فلا وجه لاستبعادِ البعث والنُّشور والجزاء على الأعمال؛ إلَّا الجهل بعظمة اللّه وقوَّة قدرتِهِ. ثم ذَكَرَ عموم سمعِهِ لجميع المسموعات وبصرِهِ لجميع المبصَرات، فقال: ﴿إنَّ اللّه سميعٌ بصيرٌ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ

(١) في (ب): «وأنه».

يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿٢٩﴾ وهٰذا فيه أيضاً انفرادُه بالتصرُّف والتدبير، وسعةِ تصرُّفه بإيلاج الليل في النهار وإيلاج النهارِ في الليل؛ أي: إدخال أحدِهما على الآخر؛ فإذا دخل أحدُهما؛ ذهب الآخر، وتسخيره للشمس والقمر يجريان بتدبيرٍ ونظامٍ لم يختلَّ منذ خَلَقَهما؛ ليقيم بذٰلك من مصالح العباد ومنافِعِهم في دينهم ودُنياهم ما به يعتبِرون وينتَفِعون، و﴿كلٌّ﴾ منهما ﴿يجري إلى أجل مسمّى﴾: إذا جاء ذٰلك الأجل؛ انقطعَ جريانُهُما وتعطَّل سلطانُهما، وذٰلك في يوم القيامةِ حين تكوَّرُ الشمس، ويُخْسَفُ القمر، وتنتهي دار الدُّنيا، وتبتدىء الدار الآخرة. ﴿وأنَّ الله بما تعملونَ﴾: من خيرٍ وشرٍّ. ﴿خبيرٌ﴾: لا يخفى عليه شيء من ذٰلك، وسيجازيكم على تلك الأعمال بالثواب للمطيعين والعقاب للعاصين.

﴿٣٠﴾ ﴿ذٰلك﴾[1]: الذي بيَّن لكم من عظمتِهِ وصفاتِهِ ما بيَّن ﴿بأنَّ الله هو الحقُّ﴾: في ذاته وفي صفاته، ودينُهُ حقٌّ، ورسله حقٌّ، ووعدُه حقٌّ، ووعيده حقٌّ، وعبادتُه هي الحق. ﴿وأنَّ ما يدعونَ من دونِهِ الباطلُ﴾: في ذاته وصفاته؛ فلولا إيجادُ الله له؛ لما وُجِدَ، ولولا إمدادُه؛ لما بقي؛ فإذا كان باطلاً؛ كانت عبادتُه أبطل وأبطل. ﴿وأنَّ الله هو العليُّ﴾: بذاته فوق جميع مخلوقاته الذي علت صفاته أن يقاس بها صفات [أحدٍ من الخلق]، وعلا على الخلق؛ فقهرهم ﴿الكبير﴾: الذي له الكبرياءُ في ذاته وصفاته، وله الكبرياءُ في قلوب أهل السماء والأرض.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿٣١﴾ أي: ألم تَرَ من آثار قدرتِهِ ورحمتِهِ وعنايتِهِ بعباده أنْ سَخَّرَ البحر تجري فيه الفُلْك بأمره القدريِّ ولطفِهِ وإحسانِهِ؛ ﴿لِيُرِيَكُم من آياتِهِ﴾: ففيها الانتفاعُ والاعتبار. ﴿إنَّ في ذٰلك لآياتٍ لكلِّ صبارٍ شكورٍ﴾ فهم المنتفعون بالآيات ﴿صبَّارٍ﴾

(١) في (ب): «وذلك».

على الضراء. ﴿شكورٍ﴾ على السَّراء، صبَّارٍ على طاعة اللّه وعن معصيته وعلى أقدارِهِ، شكورٍ للّه على نِعَمِهِ الدينيَّة والدنيويَّة.

﴿٣٢﴾ وذكر تعالى حال الناس عند ركوبِهِم البحر وغشيان الأمواج كالظُّلل فوقهم أنَّهم يخلِصون الدُّعاء للّه والعبادة، ﴿فلما نجَّاهم إلى البرِّ﴾: انقسموا فريقينِ: فرقة مقتصدة؛ أي: لم تقم بشكر اللّه على وجه الكمال، بل هم مذنبون ظالمون لأنفسهم، وفرقة كافرة لنعمة اللّه جاحدة لها، ولهٰذا قال: ﴿وما يَجْحَدُ بآياتِنا إلَّا كلُّ خَتَّارٍ﴾؛ أي: غدَّار، ومن غدرِهِ أنَّه عاهد ربَّه لئن أنجيتَنا من البحرِ وشدَّتِهِ لنكوننَّ من الشاكرين. فغدر، ولم يفِ بذٰلك. ﴿كفورٍ﴾: لنعم اللّه؛ فهل يَليقُ بِمَنْ نجَّاهم اللّه من هٰذه الشدَّة إلَّا القيام التامُّ بشكر نعم اللّه؟!

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿٣٣﴾ يأمر تعالى الناس بتقواه، التي هي امتثال أوامرِهِ وتركُ زواجرِهِ، ويستلِفتُهم لخشية يوم القيامة، اليوم الشديدِ الذي فيه كلُّ أحدٍ لا يهمُّه إلَّا نفسُهُ. و﴿لا يجزي والدٌ عن ولدِهِ ولا مولودٌ﴾ عن والدِهِ شيئاً: لا يزيدُ في حسناتِهِ ولا ينقصُ من سيئاتِهِ، قد تمَّ على كلِّ عبدٍ عملُه، وتحقَّق عليه جزاؤه. فلفْتُ النظرِ لهٰذا اليوم المَهيل مما يقوِّي العبدَ ويسهِّل عليه تقوى اللّه، وهٰذا من رحمة اللّه بالعباد؛ يأمُرُهم بتقواه التي فيها سعادتُهم، ويَعِدُهم عليها الثواب، ويحذِّرُهم من العقاب، ويزعجهُم إليه بالمواعظِ والمخوفات، فلك الحمدُ يا ربَّ العالمين. ﴿إنَّ وعدَ اللّه حقٌّ﴾: فلا تمتروا فيه، ولا تعملوا عملَ غير المصدِّقِ؛ فلهٰذا قال: ﴿فلا تغرَّنَّكُم الحياةُ الدُّنيا﴾: بزينتها وزخارفها وما فيها من الفتنِ والمحنِ. ﴿ولا يَغُرَّنَّكم باللّه الغرورُ﴾: الذي هو الشيطان، الذي ما زال يخدعُ الإنسان، ولا يغفل عنه في جميع الأوقات؛ فإنَّ للّه على عباده حقًّا، وقد وعدهم موعداً يجازيهم فيه بأعمالهم وهل وَفوا حقَّه أم قصَّروا فيه؟ وهٰذا أمرٌ يجب الاهتمامُ به، وأنْ يجعَلَه العبدُ نُصبَ عينيه ورأسَ مال تجارتِهِ التي يسعى إليه، ومن أعظم العوائق عنه والقواطعِ دونَه الدُّنيا الفتَّانةُ والشيطانُ الموسْوِسُ المسوِّلُ، فنهى تعالى عبادَه أن تَغُرَّهم الدُّنيا أو يَغُرَّهم باللّه الغَرور، ﴿يَعِدُهم ويُمَنِّيهم وما يَعِدُهم الشيطانُ إلَّا غُروراً﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا

تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿٣٤﴾ قد تقرَّر أنَّ الله تعالى أحاطَ علمُه بالغيب والشهادة والظواهِرِ والبواطِن، وقد يُطْلِعُ الله عبادَه على كثيرٍ من الأمور الغيبيَّة، وهٰذه الأمور الخمسة من الأمور التي طَوَى علمها عن جميع الخَلْق؛ فلا يعلمُها نبيٌّ مرسلٌ ولا ملكٌ مقرَّبٌ، فضلاً عن غيرهما، فقال: ﴿إنَّ الله عندَه علم الساعةِ﴾؛ أي: يعلم متى مُرساها؛ كما قال تعالى: ﴿يَسْألونَكَ عن الساعةِ أيَّانَ مُرساها. قُل إنَّما علمُها عند ربِّي لا يُجَلِّيها لوقتِها إلَّا هو لا تأتيكم إلَّا بَغْتَةً...﴾ الآية، ﴿ويُنَزِّلُ الغيثَ﴾؛ أي: هو المنفرد بإنزاله، وعلمِ وقتِ نزولِهِ، ﴿ويعلمُ ما في الأرحام﴾: فهو الذي أنشأ ما فيها، وعلم ما هو؛ هل هو ذكرٌ أم أنثى؟

ولهٰذا يسأل الملك الموكل بالأرحام ربَّه: هل هو ذَكَرٌ أم أنثى؟ فيقضي الله ما يشاء[1]. ﴿وما تَدْري نفسٌ ماذا تكسِبُ غداً﴾: من كَسْبِ دينها ودُنياها، ﴿وما تدري نفسٌ بأيِّ أرض تموتُ﴾: بل الله تعالى هو المختصُّ بعلم ذٰلك جميعه. ولمَّا خصَّص [الله] هٰذه الأشياء؛ عمَّم علمَه بجميع الأشياء، فقال: ﴿إنَّ الله عليمٌ خبيرٌ﴾: محيطٌ بالظواهر والبواطن والخفايا والخبايا والسرائر، ومن حكمتِهِ التامَّة أنْ أخفى علمَ هٰذه الخمسة عن العبادِ؛ لأنَّ في ذٰلك من المصالح ما لا يخفى على من تدبر ذٰلك.

تم تفسير سورة لقمان بفضل الله وعونه والحمد لله.

❁ ❁ ❁

تفسير سورة السجدة

[وهي] مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾﴾.

﴿٢﴾ يخبر تعالى أنَّ هٰذا الكتاب الكريم تنزيلٌ نزل من ربِّ العالمين، الذي

(١) كما في «صحيح البخاري» (٦٥٩٥)، و«مسلم» (٢٦٤٦) من حديث أنس رضي الله عنه.

ربَّاهم بنعمتِهِ، ومن أعظم ما ربَّاهم به هٰذا الكتاب، الذي فيه كلُّ ما يُصْلِحُ أحوالَهم ويتمِّم أخلاقَهم، وأنَّه لا ريبَ فيه ولا شكَّ ولا امتراءَ.

﴿٣﴾ ومع ذٰلك؛ قالَ المكذِّبون للرسول الظالمونَ في ذٰلك: افتراه محمدٌ واختلَقَه من عند نفسه! وهٰذا من أكبر الجراءة على إنكارِ كلام اللَّه، ورَمْي محمدٍ بأعظم الكذِبِ، وقدرة الخَلْق على كلام مثل كلام الخالق، وكلُّ واحد من هٰذه من الأمور العظائم، قال اللَّه رادًّا على من قال: افتراه: ﴿بل هو الحقُّ﴾: الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفِهِ تنزيلٌ من حكيم حميدٍ ﴿من ربِّكَ﴾: أنزله رحمةً للعباد، ﴿لِتُنذِرَ قوماً ما أتاهم من نذيرٍ من قبلِكَ﴾؛ أي: هم في حال ضرورة وفاقةٍ لإرسال الرسول وإنزال الكتاب لعدم النذير، بل هم في جهلهم يَعْمَهون، وفي ظُلمة ضلالهم يتردَّدون، فأنزلنا الكتاب عليك، ﴿لعلَّهم يهتدونَ﴾: من ضلالهم، فيعرفون الحقَّ ويؤثِرونَه. وهٰذه الأشياء التي ذَكَرها اللَّه كلُّها مناقضةٌ لتكذيبهم له، وإنَّها تقتضي منهم الإيمان والتصديق التامَّ به، وهو كونُه من ربِّ العالَمين، وأنَّه حقٌّ، والحق مقبولٌ على كلِّ حال، وأنه لا ريبَ فيه بوجه من الوجوه؛ فليس فيه ما يوجب الريبة؛ لا بخبر غير مطابق لِلواقع[1]، ولا بخفاء واشتباه معانيه، وأنهم في ضرورة وحاجة إلى الرسالة، وأن فيه الهداية لكلِّ خير وإحسان.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾.

﴿٤﴾ يخبر تعالى عن كمال قدرته بخلقه السماوات والأرض في ستة أيام، أولها يوم الأحد، وآخرها الجمعة، مع قدرته على خلقها بلحظة، ولكنَّه تعالى رفيقٌ حكيمٌ، ﴿ثم استوى على العرش﴾: الذي هو سقفُ المخلوقات استواءً يليقُ بجلالِهِ، ﴿ما لكم من دونِهِ من وليٍّ﴾: يتولاَّكم في أمورِكم فينفَعُكم ﴿ولا شفيع﴾:

---

(١) في (ب): «لا بخبر لا يطابق الواقع».

يشفعُ لكم إنْ توجَّه عليكم العقاب. ﴿أفلا تتذكَّرونَ﴾: فتعلمون أنَّ خالق الأرض والسماواتِ، المستوي على العرش العظيم، الذي انفرد بتدبيركم وتولِّيكم، وله الشفاعةُ كلُّها، هو المستحقُّ لجميع أنواع العبادة!

﴿٥﴾ ﴿يدبِّرُ الأمرَ﴾: القدريَّ والأمر الشرعيَّ، الجميع هو المنفرد بتدبيره، نازلةً تلك التدابير من عند الملك القدير، ﴿من السماء إلى الأرض﴾: فيُسْعِدُ بها ويشقي، ويُغني ويُفقر، ويعزُّ ويذلُّ ويكرِم ويُهين، ويرفع أقواماً ويضع آخرينَ، وينزِّل الأرزاق، ﴿ثم يَعْرُجُ إليه﴾؛ أي: الأمر ينزِلُ من عنده، ويعرُجُ إليه ﴿في يوم كان مقدارُهُ ألفَ سنةٍ ممَّا تعدُّونَ﴾: وهو يعرُجُ إليه، ويصِلُه في لحظة.

﴿٦﴾ ﴿ذٰلك﴾: الذي خلق تلك المخلوقات العظيمة، الذي استوى على العرش العظيم، وانفرد بالتدابير في المملكة، ﴿عالمُ الغيب والشهادة العزيزُ الرحيم﴾: فبسعة علمِهِ وكمال عزَّتِهِ وعموم رحمتِهِ أوجَدَها، وأوْدَعَ فيها من المنافع ما أوْدَعَ، ولم يعسُرْ عليه تدبيرُها.

﴿٧﴾ ﴿الذي أحسنَ كلَّ شيءٍ خَلَقَه﴾؛ أي: كلَّ مخلوقٍ خلقَهُ اللّه؛ فإنَّ اللّه أحسن خلقَه، وخَلَقَهُ خلقاً يليقُ به ويوافِقُه؛ فهٰذا عامٌّ، ثم خصَّ الآدميَّ لشرفِهِ وفضلِهِ، فقال: ﴿وبدأ خَلْقَ الإنسانِ من طينٍ﴾: وذٰلك بخلق آدم عليه السلام أبي البشر.

﴿٨﴾ ﴿ثم جعل نَسْلَه﴾؛ أي: ذريَّة آدم ناشئة ﴿من ماء مَهين﴾: وهو النطفةُ المستقذرةُ الضعيفة.

﴿٩﴾ ﴿ثم سوَّاه﴾ بلحمِهِ وأعضائِهِ وأعصابه وعروقِهِ، وأحسن خِلْقَتَه، ووضع كلَّ عضو منه بالمحلِّ الذي لا يليقُ به غيره، ﴿ونفخ فيه من روحِهِ﴾: بأن أرسل إليه المَلَكَ؛ فينفخ فيه الروحَ، فيعود بإذن اللّه حيواناً بعد أن كان جماداً، ﴿وجَعَلَ لكم السمعَ والأبصارَ﴾؛ أي: ما زال يعطيكم من المنافع شيئاً فشيئاً حتى أعطاكم السمع والأبصار ﴿والأفئدة قليلاً ما تشكُرون﴾: الذي خلقكم، وصوَّركم.

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿١٠﴾ أي: قال المكذِّبون بالبعثِ على وجه الاستبعاد: ﴿أإذا ضلَلْنا في الأرض﴾؛ أي: بَلينا وتمزَّقْنا وتفرَّقْنا في المواضع التي لا تعلم، ﴿أإنَّا لَفي خلقٍ

جديدٍ﴾؛ أي: لمبعوثون بعثاً جديداً؛ بزعمهم أن هٰذا من أبعد الأشياء! وذٰلك بقياسهم[1] قدرة الخالق على قُدَرِهِم[2]، وكلامهم هٰذا ليس لطلب الحقيقة، وإنَّما هو ظلمٌ وعنادٌ وكفرٌ بلقاء ربهم وجحدٌ، ولهٰذا قال: ﴿بل هم بلقاءِ ربِّهم كافرونَ﴾: فكلامُهم عُلِمَ[3] مصدرُهُ وغايتُهُ، وإلَّا؛ فلو كان قصدُهم بيان الحق لبُيِّنَ لهم من الأدلَّة القاطعة على ذٰلك ما يجعله مشاهداً للبصيرة بمنزلة الشمس للبصر، ويكفيهم أنهم عندهم[4] علمٌ أنهم قد ابتُدِئوا من العدم؛ فالإعادةُ أسهلُ من الابتداء، وكذٰلك الأرضُ الميتة ينزِلُ اللّه عليها المطرَ فتحيا بعد موتها، وينبتُ به متفرِّقُ بذورها.

﴿١١﴾ ﴿قل يتوفَّاكم مَلَكُ الموت الذي وُكِّلَ بكم﴾؛ أي: جعله اللّه وكيلاً على قبض الأرواح، وله أعوان، ﴿ثمَّ إلى ربِّكم تُرجعونَ﴾: فيجازيكم بأعمالكم، وقد أنكرتُم البعث؛ فانظُروا ماذا يفعلُ اللّه بكم.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿١٢﴾ لما ذكر تعالى رجوعَهم إليه يوم القيامةِ؛ ذكر حالَهم في مقامهم بين يديه، فقال: ﴿ولو ترى إذِ المجرمونَ﴾: الذين أصرُّوا على الذنوبِ العظيمة، ﴿ناكِسوا رؤوسِهِم عند ربِّهم﴾: خاشعين خاضعين، أذلاَّء مقرِّين [بجرمهم][5]، سائلين الرجعة قائلين: ﴿ربَّنا أبصَرْنا وسَمِعْنا﴾؛ أي: بان لنا الأمرُ ورأيناه عياناً، فصار عينَ يقينٍ، ﴿فارجِعْنا نعملْ صالحاً إنَّا موقِنونَ﴾؛ أي: صار عندَنا الآن يقينٌ بما كنا نكذِّب به؛ أي: لرأيت أمراً فظيعاً وحالاً مزعجة وأقواماً خاسرين وسؤالاً غير مجابٍ؛ لأنَّه قد مضى وقتُ الإمهال.

﴿١٣﴾ وكلُّ هٰذا بقضاءِ اللّه وقدرِهِ؛ حيث خلَّى بينَهم وبين الكفر والمعاصي؛

---

(١) في (ب): «لقياسهم». (٢) بقدرهم.
(٣) في (ب): «ظلم». (٤) في (ب): «معهم».
(٥) كذا في (ب). وفي (أ): «بجرمكم».

فلهٰذا قال: ﴿ولو شِئنا لآتينا كلَّ نفس هُداها﴾؛ أي: لهدينا الناس كلَّهم وجَمَعْناهم على الهدى، فمشيئتُنا صالحةٌ لذٰلك، ولٰكنَّ الحكمة تأبى أن يكونوا كلُّهم على الهدى، ولهٰذا قال: ﴿ولٰكنْ حقَّ القولُ مني﴾؛ أي: وجب وثبت ثبوتاً لا تغيُّر فيه، ﴿لأملأنَّ جهنَّم من الجِنَّةِ والناس أجمعينَ﴾: فهٰذا الوعدُ لا بدَّ منه ولا محيدَ عنه؛ فلابدَّ من تقرير أسبابه من الكفرِ والمعاصي.

﴿١٤﴾ ﴿فذوقوا بما نَسيتُم لقاء يومِكُم هٰذا﴾؛ أي: يقال للمجرمين الذين ملكهم الذلُّ، وسألوا الرجعة إلى الدُّنيا؛ ليستدركوا ما فاتهم: قد فات وقت الرجوع، ولم يبق إلَّا العذابُ، فذوقوا العذابَ الأليم بما نسيتُم لقاء يومِكُم هٰذا، وهٰذا النسيانُ نسيانُ ترك؛ أي: بما أعرضتُم عنه، وتركتُم العمل له، وكأنَّكم غير قادمين عليه ولا ملاقيه. ﴿إنَّا نَسيناكُم﴾؛ أي: تركناكم بالعذاب جزاءً من جنس عملِكُم؛ فكما نَسيتم نُسيتم، ﴿وذوقوا عذابَ الخُلْدِ﴾؛ أي: العذاب غير المنقطع؛ فإنَّ العذاب إذا كان له أجلٌ وغايةٌ؛ كان فيه بعضُ التنفيس والتخفيف، وأمَّا عذابُ جهنَّم ـ أعاذنا اللّه منه ـ؛ فليس فيه روحُ راحةٍ ولا انقطاع لعذابهم فيها؛ ﴿بما كنتُم تعملون﴾: من الكفر والفسوقِ والمعاصي.

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿١٥﴾ لما ذَكَرَ الكافرين بآياته وما أعدَّ لهم من العذاب؛ ذَكَرَ المؤمنين بها ووَصْفَهم وما أعدَّ لهم من الثواب، فقال: ﴿إنَّما يؤمنُ بآياتنا﴾؛ أي: إيماناً حقيقيًّا مَنْ يوجد منه شواهدُ الإيمان، وهم ﴿الذين إذا ذُكِّروا﴾ بآياتِ ربِّهم، فتُلِيَتْ عليهم آيات القرآن، وأتتهم النصائحُ على أيدي رسل اللّه، ودُعوا إلى التذكُّر؛ سمعوها فقبلوها وانقادوا و﴿خرُّوا سُجَّداً﴾؛ أي: خاضعين لها خضوعَ ذِكْرٍ للّه وفرح بمعرفتِهِ، ﴿وسبَّحوا بحمدِ ربِّهم وهم لا يستكْبِرونَ﴾: لا بقلوبِهِم ولا بأبدانِهِم فيمتنعون من الانقيادِ لها، بل متواضعون لها، قد تَلَقَّوْها بالقَبول والتسليم وقابَلوها بالانشراح والتسليم، وتوصَّلوا بها إلى مرضاة الربِّ الرحيم، واهتَدَوا بها إلى الصراط المستقيم.

﴿١٦﴾ ﴿تتجافى جُنوبهم عن المضاجِعِ﴾؛ أي: ترتفع جنوبُهم وتنزعجُ عن

مضاجِعِها اللذيذةِ إلى ما هو ألذُّ عندهم منه وأحبُّ إليهم، وهو الصلاة في الليل ومناجاة الله تعالى، ولهذا قال: ﴿يَدعون ربَّهم﴾؛ أي: في جلب مصالِحِهم الدينيَّة والدنيويَّة ودفع مضارِّهما ﴿خوفاً وطمعاً﴾؛ أي: جامعين بين الوصفين؛ خوفاً أن تُرَدَّ أعمالُهم، وطمعاً في قبولها؛ خوفاً من عذاب الله، وطمعاً في ثوابه، ﴿وممَّا رزَقْناهم﴾: من الرزق قليلاً أو كثيراً، ﴿يُنفِقونَ﴾: ولم يذكُر قيد النفقة، ولا المنفَق عليه؛ ليدلَّ على العموم؛ فإنَّه يدخُلُ فيه النفقة الواجبة؛ كالزكوات والكفارات ونفقة الزوجات والأقارب، والنفقة المستحبَّة في وجوه الخير، والنفقة والإحسان المالي خيرٌ مطلقاً؛ سواء وافق فقيراً أو غنيًا[1]، قريباً أو بعيداً، ولكن الأجر يتفاوت بتفاوتِ النفع، فهذا عملهم.

﴿١٧﴾ وأمَّا جزاؤهم؛ فقال: ﴿فلا تعلمُ نفسٌ﴾: يدخل فيه جميعُ نفوس الخلق؛ لكونه نكرةً في سياق النفي؛ أي: فلا يعلمُ أحدٌ ﴿ما أُخْفِيَ لهم من قُرَّةِ أعينٍ﴾: من الخير الكثير والنعيم الغزير والفرح والسرور واللَّذَّة والحبور؛ كما قال تعالى على لسان رسوله: «أعددتُ لِعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خَطَرَ على قلب بشر»[2]؛ فكما صلُّوا في الليل ودعوا وأخفوا العمل؛ جازاهم من جنس عملهم، فأخفى أجرهم، ولهذا قال: ﴿جزاءً بما كانوا يَعْمَلونَ﴾.

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿١٨﴾ ينبِّه تعالى العقول على ما تقرَّرَ فيها من عدم تساوي المتفاوتَيْنِ المتبايِنَيْن، وأن حكمته تقتضي عدم تساويهما، فقال: ﴿أفمن كان مؤمناً﴾: قد عَمَرَ قلبَه بالإيمان، وانقادتْ جوارِحُه لشرائعه، واقتضى إيمانُه آثاره وموجباتِه من ترك مساخِطِ الله التي يضرُّ وجودها بالإيمان، ﴿كمن كان فاسقاً﴾: قد خرب قلبُه وتعطَّل من الإيمان، فلم يكن فيه وازعٌ دينيٌّ، فأسرعتْ جوارحُه بموجبات الجهل

---

(١) في (ب): «غنياً أو فقيرا».

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٧٩) ومسلم (٢٨٢٤) عن أبي هريرة.

والظلم في[1] كلِّ إثم ومعصيةٍ، وخرج بفسقِهِ عن طاعة ربِّه، أفيستوي هٰذان الشخصان؟! ﴿لا يستوونَ﴾: عقلاً وشرعاً؛ كما لا يستوي الليل والنهار والضياء والظلمة، وكذٰلك لا يستوي ثوابُهما في الآخرة.

﴿١٩﴾ ﴿أمَّا الذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ﴾: من فروض ونوافلَ، ﴿فلهم جناتُ﴾ ﴿المأوى﴾؛ أي: الجنات التي هي مأوى اللذَّات، ومعدنُ الخيرات، ومحلُّ الأفراح، ونعيمُ القلوب والنفوس والأرواح، ومحلُّ الخلود، وجوار الملك المعبود، والتمتُّع بقربه والنظر إلى وجهه وسماع خطابه، ﴿نُزُلاً﴾: لهم؛ أي: ضيافةً وقِرىً؛ ﴿بما كانوا يعملونَ﴾: فأعمالُهم التي تَفَضَّلَ الله بها عليهم هي التي أوصلَتْهم لتلك المنازل الغالية العالية، التي لا يمكن التوصُّل إليها ببذل الأموال، ولا بالجنود والخدم، ولا بالأولاد، بل ولا بالنفوس والأرواح، ولا يتقرَّب إليها بشيء أصلاً سوى الإيمان والعمل الصالح.

﴿٢٠﴾ ﴿وأمَّا الذين فَسَقوا فمأواهُمُ النارُ﴾؛ أي: مقرُّهم ومحلُّ خلودهم النارُ، التي جمعت كلَّ عذابٍ وشقاءٍ، ولا يُفَتَّرُ عنهم العقابُ ساعة، ﴿كلَّما أرادوا أن يَخرُجوا منها أُعيدوا فيها﴾: فكلَّما حدَّثتهم إرادتُهم بالخروج لبلوغ العذابِ منهم كلَّ مبلغ؛ رُدُّوا إليها، فذهب عنهم روح ذٰلك الفرج، واشتدَّ عليهم الكرب، ﴿وقيل لهم ذوقوا عذابَ النارِ الذي كنتُم به تكذِّبون﴾.

فهٰذا عذابُ النار الذي يكونُ فيه مقرُّهم ومأواهم، وأما العذابُ الذي قبل ذٰلك ومقدمة له، وهو عذاب البرزخ؛ فقد ذُكِرَ بقوله:

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿٢١﴾ أي: ولنذيقنَّ الفاسقين المكذِّبين نموذجاً من العذاب الأدنى، وهو عذاب البرزخ، فنذيقهم طرفاً منه قبل أن يموتوا: إما بعذابٍ بالقتل ونحوه كما جرى لأهل بدر من المشركين، وإمَّا عند الموت؛ كما في قوله تعالى: ﴿ولو ترى إذِ الظالمونَ في غَمَراتِ الموتِ والملائكةُ باسطوا أيديهم أخرِجوا أنفسَكم اليومَ تُجزَوْنَ عذابَ الهُونِ﴾، ثم يكمل لهم العذابُ الأدنى في برزَخِهم.

وهٰذه الآيةُ من الأدلة على إثبات عذاب القبر، ودلالتُها ظاهرةٌ؛ فإنَّه قال:

(١) في (ب): «من».

﴿وَلَنُذيقَنَّهم من العذاب الأدنى﴾؛ أي: بعض وجزء منه، فدلَّ على أن ثَمَّ عذاباً أدنى قبل العذاب الأكبر، وهو عذاب النار، ولما كانت الإذاقة من العذابِ الأدنى في الدنيا قد لا يَتَّصلُ بها الموت، فأخبر تعالى أنَّه يذيقُهم ذٰلك؛ لعلَّهم يرجِعون إليه، ويتوبون من ذنوبهم؛ كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الفسادُ في البرِّ والبحرِ بما كَسَبَتْ أيدي الناس لِيُذيقَهم بعضَ الذي عَمِلوا لعلَّهم يرجِعونَ﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿٢٢﴾ أي: لا أحد أظلمُ وأزيدُ تعدِّياً ممَّنْ ذُكِّرَ بآيات ربِّه، التي أوصلها إليه ربُّه، الذي يريد تربيتَه وتكميلَ نعمتِهِ عليه على يدِ رسلِهِ، تأمره وتذكِّره مصالحه الدينيَّة والدنيويَّة، وتنهاه عن مضارِّه الدينيَّة والدنيويَّة، التي تقتضي أنْ يقابِلَها بالإيمان والتسليم والانقياد والشكر، فقابلها هٰذا الظالمُ بضدِّ ما ينبغي، فلم يؤمنْ بها ولا اتَّبعها، بل أعرض عنها وتركها وراء ظهرِهِ؛ فهٰذا من أكبر المجرمين، الذين يستحقُّون شديد النقمة، ولهٰذا قال: **﴿إنَّا من المجرِمين منتقِمون﴾**.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿٢٣﴾ لما ذكر تعالى آياتِهِ التي ذَكَّرَ بها عباده، وهو القرآن الذي أنزله على محمدٍ ﷺ، ذكر أنه ليس ببدع من الكتب، ولا من جاء به بغريب من الرسل، فقد آتى اللّٰه **﴿موسى الكتابَ﴾**: الذي هو التوراة المصدِّقَةُ للقرآن، التي قد صَدَّقَها القرآنُ، فتطابق حقُّهما، وثبت برهانُهما. **﴿فلا تكن في مريةٍ من لقائِهِ﴾**: لأنَّه قد تواردتْ أدلَّة الحق وبيناتُه، فلم يبق للشكِّ والمريةِ محلٌّ، **﴿وجعلناه﴾**؛ أي: الكتاب الذي آتيناه موسى **﴿هدىً لبني إسرائيلَ﴾**: يهتدونَ به في أصول دينهم، وفروعهم، وشرائعه موافقةٌ لذٰلك الزمان في بني إسرائيل، وأما هٰذا القرآن الكريم؛ فجعله اللّٰه هدايةً للناس كلِّهم؛ لأنَّه هدايةٌ للخلق في أمر دينهم ودُنياهم إلى يوم القيامة، وذٰلك لكمالِهِ وعلوِّه، ﴿وإنَّه في أمِّ الكتاب لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حكيمٌ﴾.

﴿٢٤﴾ **﴿وجَعَلْنا منهم﴾**؛ أي: من بني إسرائيل، **﴿أئمة يهدونَ بأمرِنا﴾**؛ أي: علماء بالشرع وطرق الهداية مهتدين في أنفسهم يهدون غيرهم بذٰلك الهدى؛ فالكتاب الذي أُنزِل إليهم هدى، والمؤمنون به منهم على قسمين: أئمَّة يهدون

بأمرِ اللّه، وأتباعٌ مهتدون بهم، والقسمُ الأول أرفع الدرجات بعد درجة النبوَّة والرسالة، وهي درجة الصديقين، وإنما نالوا هٰذه الدرجة العالية، ﴿لما صبروا﴾: على التعلُّم والتعليم والدَّعوة إلى اللّه والأذى في سبيله، وكفُّوا نفوسَهم عن جِماحها في المعاصي واسترسالِها في الشهوات. ﴿وكانوا بآياتِنا يوقِنونَ﴾؛ أي: وصلوا في الإيمان بآيات اللّه إلى درجة اليقين، وهو العلم التامُّ الموجب للعمل، وإنَّما وصلوا إلى درجة اليقين؛ لأنَّهم تعلَّموا تعلُّما صحيحاً، وأخذوا المسائل عن أدلتها المفيدة لليقين، فما زالوا يتعلَّمون المسائل، ويستدلُّون عليها بكثرة الدَّلائل، حتى وصلوا لذاك؛ فبالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين.

﴿٢٥﴾ وثمَّ مسائلُ اختلف فيها بنو إسرائيل، منهم من أصاب فيها الحقَّ، ومنهم من أخطأه خطأً أو عمداً، واللّه تعالى ﴿يَفْصِلُ بينَهم يوم القيامةِ فيما كانوا فيه يختلفونَ﴾: وهٰذا القرآن يقصُّ على بني إسرائيل بعض الذي يختلفون فيه؛ فكلُّ خلاف وقع بينهم، ووُجِدَ في القرآن تصديقٌ لأحد القولين؛ فهو الحقُّ، وما عداه مما خالفه باطلٌ.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿٢٦﴾ يعني: أولم يتبيَّن لهٰؤلاء المكذِّبين للرسول[1] ويهديهم إلى الصواب كم أهلَكْنا قبلهم من القرون الذين سَلَكوا مسلَكَهم، ﴿يمشون في مساكنهم﴾: فيشاهِدونها عياناً؛ كقوم هود وصالح وقوم لوط. ﴿إنَّ في ذٰلك لآياتٍ﴾: يستدلُّ بها على صدق الرسل التي جاءتهم، وبطلان ما هم عليه من الشرك والشرِّ، وعلى أنَّ مَنْ فعل مثل فعلهم؛ فُعِلَ بهم كما فُعِلَ بأشياعه من قبل، وعلى أنَّ اللّه تعالى مجازي العباد وباعثهم للحشر والتناد. ﴿أفلا يسمعونَ﴾: آيات اللّه، فيعونَها، فينتفِعون بها؛ فلو كان لهم سمعٌ صحيحٌ وعقلٌ رجيحٌ؛ لم يقيموا على حالةٍ يجزم بها[2] بالهلاك.

---

(١) في (ب): «للرسل».

(٢) في (ب): «لم يجزم».

﴿٢٧﴾ ﴿أولم يَرَوْا﴾: بأبصارهم نعمتنا وكمال حكمتنا، ﴿أنَّا نسوقُ الماء إلى الأرض الجرز﴾: التي لا نبات فيها، فيسوق الله المطر الذي لم يكنْ قبلُ موجوداً فيها، فيفرِغُه فيها من السحاب أو من الأنهار؛ ﴿فنخرِجُ به زرعاً﴾؛ أي: نباتاً مختلف الأنواع، ﴿تأكلُ منه أنعامُهم﴾: وهو نباتُ البهائم ﴿وأنفسُهم﴾: وهو طعام الآدميين. ﴿أفلا يبصِرونَ﴾: تلك المنَّة التي أحيا الله بها البلاد والعباد، فيستبصِرون فيهتدون بذلك البصر وتلك البصيرة إلى الصراط المستقيم؟ ولكن غلب عليهم العمى، واستولتْ عليهم الغفلة، فلم يبصِروا في ذلك بصر الرجال، وإنَّما نظروا إلى ذلك نظر الغفلة ومجرَّد العادة، فلم يوفَّقوا للخير.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿٢٨﴾ أي: يستعجلُ المجرمون بالعذاب الذي وُعِدوا به على التكذيب جهلاً منهم ومعاندةً، ﴿ويقولونَ متى هذا الفتحُ﴾: الذي يفتحُ بيننا وبينكم بتعذيبنا على زعمكم ﴿إن كنتُم﴾ [أيها الرسلُ] ﴿صادقينَ﴾: في دعواكم.

﴿٢٩﴾ ﴿قلْ يومَ الفتح﴾: الذي يحصُلُ به عقابُكم لا تستفيدون به شيئاً؛ فلو كان إذا حَصَلَ؛ حَصَلَ إمهالُكم لتستدركوا ما فاتكم حين صار الأمر عندكم يقيناً؛ لكان لذلك وجه، ولكن إذا جاء يومُ الفتح؛ انقضى الأمرُ، ولم يبق للمحنةِ والابتلاء محلٌّ، فلا ﴿ينفعُ الذين كفروا إيمانُهم﴾: لأنَّه صار إيمانَ ضرورةٍ، ﴿ولا هم يُنظَرون﴾؛ أي: يُمْهَلون، فيؤخَّرُ عنهم العذاب، فيستدركون أمرهم.

﴿٣٠﴾ ﴿فأعرض عنهم﴾: لما وصل خطابهم لك وظلمهم إلى حالة الجَهْل واستعجال العذاب. ﴿وانتظر﴾: الأمر الذي يَحِلُّ بهم؛ فإنَّه لا بدَّ منه، ولكن له أجلٌ إذا جاء لا يتقدَّم ولا يتأخَّر، ﴿إنَّهم منتظرونَ﴾: بك رَيْبَ المنون، ومتربِّصون بكم دوائرَ السوء، والعاقبة للتقوى.

تم تفسير سورة السجدة بحول الله ومنِّه. فله تعالى كمال الحمد والثناء والمجد.

❃ ❃ ❃

تفسير سورة الأحزاب

[وهي] مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٢ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝٣﴾.

﴿١ ـ ٢﴾ أي: يا أيُّها الذي منَّ اللّٰهُ عليه بالنبوَّة واختصَّه بوحيه وفضَّله على سائر الخلق! اشكُرْ نعمة ربِّك عليك باستعمال تَقْواه التي أنت أولى بها من غيرك، والذي يجب عليك منها أعظم من سواك؛ فامتثلْ أوامره ونواهِيَه، وبلِّغْ رسالاته، وأدِّ إلى عبادِهِ وَحْيَهُ، وابذُلِ النصيحةَ للخَلْق، ولا يَصُدَّنَّكَ عن هٰذا المقصود صادٌّ ولا يردُّك عنه رادٌّ، فلا تُطِعِ كلَّ كافرٍ قد أظهر العداوة للّٰه ولرسوله[1]، ولا منافق قد استبطنَ التكذيبَ والكفرَ وأظهر ضدَّه؛ فهٰؤلاء هم الأعداء على الحقيقة؛ فلا تُطِعْهُم في بعض الأمور التي تنقُضُ التقوى وتناقِضُها، ولا تتَّبعْ أهواءهم؛ يضلُّوك عن الصواب. ﴿و﴾ لٰكن ﴿اتَّبِعْ ما يُوحى إليكَ من ربِّكَ﴾: فإنَّه هو الهدى والرحمة، وارجُ بذٰلك ثواب ربِّك؛ فإنه ﴿بما تعملون خبيراً﴾: يجازيكم بحسب ما يَعْلَمُهُ منكم من الخير والشرِّ.

﴿٣﴾ فإنْ وقع في قلبِك أنَّك إن لم تُطِعْهم في أهوائهم المضلَّة؛ حصل عليك منهم ضررٌ، أو حصل نقصٌ في هداية الخلق؛ فادفَعْ ذٰلك عن نفسك، واستعملْ ما يقاوِمُه ويقاوِمُ غيره، وهو التوكُّل على اللّٰه؛ بأن تعتمدَ على ربِّك اعتماد مَنْ لا يملِكُ لنفسه ضرًّا ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً في سلامتك من شرِّهم وفي إقامة الدين الذي أمرتَ به، وثِقْ باللّٰه في حُصول ذٰلك الأمر على أيِّ حال كان.

﴿وكفى باللّٰه وكيلاً﴾: تُوكلُ إليه الأمور، فيقوم بها وبما هو أصلحُ للعبد، وذٰلك لعلمِهِ بمصالح عبدِهِ من حيث لا يعلمُ العبدُ، وقدرتِهِ على إيصالها إليه من حيث لا يقدر عليها العبدُ، وأنَّه أرحم بعبده من نفسه ومن والديه وأرأفُ به من كلِّ

(١) في (ب): «ورسوله».

أحدٍ، خصوصاً خواصَّ عبيده، الذين لم يزل يربِّيهم ببرِّه ويدرُّ عليهم بركاتِهِ الظاهرةَ والباطنةَ، خصوصاً وقد أمَرَهُ بإلقاء أموره إليه، ووعَدَه أن يقوم بها؛ فهناك لا تسأل عن كلِّ أمرٍ يتيسَّر، وصعب يتسهَّل[1]، وخطوبٍ تهون، وكروبٍ تزول، وأحوال وحوائجَ تُقضى، وبركاتٍ تنزل، ونِقَم تُدْفَع، وشرورٍ تُرفع. وهناك ترى العبد، الضعيفَ الذي فوَّضَ أمره لسيِّده قد قام بأمورٍ لا تقوم بها أمَّة من الناس، وقد سهَّل الله عليه ما كان يصعُبُ على فحول الرجال. وبالله المستعان.

﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِأَبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾﴾.

﴿٤﴾ يعاتِبُ تعالى عبادَه عن التكلُّم بما لا حقيقةَ له من الأقوال، ولم يجعلْه الله تعالى كما قالوا؛ فإنَّ ذلك القول منكم كذبٌ وزورٌ يترتَّب عليه منكراتٌ من الشرع، وهذه قاعدةٌ عامةٌ في التكلُّم في كلِّ شيء والإخبار بوقوع ووجود ما لَمْ يَجْعَلْه الله تعالى، ولكن خصَّ هذه الأشياء المذكورة لوقوعها وشدة الحاجة إلى بيانها، فقال: ﴿ما جَعَلَ الله لرجل مِن قَلْبَيْنِ في جَوْفِهِ﴾: هذا لا يوجد؛ فإيَّاكم أن تقولوا عن أحدٍ: إنَّ له قلبينِ في جوفه، فتكونوا كاذبين على الخلقة الإلهية، ﴿وما جعل أزواجَكم اللاَّئي تظاهِرون منهنَّ﴾: بأن يقولَ أحدكم لزوجتِهِ أنتِ عليَّ كظهر أمي أو كأمي؛ فما جعلهنَّ الله ﴿أمَّهاتِكم﴾: أمُّك مَنْ وَلَدَتْكَ وصارتْ أعظم النساءِ عليك حرمةً وتحريماً، وزوجتُك أحلُّ النساء لك؛ فكيف تشبِّه أحد المتناقضين بالآخر؟! هذا أمرٌ لا يجوز؛ كما قال تعالى: ﴿الذين يُظاهِرون منكم مِن نسائِهِم ما هنَّ أمَّهاتِهِم إنْ أمهاتُهم إلا اللاَّئي وَلَدْنَهُمْ وإنَّهم ليقولون مُنكراً من القول وزوراً﴾.

﴿وما جَعَلَ أدْعِياءَكم أبناءَكم﴾: والأدعياء: الولد الذي كان الرجل يدَّعيه وهو ليس له، أو يُدعى إليه بسبب تبنِّيه إيَّاه؛ كما كان الأمر في الجاهلية[2] وأول الإسلام، فأراد الله تعالى أن يُبْطِلَه ويزيلَه، فقدَّم بين يدي ذلك بيانَ قُبحه، وأنَّه باطلٌ وكذبٌ، وكل باطلٍ وكذبٍ لا يوجد في شرع الله ولا يتَّصف به عبادُ الله،

---

(١) في (ب): «يسهل».　　(٢) في (ب): «بالجاهلية».

يقول تعالى: فاللَّه لم يجعل الأدعياءَ الذين تَدَّعونَهم أو يُدعونَ إليكم أبناءكم؛ فإنَّ أبناءكم في الحقيقة مَنْ وَلَدْتُموهم وكانوا منكم، وأمَّا هٰؤلاء الأدعياء من غيركم؛ فلا جعل اللَّه هٰذا كهٰذا، ﴿ذٰلكم﴾: القول الذي تقولون في الدَّعِيِّ: إنَّه ابنُ فلان الذي ادَّعاه، أو والده فلان، ﴿قولُكم بأفواهِكم﴾؛ أي: قولٌ لا حقيقةَ له ولا معنى له، ﴿واللَّهُ يقولُ الحقَّ﴾؛ أي: اليقين والصدق؛ فلذٰلك أمركم باتِّباعه على قوله وشرعِهِ؛ فقولُه حقٌّ، وشرعُهُ حقٌّ، والأقوال والأفعال الباطلة لا تُنسب إليه بوجه من الوجوه، وليست من هدايته؛ لأنه لا يَهْدي إلَّا إلى السبيل المستقيمة والطرق الصادقة، وإنْ كان ذٰلك واقعاً بمشيئتِهِ؛ فمشيئته عامَّةٌ لكلِّ ما وجد من خيرٍ وشرٍّ.

﴿٥﴾ ثم صرح لهم بترك الحالة الأولى المتضمِّنة للقول الباطل، فقال: ﴿ادعوهُم﴾؛ أي: الأدعياء ﴿لآبائِهِم﴾: الذين ولدوهم ﴿هو أقسطُ عند اللَّه﴾؛ أي: أعدلُ وأقوم وأهدى، ﴿فإن لم تَعلَموا آباءَهم﴾: الحقيقيين ﴿فإخوانكم في الدين ومَواليكُم﴾؛ أي: إخوتكم في دين اللَّه ومواليكم في ذٰلك؛ فادعوهم بالأخوة الإيمانيَّة الصادقة والموالاة على ذٰلك؛ فترك الدعوة إلى من تبنَّاهم حَتْمٌ لا يجوز فعلها، وأما دعاؤهم لآبائهم؛ فإنْ علموا؛ دعوا إليهم، وإن لم يعلموا؛ اقتُصِر على ما يُعْلَمُ منهم، وهو أخوة الدين والموالاة؛ فلا تظنُّوا أنَّ حالة عدم علمكم بآبائهم عذرٌ في دعوتهم إلى مَن تبنَّاهم؛ لأن المحذور لا يزول بذٰلك.

﴿وليس عليكم جُناحٌ فيما أخطأتُم به﴾: بأنْ سَبَقَ على لسان أحدِكم دعوتُهُ إلى مَنْ تبنَّاه؛ فهٰذا غير مؤاخذٍ به، أو علم أبوه ظاهراً فدعوتُموه إليه، وهو في الباطن غير أبيه[(١)]؛ فليس عليكم[(٢)] في ذٰلك حَرَجٌ إذا كان خطأً. ﴿ولٰكنْ﴾ يؤاخِذُكُم بما تعمَّدَتْ قلوبُكم من الكلام بما لا يجوزُ. ﴿وكان اللَّه غفوراً رحيماً﴾: غفر لكم ورحمكم؛ حيث لم يعاقِبْكم بما سَلَفَ، وسمح لكم بما أخطأتُم به، ورحِمَكُم؛ حيث بين لكم أحكامَه التي تُصْلِحُ دينكم ودُنياكم؛ فله الحمد تعالى.

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ٦﴾.

---

(١) في (ب): «ليس أباه».
(٢) في (ب): «فليس في عليكم».

﴿٦﴾ يخبر تعالى المؤمنين خبراً يعرِفون به حالة الرسول ﷺ ومرتَبَته، فيعامِلونه بمقتضى تلك الحالة، فقال: ﴿النبيُّ أولى بالمؤمنين من أنفُسِهم﴾: أقرب ما للإنسان وأولى ما له نفسُه؛ فالرسولُ أولى به من نفسِهِ؛ لأنَّه عليه الصلاة والسلام بَذَلَ لهم من النُّصح والشفقة والرأفة ما كان به أرحم الخلق وأرأفهم؛ فرسولُ اللّه أعظمُ الخلق مِنَّةً عليهم من كلِّ أحدٍ؛ فإنَّه لم يصل إليهم مثقالُ ذرَّةٍ من الخير ولا اندفَعَ عنهم مثقالُ ذرَّةٍ من الشرِّ إلَّا على يديه وبسببه؛ فلذٰلك وجب عليهم[1] إذا تعارض مرادُ النفس أو مرادُ أحدٍ من الناس مع مرادِ الرسول أنْ يقدم مراد الرسول، وأنْ لا يعارِضَ قول الرسولِ بقول أحدٍ كائناً ما كان، وأنْ يَفْدوه بأنفسهم وأموالهم وأولادهم، ويقدِّموا محبَّته على محبة الخلقِ كلِّهم، وألَّا يقولوا حتى يقولَ، ولا يتقدَّموا بين يديه، وهو ﷺ أبٌ للمؤمنين؛ كما في قراءة بعضِ الصحابة يربِّيهم كما يربِّي الوالدُ أولاده، فترتَّب على هٰذه الأبوَّة أنْ كان نساؤه أمهاتِهم؛ أي: في الحرمة والاحترام والإكرام، لا في الخلوة والمحرميَّة، وكأنَّ هٰذا مقدِّمة لما سيأتي في قصة زيد بن حارثة، الذي كان يُدْعى قبلُ زيد بن محمد، حتى أنزل اللّه: ﴿ما كانَ محمدٌ أبا أحدٍ من رجالِكم﴾، فقطع نَسَبَه وانتسابَه منه.

فأخبر في هٰذه الآية أنَّ المؤمنين كلَّهم أولادٌ للرسول؛ فلا مزيَّة لأحدٍ عن أحدٍ، وإن انقطعَ عن أحدِهم انتسابُ الدعوة؛ فإنَّ النسبَ الإيمانيَّ لم ينقطعْ عنه؛ فلا يحزنْ ولا يأسفْ، وترتَّب على أنَّ زوجات الرسول أمهاتُ المؤمنين: أنَّهنَّ لا يحللنَ[2] لأحدٍ من بعده؛ كما سيصرِّح[3] بذٰلك، ولا يحلُّ لكم أن تَنْكِحوا أزواجَه من بعدِهِ أبدا.

﴿وأولو الأرحام﴾؛ أي: الأقارب قَرُبوا أو بعدوا ﴿بعضُهم أولى ببعضٍ في كتاب اللّه﴾؛ أي: في حكمه، فيرثُ بعضُهم بعضاً ويبرُّ بعضُهم بعضاً؛ فهم أولى من الحلف والنصرة، والأدعياءُ الذين كانوا من قبلُ يرثون بهٰذه الأسباب دون ذوي الأرحام، فقطع تعالى التوارُثَ بذٰلك، وجعله للأقارب لطفاً منه وحكمةً؛ فإنَّ الأمر لو استمرَّ على العادة السابقة؛ لحصل من الفساد والشرِّ والتحيُّل لحرمان الأقارب من الميراث شيءٌ كثيرٌ، ﴿من المؤمنينَ والمهاجرينَ﴾؛ أي: سواء كان الأقاربُ مؤمنين مهاجرين أو[4] غيرَ مهاجرين؛ فإنَّ ذوي الأرحام مقدَّمون في ذٰلك. وهٰذه

---

(١) في (ب): «عليه».
(٢) في (ب): «لا يحل».
(٣) في (ب): «كما الله صرح».
(٤) في (ب): «و».

الآية حجَّة على ولاية ذوي الأرحام في جميع الولايات؛ كولاية النكاح والمال وغير ذٰلك، ﴿إلَّا أن تفعَلوا إلى أوليائِكم معروفاً﴾؛ أي: ليس لهم حقٌّ مفروضٌ، وإنَّما هو بإرادتِكم، إنْ شئتُم أن تتبرَّعوا[1] لهم تبرُّعاً وتُعطوهم معروفاً منكم، ﴿كان﴾: ذٰلك الحكم المذكور ﴿في الكتابِ مسطوراً﴾؛ أي: قد سُطِرَ وكُتبَ وقدَّره الله؛ فلا بدَّ من نفوذه.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ۝٧ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ۝٨﴾.

﴿٧ ـ ٨﴾ يخبر تعالى أنَّه أخذ من النبيِّين عموماً ومن أولي العزم ـ وهم هٰؤلاء الخمسة المذكورون خصوصاً ـ ميثاقَهم الغليظَ وعهدَهم الثقيل المؤكَّد على القيام بدين الله والجهادِ في سبيله، وأنَّ هٰذا سبيلٌ قد مشى عليه الأنبياءُ المتقدِّمون، حتى خُتموا بسيِّدهم وأفضلهم محمد ﷺ، وأمر الناس بالاقتداء بهم، وسيسأل الله الأنبياء وأتباعهم عن هٰذا العهد الغليظ؛ هل وَفوا فيه وصدَقوا فيثيبهم جناتِ النعيم، أم كفروا فيعذِّبهم العذاب الأليم؟ قال تعالى: ﴿من المؤمنينَ رجالٌ صَدَقوا ما عاهَدوا الله عليه﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١﴾.

﴿٩ ـ ١١﴾ يذكِّر تعالى عبادَه المؤمنين نعمته عليهم، ويحثُّهم على شكرها حين جاءتهم جنودُ أهل مكَّة والحجاز من فوقهم وأهل نجد من أسفلَ منهم، وتعاقَدوا وتعاهدوا على استئصال الرسول والصحابة، وذٰلك في وقعة الخندق، ومالأتهم طوائفُ اليهود الذين حوالي المدينة، فجاؤوا بجنودٍ عظيمةٍ وأمم كثيرة، وخندقَ رسولُ الله ﷺ على المدينة، فحصروا المدينة، واشتدَّ الأمر، وبلغتِ القلوب الحناجرَ، حتى بلغ الظنُّ من كثير من الناس كلَّ مبلغ لما رأوا من الأسباب

(١) في (ب): «تبرعوا».

المستحكمة والشدائد الشديدة، فلم يزل الحصارُ على المدينة مدةً طويلة، والأمر كما وصف الله: ﴿وإذْ زاغتِ الأبصارُ وبلغتِ القلوبُ الحناجرَ وتظنُّونَ باللّه الظُّنونا﴾؛ أي: الظنون السيئة أنَّ الله لا ينصر دينَه ولا يتمُّ كلمته، ﴿هنالك ابْتُلي المؤمنون﴾: بهذه الفتنة العظيمة، ﴿وزُلْزِلوا زلزالاً شديداً﴾: بالخوف والقلق والجوع؛ ليتبيَّن إيمانهم ويزيد إيقانهم، فظهر ولله الحمد من إيمانهم وشدة يقينهم ما فاقوا فيه الأولين والآخرين. وعندما اشتدَّ الكربُ وتفاقمتِ الشدائدُ؛ صار إيمانُهم عين اليقين، ﴿ولمَّا رأى المؤمنونَ الأحزابَ قالوا هذا ما وَعَدَنا اللّهُ ورسولُه وصدق الله ورسوله وما زادَهُم إلَّا إيماناً وتسليماً﴾.

وهنالك تبيَّن نفاق المنافقين، وظهر ما كانوا يضمرون؛ قال تعالى:

﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾.

﴿١٢﴾ وهذه عادة المنافق عند الشدَّة والمحنة؛ لا يثبتُ إيمانه، وينظر بعقله القاصر إلى الحالة الحاضرة[1]، ويصدِّق ظنَّه.

﴿[وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ
يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ
سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا
يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ
ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ
بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ
وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ
يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ
حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾
يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ
عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ

(١) في (ب): «القاصرة».

حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ
هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ
رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾
لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا
رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ
ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ
ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ
وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾]‏[1].

﴿١٣﴾ ﴿وإذ قالت طائفة﴾: من المنافقين بعد ما جزعوا وقلَّ صبرُهم صاروا أيضاً من المخذِّلين؛ فلا صبروا بأنفسهم، ولا تركوا الناس من شرِّهم، فقالت هٰذه الطائفة: ﴿يا أهلَ يَثْرِبَ﴾: يريدون: يا أهل المدينة! فنادَوهم باسم الوطن المنبىء[2] عن التسمية فيه؛ إشارةً إلى أنَّ الدين والأخوة الإيمانيَّة ليس له في قلوبهم قدرٌ؛ وأنَّ الذي حملهم على ذٰلك مجردُ الخور الطبيعي. ﴿يا أهلَ يثربَ لا مُقام لكم﴾؛ أي: في موضعكم الذي خرجتُم إليه خارج المدينة، وكانوا عسكروا دون الخندق وخارج المدينة، ﴿فارجِعوا﴾: إلى المدينةِ. فهٰذه الطائفةُ تُخَذِّلُ عن الجهاد وتبيِّن أنَّهم لا قوة لهم بقتال عدوِّهم ويأمرونهم بترك القتال؛ فهٰذه الطائفةُ أشرُّ الطوائف وأضرُّها، وطائفةٌ أخرى دونهم، أصابهم الجبنُ والجزع، وأحبُّوا أن ينخزلوا عن الصفوف، فجعلوا يعتذرون بالأعذار الباطلة، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿ويستأذنُ فريقٌ منهم النبيَّ يقولونَ إنَّ بيوتَنا عورةٌ﴾؛ أي: عليها الخطر ونخافُ عليها أن يَهْجُمَ عليها الأعداءُ ونحن غيبٌ عنها؛ فأذن لنا؛ نرجع إليها فنحرسها، وهم كذبةٌ في ذٰلك، ﴿وما هي بعورةٍ إن يريدون﴾؛ أي: ما قصدُهم ﴿إلَّا فراراً﴾: ولٰكن جعلوا هٰذا الكلام وسيلةً وعذراً لهم؛ فهٰؤلاء قلَّ إيمانُهم، وليس له ثبوتٌ عند اشتدادِ المحنِ.

﴿١٤﴾ ﴿ولو دُخلت عليهم﴾: المدينةُ ﴿من أقطارِها﴾؛ أي: لو دخل الكفار إليها

---

(١) الآيات ما بين المعقوفتين إلى ٢٧ لا توجد في النسختين.

(٢) في (ب): «المبني فيه».

من نواحيها واستولوا عليها؛ لا كان ذٰلك، ثم سُئِلَ هٰؤلاء ﴿الفتنة﴾؛ أي: الانقلاب عن دينهم والرجوع إلى دين المستولين المتغلبين، ﴿لآتَوْها﴾؛ أي: لأعطوها مبادرين، ﴿وما تَلَبَّثوا بها إلَّا يسيراً﴾؛ أي: ليس لهم منعة ولا تصلُّب على الدين، بل بمجرَّد ما تكون الدولة للأعداء؛ يعطونهم ما طلبوا، ويوافقونهم على كفرهم.

﴿١٥﴾ هٰذه حالهم، والحال أنهم قد ﴿عاهدوا الله من قبلُ لا يولُّونَ الأدبارَ وكانَ عهدُ الله مسؤولاً﴾: سيسألُهم عن ذٰلك العهد، فيجِدُهم قد نَقَضوه؛ فما ظنُّهم إذاً بربِّهم؟!

﴿١٦﴾ ﴿قل﴾: لهم لائماً على فرارهم ومخبراً أنَّهم لا يفيدُهم ذٰلك شيئاً: ﴿لن يَنفَعَكُم الفرارُ إن فَرَرْتُم من الموتِ أو القتلِ﴾: فلو كنتُم في بيوتكم؛ لبرزَ الذين كُتِبَ عليهم القتلُ إلى مضاجعهم، والأسبابُ تنفع إذا لم يعارِضْها القضاء والقدر؛ فإذا جاء القضاء والقدر؛ تلاشى كلُّ سبب، وبطلت[1] كل وسيلة ظنها الإنسان تنجيه، ﴿وإذاً﴾: حين فررتُم؛ لتسلموا من الموت والقتل، لتنعموا في الدنيا؛ فإنَّكم ﴿لا تُمَتَّعون إلَّا قليلاً﴾: متاعاً لا يسوى فراركم وترككم أمر الله وتفويتُكم على أنفسِكم التمتُّع الأبديَّ في النعيم السرمديِّ.

﴿١٧﴾ ثم بيَّن أنَّ الأسباب كلَّها لا تغني عن العبد شيئاً إذا أراده الله بسوءٍ، فقال: ﴿قل من ذا الذي يعصِمُكم﴾؛ أي: يمنَعُكم من ﴿اللهِ إنْ أراد بكم سوءاً﴾؛ أي: شرًّا، ﴿أو أراد بكم رحمةً﴾: فإنَّه هو المعطي المانع، الضار النافع، الذي لا يأتي بالخير إلَّا هو، ولا يدفعُ السوء إلَّا هو، ﴿ولا يجدونَ لهم من دون الله وليًّا﴾: يتولَّاهم فيجلب لهم المنافع[2] ﴿ولا نصيراً﴾: ينصرهم[3] فيدفعُ عنهم المضارَّ؛ فليمتثلوا طاعة المنفرد بالأمور كلِّها، الذي نفذت مشيئتُه ومضى قدرُه ولم ينفعْ مع ترك ولايتِهِ ونصرتِهِ وليٌّ ولا ناصرٌ.

﴿١٨﴾ ثم توعد تعالى المخذِّلين المعوِّقين وتهدَّدهم فقال: ﴿قد يعلمُ الله المعوِّقينَ منكم﴾: عن الخروج لمن لم يخرجوا، ﴿والقائلين لإخوانهم﴾: الذين خرجوا: ﴿هَلُمَّ إلينا﴾؛ أي: ارجِعوا كما تقدَّم من قولهم: ﴿يا أهل يثربَ لا مُقامَ لكم فارْجِعوا﴾، وهم مع تعويقِهم وتخذيلِهم ﴿لا يأتون البأسَ﴾: القتال والجهاد

(١) في (ب): «وبطل».
(٢) في (ب): «النفع».
(٣) في (ب): «أي ينصرهم».

بأنفسهم، ﴿إِلَّا قليلا﴾: فهم أشدُّ الناس حرصاً على التخلُّف لعدم الداعي لذٰلك من الإيمان والصبر، [ووجود] المقتضي للجبن من النفاق وعدم الإيمان.

﴿١٩﴾ ﴿أَشِحَّة عليكم﴾: بأبدانهم عند[1] القتال، وأموالهم عند النفقة فيه؛ فلا يجاهدون بأموالهم وأنفسهم، ﴿فإذا جاء الخوفُ رأيتَهم ينظُرون إليك﴾: نظر المَغْشِيِّ ﴿عليه من الموت﴾: من شدَّة الجبن الذي خلع قلوبَهم والقلقِ الذي أذهلهم وخوفاً من إجبارِهم على ما يكرهون من القتال، ﴿فإذا ذهب الخوفُ﴾: وصاروا في حال الأمن والطمأنينة؛ ﴿سَلَقوكم بألسنةٍ حدادٍ﴾؛ أي: خاطبوكم وتكلَّموا معكم بكلام حديدٍ ودعاوٍ غير صحيحة، وحين تسمعُهم تظنُّهم أهلَ الشجاعة والإقدام. ﴿أشحَّة على الخيرِ﴾: الذي يُراد منهم، وهٰذا شرُّ ما في الإنسان: أن يكون شحيحاً بما أُمِر به، شحيحاً بماله أن ينفِقَه في وجهه، شحيحاً في بدنِهِ أن يجاهِدَ أعداء اللّه أو يدعو إلى سبيل اللّه، شحيحاً بجاهه، شحيحاً بعلمه ونصيحته ورأيه. ﴿أولئك﴾: الذين بتلك الحالة ﴿لم يُؤْمِنوا﴾: بسبب عدم إيمانهم؛ أحبط الله أعمالهم. ﴿وكان ذٰلك على اللّه يسيراً﴾: وأما المؤمنون؛ فقد وقاهُم اللّهُ شحَّ أنفسهم، ووفَّقهم لبذل ما أُمِروا به من بذل أبدانهم في القتال في سبيله وإعلاء كلمتِهِ، وأموالهم للنفقة في طرق الخير، وجاههم وعلمهم.

﴿٢٠﴾ ﴿يحسبون الأحزابَ لم يذهبوا﴾؛ أي: يظنُّون أنَّ هٰؤلاء الأحزاب الذين تحزَّبوا على حرب رسول اللّه ﷺ وأصحابِهِ لم يَذْهَبوا حتى يستأصِلوهم، فخاب ظنُّهم، وبطل حسبانهم. ﴿وإن يأتِ الأحزابُ﴾: مرةً أخرى، ﴿يودُّوا لو أنَّهم بادون في الأعراب يسألونَ عن أنبائِكُم﴾؛ أي: لو أتى الأحزابُ مرة ثانية مثل هٰذه المرة؛ ودَّ هٰؤلاء المنافقون أنهم ليسوا في المدينة، ولا في القربِ منها، وأنهم مع الأعرابِ في البادية، يستخبرون عن أخباركم، ويسألون عن أنبائكم ماذا حَصَلَ عليكم؛ فتبًّا لهم وبعداً؛ فليسوا ممن يُغالى[2] بحضورهم، فلو ﴿كانوا فيكم ما قاتلوا إِلَّا قليلا﴾: فلا تبالوهم، ولا تأسَوْا عليهم.

﴿٢١﴾ ﴿لقد كان لكم في رسول اللّه أسوةٌ حسنةٌ﴾: حيث حَضَرَ الهيجاءَ بنفسه الكريمة، وباشرَ موقفَ الحرب وهو الشريفُ الكاملُ والبطل[3] الباسلُ، فكيف تشحُّون

---

(١) في (ب): «عن». (٢) في (ب): «يبالي».

(٣) في (ب): «الكامل البطل».

بأنفسكم عن أمرٍ جادَ[١] رسولُ الله ﷺ بنفسه فيه، فتأسَّوْا به في هٰذا الأمر وغيره.

واستدَّل الأصوليُّون في هٰذه الآية على الاحتجاج بأفعال الرسول ﷺ، وأنَّ الأصل أنَّ أمَّته أسوتُه في الأحكام؛ إلَّا ما دلَّ الدليل الشرعيُّ على الاختصاص به؛ فالأسوةُ نوعان: أسوةٌ حسنةٌ وأسوةٌ سيئةٌ، فالأسوةُ الحسنةُ في الرسول ﷺ؛ فإنَّ المتأسِّي به سالكٌ الطريق الموصل إلى كرامة الله، وهو الصراط المستقيم، وأمَّا الأسوة بغيره إذا خالَفَه؛ فهو الأسوة السيئة؛ كقول المشركين[٢] حين دعتهم الرسل للتأسِّي بهم: ﴿إنَّا وَجَدْنا آباءنا على أمَّةٍ وإنَّا على آثارِهِم مهتدونَ﴾: وهٰذه الأسوةُ الحسنةُ إنَّما يسلُكُها ويوفَّقُ لها مَنْ كان يرجو الله واليوم الآخر؛ فإنَّ ذٰلك ما معه[٣] من الإيمانِ وخوفِ الله ورجاء ثوابِهِ وخوفِ عقابِهِ يحثُّه على التأسِّي بالرسول ﷺ.

﴿٢٢﴾ لما ذكر حالة المنافقين عند الخوفِ؛ ذكر حالَ المؤمنين فقال: ﴿ولمَّا رأى المؤمنون الأحزابَ﴾: الذين تحزَّبوا ونزلوا منازِلَهم وانتهى الخوفُ، ﴿قالوا هٰذا ما وَعَدَنا اللهُ ورسولُه﴾: في قوله: ﴿أم حسبتُم أن تدخُلوا الجنَّةَ ولما يأتِكُم مَثَلُ الذين خَلَوْا من قبلِكم مسَّتْهم البأساءُ والضَّراءُ وزلزلوا حتى يقولَ الرسول والذين آمنوا معه متى نصرُ الله ألا إنَّ نصر الله قريبٌ﴾، ﴿وصَدَقَ اللهُ ورسولُه﴾: فإنا رأينا ما أَخبَرَنا به، ﴿وما زادَهُم﴾: ذٰلك الأمر ﴿إلَّا إيماناً﴾: في قلوبهم، ﴿وتسليماً﴾: في جوارحهم، وانقياداً لأمر الله.

﴿٢٣﴾ ولما ذكر أنَّ المنافقين عاهدوا الله لا يولُّون الأدبار ونقضوا ذٰلك العهد؛ ذكر وفاء المؤمنين به، فقال: ﴿من المؤمنينَ رجالٌ صَدَقوا ما عاهَدوا الله عليه﴾؛ أي: وَفَّوْا به وأتموُه وأكملوه، فبذلوا مُهَجَهُم في مرضاتِهِ، وسبَّلوا نفوسهم في طاعته. ﴿فمنهم من قضى نحبَهُ﴾؛ أي: إرادته ومطلوبَه وما عليه من الحقِّ، فقُتل في سبيل الله أو مات مؤدياً لحقِّه لم ينقصْه شيئاً، ﴿ومنهم مَن ينتظِرُ﴾: تكميل ما عليه؛ فهو شارعٌ في قضاء ما عليه ووفاء نحبِهِ ولما يُكمِلْه، وهو في رجاء تكميله ساعٍ في ذٰلك مجدٌّ، ﴿وما بَدَّلوا تبديلاً﴾: كما بدَّل غيرُهم، بل لم يزالوا على العهد، لا يلوون ولا يتغيرون؛ فهٰؤلاء الرجال على الحقيقة، ومن[٤] عداهم فصُورُهم صورُ رجال وأما الصفاتُ؛ فقد قَصُرَتْ عن صفاتِ الرجال.

---

(١) في (ب): «جاء».
(٢) الكفار.
(٣) في (ب): «فإن ما معه».
(٤) في (ب): «وما».

﴿٢٤﴾ ﴿لِيَجْزِيَ اللّٰهُ الصادقينَ بصِدْقِهم﴾؛ أي: بسبب صدقهم في أقوالهم وأحوالهم ومعاملتهم مع اللّٰه واستواء ظاهِرِهم وباطِنِهم، قال اللّٰه تعالى: ﴿هٰذا يومُ يَنفَعُ الصادقينَ صدقُهم لهم جناتٌ تجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها أبداً. . .﴾ الآية؛ أي: قدَّرنا ما قدَّرنا من هٰذه الفتن والمحن والزلازل ليتبيَّن الصادق من الكاذب، فيَجزِيَ الصادقين بصدقهم، ﴿ويعذِّبَ المنافقين﴾: الذين تغيَّرتْ قلوبُهم وأعمالُهم عند حلول الفتن، ولم يَفوا بما عاهدوا اللّٰه عليه، ﴿إن شاءَ﴾: تعذيبَهم؛ بأنْ لم يشأ هدايتهم، بل علم أنَّهم لا خير فيهم، فلم يوفِّقْهم، ﴿أو يتوبَ عليهم﴾: بأنْ يوفِّقَهم للتوبة والإنابة، وهٰذا هو الغالب على كرم الكريم، ولهٰذا ختم الآية باسمين دالَّيْنِ على المغفرة والفضل والإحسان، فقال: ﴿إنَّ اللّٰه كان غفوراً رحيماً﴾؛ غفوراً لذنوب المسرفين على أنفسهم، ولو أكثروا من العصيان، إذا أتَوْا بالمتاب. ﴿رحيماً﴾: بهم؛ حيث وفَّقهم للتوبة، ثم قَبِلها منهم، وستر عليهم ما اجْتَرحوه.

﴿٢٥﴾ ﴿وردَّ اللّٰه الذين كفروا بغيظِهِم لم ينالوا خيراً﴾؛ أي: ردَّهم خائبين، لم يحصُل لهم الأمر الذي كانوا حريصين عليه، مغتاظين، قادرين عليه، جازِمين بأنَّ لهم الدائرة، قد غرَّتهم جموعهم وأُعْجبوا بتحزُّبهم وفرِحوا بعددِهم وعددِهم، فأرسل اللّٰه عليهم ريحاً عظيمةً، وهي(١) ريح الصَّبا، فزعزعت مراكزَهم، وقوَّضت خيامهم، وكفأت قدورَهم، وأزعجتهم، وضربهم اللّٰه بالرعب، فانصرفوا بغيظهم، وهٰذا من نصر اللّٰه لعباده المؤمنين. ﴿وكفى اللّٰهُ المؤمنينَ القتال﴾: بما صَنَعَ لهم من الأسباب العاديَّة والقدريَّة. ﴿وكان اللّٰه قويًّا عزيزاً﴾: لا يغالِبُه أحدٌ إلَّا غُلِب، ولا يستنصره أحدٌ إلا غَلَب، ولا يعجِزُه أمرٌ أراده، ولا ينفع أهل القوَّة والعزَّة قوتُهم وعزَّتُهم إن لم يُعِنْهُم بقوَّته وعزَّته.

﴿٢٦﴾ ﴿وأنزلَ الذين ظاهَروهم﴾؛ أي: عاونوهم ﴿من أهل الكتاب﴾؛ أي: من اليهود ﴿من صياصِيهم﴾؛ أي: أنزلهم من حصونهم نزولاً مظفوراً بهم مجعولين تحت حكم الإسلام، ﴿وَقَذَفَ في قلوبِهِمُ الرعبَ﴾: فلم يقووا على القتال، بل استسلموا وخضعوا وذلُّوا. ﴿فريقاً تقتلون﴾: وهم الرجال المقاتلون، ﴿وتأسرونَ فريقاً﴾: من عداهم من النساء والصبيان.

---

(١) في (ب): «وهو».

﴿٢٧﴾ ﴿وأورَثَكم﴾؛ أي: غنمكم ﴿أرضَهم وديارَهم وأموالَهم وأرضاً لم تطؤوها﴾؛ أي: أرضاً كانت من قبلُ من شرفِها وعزَّتِها عند أهلها لا تتمكَّنون من وطئها، فمكَّنكم اللّه، وخَذَلَهم، وغَنِمْتُم أموالهم، وقتلتموهم، وأسرْتُموهم، ﴿وكان اللّهُ على كلِّ شيءٍ قديراً﴾: لا يعجِزُه شيء، ومن قدرتِهِ قدَّر لكم ما قدَّر.

وكانت هٰذه الطائفة من أهل الكتاب هم بنو قريظةَ من اليهود في قريةٍ خارج المدينة غير بعيد، وكان النبي ﷺ حين هاجر إلى المدينة وادَعَهم وهادَنَهم فلم يقاتلهم ولم يقاتِلوه، وهم باقون على دينهم، لم يغيِّر عليهم شيئاً، فلما رأوا يوم الخندق الأحزاب الذين تحزَّبوا على رسول اللّه وكَثْرتَهم وقلَّةَ المسلمين، وظنُّوا أنهم سيستأصلون الرسول والمؤمنين، وساعد على ذٰلك تدجيلُ بعض رؤسائهم عليهم، فنقضوا العهدَ الذي بينهم وبين رسول اللّه ﷺ، ومالؤوا المشركين على قتاله، فلما خَذَلَ اللّه المشركين؛ تفرَّغ رسول الله ﷺ لقتالهم، فحاصرهم في حصنهم، فنزلوا على حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه، فحكم فيهم أن تُقْتَلَ مقاتِلَتُهم، وتُسبى ذراريهم وتُغنم أموالهم، فأتمَّ اللّه لرسوله والمؤمنين المنَّة، وأسبغ عليهم النعمة، وأقر أعينهم بخذلانِ من انخذلَ من أعدائهم، وقتل مَن قَتَلوا، وأسر من أسروا، ولم يزل لطفُ اللّه بعبادِهِ المؤمنين مستمرًّا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾.

﴿٢٨﴾ لما اجتمع نساءُ رسول اللّه ﷺ عليه في الغيرة، وطلبن منه النفقة والكسوة؛ طلبنَ منه أمراً لا يقدر عليه في كلِّ وقت، ولم يَزَلْنَ في طلبهنَّ متَّفقات وفي[1] مرادهنَّ متعنِّتات، فشقَّ ذٰلك على الرسول، حتى وصلت به الحالُ إلى أنه آلى منهنَّ شهراً، فأراد اللّه أن يسهِّلَ الأمرَ على رسولِهِ، وأن يرفع درجةَ زوجاتِهِ، ويُذْهِبَ عنهنَّ كلَّ أمر ينقص أجرهنَّ فأمر رسولَه أن يخيِّرهنَّ[2]، فقال: ﴿يا أيُّها النبيُّ قلْ لأزواجِك إن كنتنَّ تردنَ الحياةَ الدُّنيا﴾؛ أي: ليس لَكُنَّ في غيرها مطلبٌ، وصرتنَّ ترضينَ لوجودها وتغضبنَ لِفَقْدِها؛ فليس لي فيكنَّ أربٌ وحاجةٌ وأنتنَّ بهٰذه

(١) في (ب): «متفقات في».
(٢) في (ب): «يخبرهن».

الحال، ﴿فتعالَين أمتِّعْكنَّ﴾: شيئاً مما عندي من الدنيا، ﴿وأسرِّحْكُنَّ﴾؛ أي: أفارقكن ﴿سراحاً جميلاً﴾: من دون مغاضبةٍ ولا مشاتمةٍ، بل بسعة صدرٍ وانشراح بال، قبل أن تبلغَ الحالُ إلى ما لا ينبغي.

﴿٢٩﴾ ﴿وإن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللّه ورسولَه والدارَ الآخرة﴾؛ أي: هٰذه الأشياء مرادُكُنَّ وغايةُ مقصودِكُنَّ، وإذا حصل لَكُنَّ اللّه ورسوله والجنة؛ لم تبالينَ بسعة الدنيا وضيقها ويُسرها وعُسرها، وقنعتنَّ من رسول اللّه بما تيسَّر، ولم تطلبنَ منه ما يشقُّ عليه، ﴿فإنَّ اللّه أعدَّ للمحسناتِ منكنَّ أجراً عظيماً﴾: رتَّب الأجر على وصفهنَّ بالإحسان؛ لأنَّه السبب الموجب لذٰلك، لا لكونهنَّ زوجاتٍ للرسول؛ فإنَّ مجرَد ذٰلك لا يكفي، بل لا يفيدُ شيئاً مع عدم الإحسان، فخيَّرَهُنَّ رسول اللّه ﷺ في ذٰلك، فاخترنَ اللّه ورسوله والدار الآخرة كلُّهن، لم[1] يتخلفْ منهنَّ واحدةٌ رضي اللّه عنهن.

وفي هٰذا التخيير فوائدُ عديدة:

منها: الاعتناءُ برسوله والغيرةُ عليه أن يكون بحالة يشقُّ عليه كثرةُ مطالب زوجاته الدنيويَّة.

ومنها: سلامتُه ﷺ بهٰذا التخيير من تَبِعَةِ حقوق الزوجات، وأنَّه يبقى في حرِّية نفسه إن شاء أعطى وإن شاء منع، ما كان على النبيِّ من حرج فيما فرضَ اللّه له.

ومنها: تنزيهُهُ عمَّا لو كان فيهنَّ مَنْ تؤثِرُ الدُّنيا على اللّه ورسوله والدار الآخرة عنها، وعن مقارنتها.

ومنها: سلامةُ زوجاتِهِ رضي اللّه عنهنَّ عن الإثم والتعرُّض لسخط اللّه ورسوله، فحسم الله بهٰذا التخيير عنهنَّ التسخُّط على الرسول الموجب لسَخَطِهِ المُسْخِطِ لربِّه الموجب لعقابه.

ومنها: إظهار رفعتهنَّ وعلوِّ درجتهنَّ وبيان علوِّ هممهنَّ أن كان اللّهُ ورسولُه والدار الآخرة مرادَهُنَّ ومقصودَهن دون الدُّنيا وحطامها.

ومنها: استعدادُهُنَّ بهٰذا الاختيار للأمر الخيار للوصول إلى خيار درجات الجنة وأنْ يكنَّ زوجاتِهِ في الدُّنيا والآخرة.

(١) في (ب): «ولم».

ومنها: ظهورُ المناسبة بينه وبينهنَّ؛ فإنَّه أكمل الخلق، وأراد اللّه أن تكون نساؤه كاملاتٍ مكمَّلاتٍ طيباتٍ مطيَّباتٍ، ﴿الطيِّباتُ للطيبين والطيِّبونَ للطيبات﴾.

ومنها: أنَّ هٰذا التخيير داعٍ وموجب للقناعة التي يطمئنُّ لها القلبُ وينشرحُ لها الصدرُ، ويزول عنهنَّ جشعُ الحرص وعدم الرِّضا الموجب لقلق القلب واضطرابِهِ وهمِّه وغمِّه.

ومنها: أن يكون اختيارهنَّ هٰذا سبباً لزيادة أجرهنَّ ومضاعفتِهِ، وأن يكنَّ بمرتبةٍ ليس فيها أحدٌ من النساء، ولهٰذا قال:

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾.

﴿٣٠﴾ لما اخترنَ اللّه ورسولَه والدارَ الآخرة؛ ذَكَرَ مضاعفَة أجرهنَّ ومضاعفة وِزْرِهِنَّ وإثمهنَّ لو جرى منهنَّ؛ ليزداد حذرهنَّ وشكرهنَّ اللّه تعالى، فجعل من أتى منهنَّ بفاحشةٍ ظاهرةٍ لها العذابُ ضعفين.

﴿٣١﴾ ﴿**ومَن يَقْنُتْ منكنَّ**﴾؛ أي: تطيع اللّهَ ورسولَه وتعملْ صالحاً قليلاً أو كثيراً، ﴿**نؤتِها أجْرَها مرَّتينِ**﴾؛ أي: مثل ما نعطي غيرها مرَّتين، ﴿**وأعْتَدْنا لها رزقاً كريماً**﴾: وهي الجنة، فَقَنَتْنَ للّهِ ورسوله وعَمِلْنَ صالحاً، فعلم بذٰلك أجرهنَّ.

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾.

﴿٣٢﴾ يقول تعالى: ﴿**يا نساءَ النبيِّ**﴾: خطابٌ لهنَّ كلهنَّ ﴿**لستنَّ كأحدٍ من النساء إنِ اتَّقيْتُنَّ**﴾: اللّه؛ فإنَّكُنَّ بذٰلك تفقن النساء ولا يلحقكُنَّ أحدٌ من النساء؛ فكمِّلْنَ التقوى بجميع وسائلها ومقاصدها، فلهٰذا أرشدهنَّ إلى قطع وسائل المحرم، فقال: ﴿**فلا تَخْضَعْنَ بالقول**﴾؛ أي: في مخاطبة الرجال، أو بحيث يسمعون، فَتَلِنَّ في ذٰلك، وتتكلَّمْنَ بكلام رقيق، يدعو ويطمع ﴿**الذي في قلبِهِ مرضٌ**﴾؛ أي:

مرض شهوة الزنا فإنه مستعدٌّ ينتظرُ أدنى محركٍ يحرِّكُه لأنَّ قلبه غيرُ صحيح؛ فإنَّ القلب الصحيح ليس فيه شهوةٌ لما حرَّم اللّه؛ فإنَّ ذٰلك لا تكاد تُميله ولا تُحركه الأسباب لصحةِ قلبه وسلامتِهِ من المرض؛ بخلاف مريض القلبِ الذي لا يتحمَّلُ ما يتحمَّلُ الصحيح، ولا يصبِرُ على ما يصبِرُ عليه؛ فأدنى سبب يوجَدُ ويدعوه إلى الحرام يُجيب دعوته ولا يتعاصى عليه؛ فهٰذا دليلٌ على أنَّ الوسائل لها أحكام المقاصد؛ فإنَّ الخضوع بالقول واللين فيه في الأصل مباح، ولٰكن لمَّا كان وسيلةً إلى المحرَّم؛ منع منه، ولهٰذا ينبغي للمرأة في مخاطبة الرجال أن لا تُلينَ لهم القول.

ولمَّا نهاهنَّ عن الخضوع في القول؛ فربما تُوُهِّم أنهنَّ مأموراتٌ بإغلاظ القول؛ دَفَعَ هٰذا بقوله: ﴿وقلنَ قولاً معروفاً﴾؛ أي: غير غليظ ولا جاف؛ كما أنه ليس بليِّنٍ خاضع. وتأمَّلْ كيف قال: ﴿فلا تَخْضَعْنَ بالقول﴾، ولم يقل: فلا تَلِنَّ بالقول، وذٰلك لأنَّ المنهيَّ عنه القول الليِّن الذي فيه خضوع المرأة للرجل وانكسارُها عنده، والخاضِعُ هو الذي يُطمع فيه، بخلافِ من تكلَّمَ كلاماً ليِّناً ليس فيه خضوعٌ، بل ربَّما صار فيه ترفُّع وقهرٌ للخصم؛ فإنَّ هٰذا لا يطمع فيه خصمُه، ولهٰذا مدح اللّه رسولَه باللين، فقال: ﴿فبما رحمةٍ من اللّه لِنتَ لهم﴾، وقال لموسى وهارون: ﴿اذهَبا إلى فرعونَ إنَّه طغى. فقولا له قَوْلاً ليِّناً لعله يَتَذَكَّر أو يخشى﴾.

ودل قوله: ﴿فيطمعَ الذي في قلبِهِ مرضٌ﴾؛ مع أمره بحفظ الفرج وثنائِهِ على الحافظين لفروجهم والحافظات، ونهيه عن قربان الزنا: أنَّه ينبغي للعبد إذا رأى من نفسه هٰذه الحالة، وأنه يهشُّ[1] لفعل المحرم عندما يرى أو يسمع كلام من يهواه ويجد دواعي طمعِهِ قد انصرفتْ إلى الحرام، فليعرفْ أنَّ ذٰلك مرض، فليجتهدْ في إضعاف هٰذا المرض وحسم الخواطر الرديَّة ومجاهدة نفسه على سلامتها من هٰذا المرض الخطر وسؤال اللّه العصمة والتوفيق، وأنَّ ذٰلك من حفظ الفرج المأمور به.

﴿٣٣﴾ ﴿وقَرْنَ في بُيوتِكُنَّ﴾؛ أي: اقْرُرْنَ فيها؛ لأنه أسلمُ وأحفظُ لَكُنَّ، ﴿ولا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجاهليةِ الأولى﴾؛ أي: لا تُكْثِرْنَ الخروج متجمِّلات أو متطيِّبات كعادة أهل الجاهلية الأولى، الذين لا علم عندهم ولا دين؛ فكلُّ هٰذا دفع للشرِّ وأسبابه.

---

(١) في (ب): «يشتهي».

ولما أمرهنَّ بالتقوى عموماً وبجزيئات من التقوى نصَّ عليها لحاجة النساء إليها، كذٰلك أمرهن بالطاعة، خصوصاً الصلاة والزكاة اللتان يحتاجُهما ويضطرُّ إليهما كلُّ أحدٍ، وهما أكبر العبادات وأجلُّ الطاعات، وفي الصلاة الإخلاص للمعبود، وفي الزكاة الإحسان إلى العبيد.

ثم أمرهنَّ بالطاعة عموماً، فقال: ﴿وأطِعْنَ اللّه ورسولَه﴾: يدخُلُ في طاعة اللّه ورسوله كلُّ أمرٍ أمرا[1] به أمرَ إيجابٍ أو[2] استحبابٍ، ﴿إنَّما يريدُ اللّه﴾: بأمرِكُنَّ بما أمَرَكُنَّ به ونَهْيِكُنَّ عمَّا[3] نهاكُنَّ عنه؛ ﴿لِيُذْهِبَ عنكم الرجسَ﴾؛ أي: الأذى والشر والخبث ﴿أهلَ البيتِ ويُطَهِّرَكُم تطهيراً﴾: حتى تكونوا طاهرينَ مطهَّرين؛ أي: فاحمدوا، ربَّكم واشكُروه على هٰذه الأوامر والنواهي التي أخبركم بمصلحتها، وأنها محضُ مصلحتِكُم، لم يردِ اللّه أن يجعلَ عليكم بذٰلك حرجاً ولا مشقةً، بل لتتزكَّى نفوسُكم، وتتطهَّر[4] أخلاقُكم، وتَحْسُنَ أعمالُكم، ويعظُم بذٰلك أجركم.

﴿٣٤﴾ ولمَّا أمرهنَّ بالعمل الذي هو فعلٌ وتركٌ؛ أمرهنَّ بالعلم، وبيَّن لهنَّ طريقه، فقال: ﴿واذْكُرْنَ ما يُتلى في بُيوتِكُنَّ من آياتِ اللّه والحكمةِ﴾، والمرادُ بآيات اللّه القرآن، والحكمةُ أسرارُه أو سنةُ رسوله، وأمْرُهُنَّ بذكره يشمل ذِكْرَ لفظِهِ بتلاوتِهِ وذكر معناه بتدبُّره والتفكُّر فيه واستخراج أحكامه وحِكَمِهِ، وذِكْرَ العمل به وتأويله.

﴿إنَّ اللّه كان لطيفاً خبيراً﴾: يدرك سرائر[5] الأمور وخفايا الصدور وخبايا السماواتِ والأرض والأعمال التي تَبين وتُسَرُّ؛ فلطفُه وخبرتُه يقتضي حثُّهنَّ على الإخلاص وإسرار الأعمال ومجازاةِ اللّه على تلك الأعمال. ومن معاني اللطيف: الذي يسوقُ عبدَه إلى الخير، ويعصِمُه من الشرِّ بطرقٍ خفيةٍ لا يشعر بها، ويسوقُ إليه من الرزق ما لا يدريه، ويريه من الأسباب التي تكرهُها النفوس، ما يكون ذٰلك طريقاً له إلى أعلى الدرجات وأرفع المنازل.

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ

(١) في (ب): «أمر».
(٢) في (ب): «و».
(٣) في (ب): «بما».
(٤) في (ب): «ولتتطهر».
(٥) في (ب): «أسرار».

﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾.

﴿٣٥﴾ لما ذَكَرَ تعالى ثوابَ زوجاتِ الرسول ﷺ وعقابهنَّ لو قُدِّرَ عدم الامتثال وأنَّه ليس مثلهنَّ أحدٌ من النساء؛ ذكر بقيَّة النساء غيرهنَّ، ولما كان حكمهنَّ والرجال واحداً؛ جعل الحكمَ مشتركاً، فقال: ﴿إنَّ المسلمينَ والمسلماتِ﴾: وهٰذا في الشرائع الظاهرة إذا كانوا قائمين بها، ﴿والمؤمنينَ والمؤمناتِ﴾: وهٰذا في الأمور الباطنة من عقائد القلب وأعماله، ﴿والقانتينَ﴾؛ أي: المطيعين لله ولرسوله، ﴿والقانتاتِ والصادقينَ﴾: في مقالهم وفعالهم، ﴿والصادقاتِ والصابرينَ﴾: على الشدائد والمصائب، ﴿والصابراتِ والخاشعين﴾: في جميع أحوالهم خصوصاً في عباداتهم ولا سيما[١] في صلواتهم، ﴿والخاشعاتِ والمتصدِّقين﴾: فرضاً ونفلاً، ﴿والمتصدقاتِ والصائمينَ والصائماتِ﴾: شمل ذٰلك الفرض والنفل، ﴿والحافظينَ فروجَهم﴾: عن الزنا ومقدِّماته، ﴿والحافظات والذاكرينَ الله كثيراً﴾؛ أي: في أكثر الأوقات، خصوصاً في أوقات الأوراد المقيَّدة؛ كالصباح والمساء، وأدبار الصلوات المكتوبات، ﴿والذاكرات أعدَّ الله لهم﴾؛ أي: لهٰؤلاء الموصوفين بتلك الصفاتِ الجميلةِ والمناقبِ الجليلةِ، التي هي ما بين اعتقاداتٍ وأعمال قلوبٍ وأعمال جوارح وأقوال لسانٍ ونفع متعدٍّ وقاصرٍ وما بين أفعال الخير وترك الشرِّ الذي مَنْ قام بهنَّ فقد قام بالدِّين كلِّه ظاهرِهِ وباطنِهِ بالإسلام والإيمان والإحسان، فجازاهم على عملهم بالمغفرة لذنوبهم؛ لأنَّ الحسنات يُذْهِبْنَ السيئات. ﴿وأجراً عظيماً﴾: لا يقدرُ قَدْرَهُ إلَّا الذي أعطاه؛ مما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ، ولا خطر على قلب بشر. نسألُ الله أن يجعلَنا منهم.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾.

﴿٣٦﴾ أي: لا ينبغي ولا يليقُ بمن[٢] اتَّصف بالإيمان إلَّا الإسراعُ في مرضاة الله ورسولِهِ والهربُ من سَخَطِ الله ورسوله وامتثالُ أمرهما واجتنابُ نهيِهما؛ فلا يليقُ بمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ، ﴿إذا قضى اللهُ ورسولُه أمراً﴾: من الأمور

(١) في (ب): «خصوصاً».
(٢) في (ب): «ممن».

وحتَّما به وألزما به ﴿أن يكون لَهُمُ الخِيَرَةُ من أمرِهم﴾؛ أي: الخيار هل يفعلونَه أم لا؟ بل يعلم المؤمن والمؤمنةُ أنَّ الرسول أولى به من نفسِهِ؛ فلا يجعل بعضَ أهواء نفسِهِ حجاباً بينَه وبينَ أمر الله ورسوله، ﴿ومَن يعصِ الله ورسولَه فقد ضلَّ ضلالاً مبيناً﴾؛ أي: بيِّنا؛ لأنه ترك الصراط المستقيم الموصلة إلى كرامة الله إلى غيرها من الطرق الموصلة للعذاب الأليم، **فذكر أولاً** السبب الموجب لعدم معارضةِ أمر الله ورسولِهِ، وهو الإيمان، **ثم ذكَرَ** المانعَ من ذٰلك، وهو التخويف بالضَّلال الدالِّ على العقوبة والنكال.

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾.

﴿٣٧﴾ وكان سببُ نزول هٰذه الآياتِ[1] أنَّ الله تعالى أراد أن يَشْرَعَ شرعاً عامًّا للمؤمنين أنَّ الأدعياء ليسوا في حكم الأبناء حقيقةً من جميع الوجوه، وأنَّ أزواجَهم لا جُناح على مَنْ تَبنَّاهم نكاحهنَّ، وكان هٰذا من الأمور المعتادة التي لا تكاد تزولُ إلا بحادثٍ كبيرٍ، فأرادَ أن يكون هٰذا الشرع قولاً من رسوله وفعلاً، وإذا أراد الله أمراً؛ جعل له سبباً، فكان[2] زيد بن حارثة يُدعى زيد بن محمد، قد تبنَّاه النبيُّ ﷺ، فصار يُدعى إليه، حتى نزل ﴿ادْعوهم لآبائِهم﴾؛ فقيل له: زيد بن حارثة، وكانت تحته زينب بنت جحش ابنة عمة رسول الله ﷺ، وكان قد[3] وقع في قلبِ الرسول لو طلَّقها زيدٌ لتزوَّجها، فقدَّر الله أن يكون بينها وبين زيدٍ ما اقتضى أنْ جاء زيد بن حارثة يستأذنُ النبيَّ ﷺ في فراقها؛ قال الله: ﴿وإذْ تقولُ للذي أنعمَ اللهُ عليه﴾؛ أي: بالإسلام، ﴿وأنعمتَ عليه﴾: بالعتق والإرشاد والتعليم حين جاءك مشاوراً في فراقها، فقلتَ له ناصحاً له ومخبراً بمصلحتِهِ مقدِّماً لها على رغبتِك مع وقوعها في قلبك: ﴿أمسكْ عليك زَوْجَكَ﴾؛ أي: لا تفارِقْها واصبِرْ على ما جاءك منها.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٨٧ و٧٤٢٠)، وقال الحافظ في «الفتح» (٨/ ٥٢٣): «وقد أخرج ابن أبي حاتم هذه القصة من طريق السدي فساقها سياقاً واضحاً حسناً».

(٢) في (ب): «وكان». (٣) في (ب): «وقد كان قد».

﴿واتَّقِ اللّٰه﴾: تعالى في أمورك عامَّةً وفي أمر زوجك خاصَّةً؛ فإنَّ التقوى تحثُّ على الصبر وتأمر به، ﴿وتُخفي في نفسِكَ ما اللّٰه مُبديه﴾: والذي أخفاه أنَّه لو طلَّقها زيدٌ؛ لتزوَّجها ﷺ، ﴿وتخشى الناس﴾: في عدم إبداء ما في نفسك، ﴿واللّٰه أحقُّ أن تخشاه﴾: فإنَّ خشيته جالبةٌ لكلِّ خيرٍ مانعةٌ من كلِّ شرٍّ، ﴿فلما قضى زيدٌ منها وطراً﴾؛ أي: طابت نفسُه ورغِبَ عنها وفارقها، ﴿زوَّجْناكها﴾: وإنَّما فَعَلْنا ذٰلك لفائدةٍ عظيمةٍ، وهي: ﴿لكيلا يكونَ على المؤمنين حرجٌ في أزواج أدعيائِهِم﴾: حيث رأوك تزوَّجت زوج زيد بن حارثة الذي كان من قَبْلُ يَنْتَسِبُ إليك، ولما كان قولُه: ﴿لِكَيْلا يكونَ على المؤمنين حرجٌ في أزواج أدعيائِهِم﴾: عامًّا في جميع الأحوال، وكان من الأحوال ما لا يجوز ذٰلك، وهي قبلِ انقضاء وطرِهِ منها؛ قيَّد ذٰلك بقوله: ﴿إذا قَضَوْا منهنَّ وطراً وكان أمرُ اللّٰه مفعولاً﴾؛ أي: لا بدَّ من فعلِهِ ولا عائق له ولا مانع.

وفي هٰذه الآيات المشتملات[(١)] على هٰذه القصة فوائد:

منها: الثناءُ على زيد بن حارثة، وذٰلك من وجهين: أحدِهما: أنَّ اللّٰه سمَّاه في القرآن ولم يسمِّ من الصحابة باسمه غيره. والثاني: أنَّ اللّٰه أخبر أنَّه أنعم عليه؛ أي: بنعمة الإسلام والإيمان، وهٰذه شهادةٌ من اللّٰه له أنه مسلم مؤمنٌ ظاهراً وباطناً، وإلَّا؛ فلا وجه لتخصيصه بالنعمة؛ إلَّا أنَّ[(٢)] المراد بها النعمة الخاصة.

ومنها: أن المُعْتَقَ في نعمة المعتِقِ.

ومنها: جواز تزوج زوجة[(٣)] الدَّعي كما صرح به.

ومنها: أنَّ التعليم الفعليَّ أبلغُ من القولي، خصوصاً إذا اقترن بالقول؛ فإنَّ ذٰلك نورٌ على نور.

ومنها: أن المحبة التي في قلب العبد لغير زوجته ومملوكته ومحارمه إذا لم يَقْتَرِنْ بها محذورٌ لا يأثم عليها العبد، ولو اقترن بذٰلك أمنيته أنْ لو طلَّقها زوجُها لتزوَّجها من غير أن يسعى في فرقةٍ بينَهما أو يتسبَّب بأيِّ سبب كان؛ لأنَّ اللّٰه أخبر أنَّ الرسول ﷺ أخفى ذٰلك في نفسه.

ومنها: أنَّ الرسول ﷺ قد بلَّغَ البلاغَ المبين، فلم يدعْ شيئاً مما أوحي إليه إلَّا

---

(١) في (ب): «المشتملة».
(٢) في (ب): «لولا أن».
(٣) في (ب): «بزوجة».

وبلَّغه، حتى هٰذا الأمر الذي فيه عتابه، وهٰذا يدلُّ على أنَّه رسولُ اللّه، ولا يقول إلَّا ما أوحي إليه، ولا يريد تعظيمَ نفسِهِ.

ومنها: أنَّ المستشارَ مؤتمنٌ، يجبُ عليه ـ إذا استُشير في أمر من الأمور ـ أن يُشير بما يعلمُه أصلَح للمستشيرِ[١]، ولو كان له حظُّ نفس بتقدُّم[٢] مصلحة المستشير على هوى نفسه وغرضه.

ومنها: أنَّ من الرأي الحسن لمن استشار في فراق زوجة أن يُؤمَرَ بإمساكها مهما أمكن صلاحُ الحال؛ فهو أحسن من الفرقة.

ومنها: أنَّه يتعيَّن أن يقدِّم العبد خشية اللّه على خشية الناس، وأنَّها أحقُّ منها وأولى.

ومنها: فضيلةُ زينب رضي اللّه عنها أم المؤمنين؛ حيث تولَّى اللّه تزويجها من رسوله ﷺ من دون خطبة ولا شهودٍ، ولهٰذا كانت تفتخرُ بذٰلك على أزواج رسول اللّه ﷺ، وتقول: زوَّجَكُنَّ أهاليكنَّ وزوَّجَني اللّه من فوق سبع سماواتٍ[٣].

ومنها: أنَّ المرأة إذا كانت ذات زوج لا يجوزُ نِكاحها ولا السعيُ فيه وفي أسبابه حتى يقضِيَ زوجُها وَطَرَهُ منها، ولا يقضي وَطَرَهُ حتى تنقضيَ عِدَّتُها؛ لأنَّها قبل انقضاء عدتها وهي في عصمتِهِ أو في حقِّه الذي له وطرٌ إليها ولو من بعض الوجوه.

﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾.

﴿٣٨﴾ هٰذا دفعٌ لطعن من طعن في الرسول ﷺ في كثرة أزواجه، وأنَّه طعنٌ بما لا مطعنَ فيه، فقال: ﴿**ما كان على النبيِّ من حرجٍ**﴾؛ أي: إثم وذنب ﴿**فيما فَرَضَ اللّه له**﴾؛ أي: قدَّر له من الزوجات؛ فإنَّ هٰذا قد أباحه اللّه له كما أباحه للأنبياء قبلَه، ولهٰذا قال: ﴿**سنةَ اللّه في الذين خَلَوا من قبلُ وكان أمرُ اللّه قَدَراً مَقْدوراً**﴾؛ أي: لا بدَّ من وقوعِهِ.

---

(١) في (ب): «للمستشار». (٢) في (ب): «فيقدم».
(٣) أخرجه البخاري (٧٤٢٠) من حديث أنس بن مالك.

﴿٣٩﴾ ثم ذَكَرَ مَنْ هم الذين من قبلُ قد خلو وهٰذه سنتهم وعادتهم، وأنهم ﴿الذين يبلِّغونَ رسالاتِ اللّه﴾: فيتلون على العباد آياتِ اللّه وحججه وبراهينه ويدعونَهم إلى اللّه، ﴿ويَخْشَوْنَه﴾: وحدَه لا شريك له، ﴿ولا يَخْشَوْنَ أحداً﴾: إلَّا اللّه؛ فإذا كان هٰذا سنة في الأنبياء المعصومين الذين وظيفتهم قد أدَّوْها وقاموا بها أتم القيام، وهو دعوةُ الخلق إلى اللّه والخشية منه وحده، التي تقتضي فعل كل مأمور وترك كل محظور، [دلّ ذلك على أنه لا نقص فيه بوجه]. ﴿وكفى باللّه حسيباً﴾: محاسباً عبادَه مراقباً أعمالهم. وعُلِمَ من هٰذا أنَّ النكاحَ من سنن المرسلين.

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾.

﴿٤٠﴾ أي: لم يكن الرسول ﴿محمدٌ﴾: ﷺ ﴿أبا أحدٍ من رجالِكم﴾: أيُّها الأمة، فقطع انتساب زيد بن حارثة منه من هٰذا الباب. ولما كان هٰذا النفيُ عامًّا في جميع الأحوال إنْ حُمِلَ ظاهر اللفظ على ظاهره؛ أي: لا أبوَّة نسب ولا أبوَّة ادعاء، وكان قد[1] تقرَّر فيما تقدَّم أنَّ الرسول ﷺ أبٌ للمؤمنين كلِّهم، وأزواجه أمهاتُهم، فاحترز أن يدخُل هٰذا النوع بعموم النهي المذكور؛ فقال: ﴿ولٰكن رسولَ اللّه وخاتَمَ النبيينَ﴾؛ أي: هٰذه مرتبته؛ مرتبةُ المطاع المتبوع المهتدَى به المُؤْمَنِ له الذي يجبُ تقديم محبته على محبة كلِّ أحدٍ، الناصح، الذي لهم ـ أي: للمؤمنين ـ من بره ونُصحه كأنه أبٌ لهم، ﴿وكان اللّه بكل شيءٍ عليماً﴾؛ أي: قد أحاط علمُه بجميع الأشياء، ويعلم حيث يجعل رسالاتِهِ، ومن يَصْلُحُ لفضله ومَنْ لا يَصْلُح.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾.

﴿٤١﴾ يأمر تعالى المؤمنين بذكره ذكراً كثيراً؛ من تهليل وتحميد وتسبيح وتكبير

---

(١) في (ب): «وقد كان».

وغير ذٰلك من كل قولٍ فيه قُربة إلى اللّٰه، وأقلُّ ذٰلك أن يلازِمَ الإنسان أوراد الصباح والمساء وأدبار الصلوات الخمس وعند العوارضِ والأسباب، وينبغي مداومة ذٰلك في جميع الأوقات على جميع الأحوال؛ فإنَّ ذٰلك عبادةٌ يسبِقُ بها العامل وهو مستريحٌ وداعٍ إلى محبة اللّٰه ومعرفتِهِ وعونٌ على الخير وكفٌّ للسان عن الكلام القبيح.

﴿٤٢﴾ ﴿وسبِّحوه بكرةً وأصيلاً﴾؛ أي: أول النهار وآخره؛ لفضلهما وشرفهما وسهولة العمل فيهما.

﴿٤٣﴾ ﴿هو الذي يصلِّي عليكُم وملائكتُه ليخرِجَكم من الظلماتِ إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً﴾؛ أي: من رحمته بالمؤمنين ولطفه بهم أنْ جَعَلَ من صلاتِهِ عليهم وثنائِهِ وصلاةِ ملائكته ودعائهم ما يخرِجُهم من ظلمات الذُّنوب والجهل إلى نورِ الإيمان والتوفيق والعلم والعمل؛ فهٰذه أعظمُ نعمةٍ أنعم بها على العباد الطائعين، تستدعي منهم شكرها والإكثار من ذكر اللّٰه الذي لطف بهم ورحمهم وجعل حملةَ عرشِهِ أفضل الملائكة ومن حوله يسبِّحون بحمدِ ربِّهم، ويستغفرونَ للذين آمنوا، فيقولون: ﴿ربَّنا وسعتَ كلَّ شيءٍ رحمةً وعلماً فاغفر للذين تابوا واتَّبَعوا سبيلَكَ وقِهِمْ عذابَ الجحيم. ربَّنا وأدْخِلْهم جناتِ عدنٍ التي وَعَدْتَهم ومَن صَلَحَ من آبائهم وأزواجهم وذُرِّيَّاتِهِم إنَّك أنت العزيزُ الحكيم. وقِهِمُ السيئاتِ ومَن تَقِ السيئاتِ يومئذٍ فقد رَحِمْتَه وذٰلك الفوزُ العظيم﴾: فهٰذه رحمتُه ونعمتُه عليهم في الدُّنيا.

﴿٤٤﴾ وأما رحمتُه بهم في الآخرة؛ فأجلُّ رحمة وأفضلُ ثواب، وهو الفوز برضا ربِّهم وتحيَّته، واستماع كلامه الجليل، ورؤية وجهِهِ الجميل، وحصول الأجر الكبير الذي لا يدريه ولا يعرِفُ كُنْهَهُ إلَّا من أعطاهم إياه، ولهٰذا قال: ﴿تحيَّتُهم يوم يَلْقَوْنَه سلامٌ وأعدَّ لهم أجراً كريماً﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَـذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾.

﴿٤٥﴾ هٰذه الأشياء التي وصف الله بها رسولَه محمداً ﷺ هي المقصود من رسالتِهِ وزبدتها وأصولها التي اختصَّ بها، وهي خمسةُ أشياء:

أحدها: كونه ﴿شاهداً﴾؛ أي: شاهداً[١] على أمته بما عملوه من خيرٍ وشرٍّ؛ كما قال تعالى: ﴿لِتكونوا شهداءَ على الناس ويكون الرسولُ عليكم شهيداً﴾، ﴿فكيف إذا جئنا من كلِّ أمةٍ بشهيدٍ [وجئنا بك على هؤلاء شهيداً]﴾: فهو ﷺ شاهدُ عدل مقبول.

الثاني والثالث: كونه ﴿مبشِّراً ونذيراً﴾: وهٰذا يستلزم ذكر المبشَّر والمنذَر وما يبشَّر به ويُنْذَرُ والأعمال الموجبة لذٰلك: فالمبشَّر هم المؤمنون المتقون، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح وترك المعاصي، لهم البُشرى في الحياة الدنيا بكل ثوابٍ دنيويٍّ ودينيٍّ رُتِّبَ على الإيمان والتقوى، وفي الأخرى بالنعيم المقيم، وذٰلك كلُّه يستلزم ذكر تفصيل المذكور من تفاصيل الأعمال وخصال التقوى وأنواع الثواب. والمنذَر هم المجرمون الظالمون، أهلُ الظلم والجهل، لهم النذارةُ في الدنيا من العقوبات الدنيويَّة والدينيَّة المرتَّبة على الجهل والظلم، وفي الأخرى بالعقاب الوبيل والعذاب الطويل. وهٰذه الجملة تفصيلُها ما جاء به ﷺ من الكتاب والسنَّة المشتمل على ذٰلك.

﴿٤٦﴾ **الرابع**: كونُه ﴿داعياً إلى الله﴾؛ أي: أرسله الله يدعو الخلق إلى ربِّهم ويشوِّقهم[٢] لكرامته ويأمُرُهم بعبادتِهِ التي خُلقوا لها، وذٰلك يستلزم استقامتَه على ما يدعو إليه وذِكْرَ تفاصيل ما يدعو إليه؛ بتعريفهم لربِّهم بصفاتِهِ المقدَّسة، وتنزيهه عما لا يَليق بجلالِهِ، وذكر أنواع العبوديَّة، والدعوة إلى الله بأقرب طريق موصل إليه، وإعطاء كلِّ ذي حقٍّ حقَّه، وإخلاص الدَّعوة إلى الله لا إلى نفسه وتعظيمها؛ كما قد يعرِضُ ذٰلك لكثير من النفوس في هٰذا المقام، وذٰلك كلُّه بإذن ربه له[٣] في الدعوة وأمره وإرادتِهِ وقدره.

الخامس: كونه ﴿سراجاً منيراً﴾ وذٰلك يقتضي أنَّ الخلق في ظلمة عظيمة، لا نور يُهتدى به في ظلماتها، ولا علم يُستدلُّ به في جهاتها، حتى جاء الله بهٰذا النبيِّ الكريم، فأضاء الله به تلك الظلمات، وعلَّم به من الجهالات، وهدى به ضلالاً إلى الصراط المستقيم، فأصبح أهل الاستقامة قد وَضَحَ لهم الطريق، فَمَشَوْا خلف هٰذا الإمام، وعرفوا به الخير والشرَّ وأهلَ السعادة من أهل الشقاوة، واستناروا به

---

(١) في (ب): «مشاهداً».
(٢) في (ب): «ويسوقهم».
(٣) في (ب): «بإذن الله».

لمعرفةِ معبودِهم، وعرفوه بأوصافِهِ الحميدةِ وأفعالِهِ السَّديدة وأحكامه الرشيدة.

﴿٤٧﴾ وقوله: ﴿وبشِّرِ المؤمنين بأنَّ لهم من اللّه فضلاً كبيراً﴾: ذكر في هٰذه الجملة المبشَّر، وهم المؤمنون، وعند ذِكرِ الإيمان بمفردِهِ تدخُلُ فيه الأعمال الصالحة، وذَكَرَ المبشَّر به، وهو الفضلُ الكبيرُ؛ أي: العظيم الجليل الذي لا يقادَر قَدْرُهُ من النصر في الدنيا وهداية القلوب وغفران الذنوب وكشف الكروب وكثرة الأرزاق الدارَّة وحصول النعم السارَّة والفوز برضا ربِّهم وثوابه والنجاة من سخطه وعقابِهِ، وهٰذا مما ينشِّطُ العاملين أن يذكُرَ لهم من ثواب اللّه على أعمالهم ما به يستعينونَ على سلوك الصراط المستقيم، وهٰذا من جملةِ حِكَم الشرع: كما أنَّ من حِكَمه أن يَذْكُرَ في مقام الترهيب العقوباتِ المرتَّبَةَ على ما يُرَهَّبُ منه؛ ليكون عوناً على الكفِّ عما حرم اللّه.

﴿٤٨﴾ ولمَّا كان ثَمَّ طائفةٌ من الناس مستعدةٌ للقيام بصدِّ الداعين إلى اللّه من الرسل وأتباعهم، وهم المنافقون الذين أظهروا الموافقةَ في الإيمان وهم كفرةٌ فجرةٌ في الباطن، والكفار ظاهراً وباطناً؛ نهى اللّه رسوله عن طاعتهم وحذره ذٰلك، فقال: ﴿ولا تطع الكافرينَ والمنافقينَ﴾؛ أي: في كلِّ أمر يصدُّ عن سبيل اللّه، ولٰكن لا يقتضي هٰذا أذاهم، بلِ لا تُطِعْهُم، ﴿ودَعْ أذاهم﴾: فإنَّ ذٰلك جالبٌ لهم وداع إلى قبول الإسلام وإلى كفِّ كثير من أذيَّتِهِم له ولأهله، ﴿وتوكَّلْ على اللّه﴾: في إتمام أمرِكَ وخذلانِ عدوِّك، ﴿وكفى باللّه وكيلا﴾: تُوكَلُ إليه الأمور المهمَّة، فيقوم بها ويسهِّلُها على عبده.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٤٩﴾﴾.

﴿٤٩﴾ يخبر تعالى المؤمنين أنَّهم إذا نكحوا المؤمنات ثم طلَّقوهنَّ من قبل أن يَمَسُّوهنَّ؛ فليس عليهنَّ في ذٰلك عدَّةٌ يعتدُّها أزواجهنَّ عليهن، وأمرهم بتمتيعهنَّ بهٰذه الحالة بشيء من متاع الدُّنيا الذي يكون فيه جبرٌ لخواطرهنَّ لأجل فراقهنَّ، وأن يفارِقوهنَّ فراقاً جميلاً من غير مخاصمةٍ ولا مشاتمةٍ ولا مطالبةٍ ولا غير ذٰلك.

ويستدلُّ بهٰذه الآية على أنَّ الطلاق لا يكونُ إلَّا بعد النكاح، فلو طلَّقها قبل أن ينكحَها أو علَّق طلاقَها على نكاحها؛ لم يقع؛ لقوله: ﴿إذا نَكَحْتُمُ المؤمناتِ ثم طلَّقْتُموهنَّ﴾، فجعل الطلاق بعد النكاح، فدل على أنَّه قبل ذٰلك لا محلَّ له. وإذا

كان الطلاق الذي هو فرقةٌ تامةٌ وتحريمٌ تامٌّ لا يقع قبل النكاح؛ فالتحريمُ الناقص لظهارٍ أو إيلاءٍ ونحوه من باب أولى وأحرى أن لا يقعَ قبل النكاح؛ كما هو أصحُّ قولي العلماء.

و[يدل] **على** جواز الطلاق لأنَّ اللّه أخبر به عن المؤمنين على وجهٍ لم يلُمهم عليه، ولم يؤنِّبهم مع تصدير الآية بخطاب المؤمنين.

وعلى جوازه قبل المسيس؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿لا جُناحَ عليكم إن طَلَّقْتُمُ النساءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهنَّ﴾.

وعلى أنَّ المطلقة قبل الدخول لا عدَّةَ لها، بل بمجرَّدِ طلاقِها يجوزُ لها التزوجُ حيث لا مانعَ.

وعلى أنَّ عليها العدَّة بعد الدُّخول. وهل المراد بالدخول والمسيس الوطءُ كما هو مجمعٌ عليه أو وكذلك الخلوة ولو لم يحصُلْ معها وطءٌ كما أفتى بذلك الخلفاءُ الراشدون، وهو الصحيح؛ فمتى[1] دَخَلَ عليها وطئها أم لا، إذا خلا بها، وجب عليها العِدَّة.

وعلى أنَّ المطلقة قبل المسيس تُمتَّع على الموسع قدره وعلى المُقْتِرِ قدرُهُ، ولكن هذا إذا لم يفرض لها مهرٌ؛ فإنْ كان لها مهرٌ مفروضٌ؛ فإنَّه إذا طَلَّقَ قبل الدُّخول؛ تَنَصَّفَ المهر، وكفى عن المتعة.

وعلى أنه ينبغي لمن فارق زوجته قبل الدُّخول أو بعده أن يكون الفراقُ جميلاً يَحمدُ فيه كلٌّ منهما الآخر، ولا يكون غيرَ جميل؛ فإنَّ في ذلك من الشرِّ المترتِّب عليه من قدح كلٍّ منهما بالآخر شيء كثير.

وعلى أن العدَّة حقٌّ للزوج؛ لقوله: ﴿**فما لكم عليهن من عدَّةٍ**﴾: دلَّ مفهومُه أنَّه لو طلَّقها بعد المسيس؛ كان له عليها عدة.

وعلى أنَّ المفارقة بالوفاة تعتدُّ مطلقاً؛ لقوله: ﴿**ثم طلَّقْتُموهنَّ...**﴾ الآية.

وعلى أنَّ مَن عدا غير المدخول بها من المفارَقات من الزوجات بموتٍ أو حياةٍ عليهنَّ العدة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ

(١) في (ب): «فمن».

اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾﴾.

﴿٥٠﴾ يقول تعالى ممتنًّا على رسولِهِ بإحلاله له ما أحلَّ مما يشترك هو والمؤمنون وما ينفردُ به ويختصُّ: ﴿**يا أيها النبيُّ إنَّا أحْلَلْنا لك أزواجَكَ اللاَّتي آتيتَ أجورَهُنَّ**﴾؛ أي: أعطيتهنَّ مهورهنَّ من الزوجات، وهٰذا من الأمور المشتركة بينه وبين المؤمنين؛ فإنَّ المؤمنين كذٰلك يباح لهم مَنْ[1] آتَوْهُنَّ أجورَهُنَّ من الأزواج. ﴿**و**﴾ كذٰلك أحللنا لك ﴿**ما مَلَكَتْ يمينُك**﴾؛ أي: الإماء التي ملكتَ، ﴿**ممَّا أفاء الله عليكَ**﴾: من غنيمة الكفار من عبيدِهِم، والأحرار مَنْ لهنَّ زوجٌ منهم ومَنْ لا زوجَ لهن، وهٰذا أيضاً مشتركٌ، وكذٰلك من المشترك قوله: ﴿**وبناتِ عمِّك وبناتِ عماتِك وبناتِ خالِك وبناتِ خالاتِكَ**﴾: شمل العمَّ والعمة والخال والخالة القريبين والبعيدين، وهٰذا حصرُ المحللات، يؤخذ من مفهومه أنَّ ما عداهنَّ من الأقارب غير محلَّل؛ كما تقدَّم في سورة النساء؛ فإنَّه لا يُباح من الأقارب من النساء غير هٰؤلاء الأربع، وما عداهنَّ من الفروع مطلقاً، والأصول مطلقاً، وفروع الأب والأم، وإن نزلوا، وفروع مَنْ فوقَهم لصلبِهِ؛ فإنَّه لا يُباح.

وقوله: ﴿**اللاَّتي هاجَرْنَ [معك]**﴾: قَيْدٌ لحلِّ هٰؤلاء للرسول؛ كما هو الصواب من القولين في تفسير هٰذه الآية، وأما غيره عليه الصلاة والسلام؛ فقد عُلم أنَّ هٰذا قيد لغير الصحَّةِ. ﴿**و**﴾ أحللنا لك ﴿**امرأةً مؤمنةً إن وهبتْ نفسَها للنبيِّ**﴾: بمجرَّدِ هبتها نفسها، ﴿**إنْ أرادَ النبيُّ أن يَسْتَنكِحَها**﴾؛ أي: هٰذا تحت الإرادة والرغبة، ﴿**خالصةً لك من دونِ المؤمنينَ**﴾؛ يعني: إباحة الموهوبة[2]، وأما المؤمنون؛ فلا يحلُّ لهم أن يتزوَّجوا امرأةً بمجرَّد هبتها نفسها لهم. ﴿**قد عَلِمْنا ما فَرَضْنا عليهم في أزواجهم وما ملكتْ أيمانُهم**﴾؛ أي: قد علمنا ما على المؤمنين وما يحلُّ لهم وما لا يحل من الزوجات وملك اليمين، وقد أعْلَمْناهم بذٰلك، وبيَّنَّا فرائِضَه فما في هٰذه الآية مما يخالفُ ذٰلك؛ فإنَّه خاصٌّ لك؛ لكون الله جَعَلَه خطاباً للرسول وحده بقوله: ﴿**يا أيُّها النبيُّ إنا أحْلَلْنا لك...**﴾ إلى آخر الآية.

---

(١) في (ب): «ما».

(٢) في (ب): «الموهبة».

وقوله: ﴿خالصةً لك من دونِ المؤمنينَ﴾: وأبَحْنا لك يا أيُّها النبيُّ ما لم نُبِح لهم، ووسَّعْنا عليك ما لم نوسِّعْ على غيرك؛ ﴿لكيلا يكونَ عليك حرجٌ﴾: وهٰذا من زيادة اعتناء الله تعالى برسوله ﷺ، ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾؛ أي: لم يزل متصفاً بالمغفرة والرحمة، وينزل على عباده من مغفرته ورحمته وجودِهِ وإحسانِهِ ما اقتضتْه حكمتُه، ووجدت منهم أسبابُه.

﴿۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾﴾.

﴿٥١﴾ وهٰذا أيضاً من توسعة الله على رسوله ورحمته به أن أباحَ له تَرْكَ القَسْم بين زوجاتِهِ على وجه الوجوب، وأنَّه إنْ فَعَلَ ذٰلك؛ فهو تبرعٌ منه، ومع ذٰلك؛ فقد كان ﷺ يجتهدُ في القَسْم بينهنَّ في كلِّ شيءٍ، ويقول: «اللهم! هٰذا قَسْمي فيما أملك؛ فلا تَلُمْني فيما لا أملِك»[1]، فقال هنا: ﴿تُرجي مَن تشاء منهنَّ﴾؛ أي: تؤخر من أردتَ من زوجاتك، فلا تؤويها إليك، ولا تبيتُ عندها، ﴿وتُؤوي إليك مَن تشاءُ﴾؛ أي: تضمُّها وتبيت عندها، ﴿و﴾ مع ذٰلك؛ لا يتعيَّنُ هٰذا الأمر. فمن ﴿ابتغيتَ﴾؛ أي: أن تؤويها، ﴿فلا جُناح عليكَ﴾: والمعنى أنَّ الخيرة بيدك في ذٰلك كلِّه. وقال كثيرٌ من المفسِّرين: إنَّ هٰذا خاصٌّ بالواهبات له أن يُرجي من يشاء ويؤوي من يشاءُ؛ أي: إن شاء؛ قَبِلَ مَنْ وَهَبَتْ نفسها له، وإن شاء؛ لم يقبلها. والله أعلم.

ثم بيَّنَ الحكمةَ في ذٰلك، فقال: ﴿ذٰلك﴾؛ أي: التوسعةُ عليك وكونُ الأمر راجعاً إليك وبيدك وكونُ ما جاء منك إليهنَّ تبرعاً منك؛ ﴿أدنى أن تَقَرَّ أعيُنُهنَّ ولا يحزنَّ ويرضينَ بما آتيتهنَّ كلهنَّ﴾: لعلمهنَّ أنَّك لم تتركْ واجباً ولم تفرِّطْ في حقٍّ لازم، ﴿والله يعلم ما في قلوبكم﴾؛ أي: ما يعرض لها عند أداء الحقوق الواجبة والمستحبَّة وعند المزاحمة في الحقوق؛ فلذٰلك شرع لك التوسعة يا رسول الله؛ لتطمئنَّ قلوبُ زوجاتك، ﴿وكان الله عليماً حليماً﴾؛ أي: واسع العلم، كثير

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ١٤٤)، وأبو داود (٢١٣٤)، وابن ماجه (١٩٧١)، والنسائي (٧/ ٦٤)، والترمذي (١١٤٠)، وابن حبان (١٠/ ٥)، والحاكم (٢/ ١٨٢)، وصححه ووافقه الذهبي، واختلف في وصله وإرساله، وانظر: «الأرواء» (٢٠١٨).

الحلم، ومِنْ علمِهِ أنْ شَرَعَ لكم ما هو أصلحُ لأموركم وأكثرُ لأجورِكم، ومن حلمِهِ أنْ لم يعاقِبْكُم بما صَدَرَ منكم، وما أصرتْ عليه قلوبُكم من الشرِّ.

﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾.

﴿٥٢﴾ وهٰذا شكرٌ من اللّه الذي لم يزل شكوراً لزوجاتِ رسولِهِ رضي اللّه عنهنَّ، حيث اخترنَ اللّه ورسولَه والدارَ الآخرة؛ أنْ رَحِمَهُنَّ وقَصَرَ رسولَه عليهنَّ، فقال: ﴿لا يحلُّ لك النساءُ من بعدُ﴾: زوجاتك الموجودات، ﴿ولا أن تَبَدَّلَ بهنَّ من أزواجٍ﴾؛ أي: ولا أن تطلِّقَ بعضهنَّ فتأخُذَ بَدَلَها، فحصل بهٰذا أمنهنَّ من الضرائر ومن الطلاق؛ لأنَّ اللّه قضى أنهنَّ زوجاتُه في الدنيا والآخرة، لا يكون بينه وبينهنَّ فرقة، ﴿ولو أعجبك حسنهنَّ﴾؛ أي: حسن غيرهنَّ؛ فلا يَحْلُلْنَ لك، ﴿إلَّا ما ملكتْ يمينُك﴾؛ أي: السراري؛ فذٰلك جائزٌ لك؛ لأنَّ المملوكات في كراهة الزوجات لَسْنَ بمنزلة الزوجات في الإضرار للزوجات. ﴿وكان اللّه على كل شيءٍ رَقيباً﴾؛ أي: مراقباً للأمور وعالماً بما إليه تؤول وقائماً بتدبيرها على أكمل نظام وأحسن إحكام.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾.

﴿٥٣﴾ يأمر تعالى عبادَه المؤمنين بالتأدُّب مع رسول اللّه ﷺ في دخول بيوتِهِ، فقال: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا لا تدخُلوا بيوت النبيِّ إلَّا أن يُؤْذَنَ لكم إلى طعام﴾؛ أي: لا تدخُلوها بغير إذنٍ للدخول فيها لأجل الطعام، وأيضاً لا تكونوا ﴿ناظرين إناه﴾؛ أي: منتظرين ومتأنين لانتظار نضجه أو سعة صدرٍ بعد الفراغ منه. والمعنى: أنكم لا تدخُلوا بيوتَ النبيِّ إلَّا بشرطين: الإذن لكم بالدخول، وأنْ يكون جلوسُكم بمقدارِ الحاجة، ولهٰذا قال: ﴿ولكنْ إذا دُعيتُم فادْخُلوا فإذا طَعِمْتُم

فانتَشِروا ولا مُسْتَأنِسينَ لحديثٍ﴾؛ أي: قبل الطعام وبعده.

ثم بيَّن حكمةَ النهي وفائدتَه، فقال: ﴿إنَّ ذٰلكم﴾؛ أي: انتظاركم الزائد على الحاجة ﴿كان يؤذي النبيَّ﴾؛ أي: يتكلَّف منه ويشقُّ عليه حبسُكم إيَّاه عن شؤون بيتِهِ وأشغاله فيه، ﴿فيَسْتَحيي منكم﴾: أن يقولَ لكم: اخرُجوا! كما هو جاري العادة أن الناس ـ خصوصاً أهل الكرم منهم ـ يَسْتَحْيونَ أن يُخْرِجوا الناس من مساكنهم، ﴿و﴾ لكن ﴿اللّه لا يَسْتَحْيي من الحقِّ﴾: فالأمر الشرعيُّ، ولو كان يُتَوهَّم أنَّ في تركِهِ أدباً وحياءً؛ فإنَّ[1] الحزم كلَّ الحزم اتِّباعُ الأمر الشرعيِّ، وأنْ يجزمَ أنَّ ما خالفه ليس من الأدب في شيءٍ، واللّه تعالى لا يستحيي أنْ يأمُرَكم بما فيه الخيرُ لكم والرفقُ لرسوله كائناً ما كان.

فهٰذا أدبُهم في الدخول في بيوته، وأما أدبُهم معه في خطاب زوجاتِهِ؛ فإنَّه: إمَّا أن يحتاجَ إلى ذٰلك، أو لا يحتاجُ إليه؛ فإن لم يحتج إليه؛ فلا حاجة إليه، والأدب تركُه، وإن احتيج إليه، كأنْ يسألهنَّ متاعاً أو غيره من أواني البيت أو نحوها؛ فإنَّهنَّ يُسْألْنَ ﴿من وراءِ حجابٍ﴾؛ أي: يكون بينكم وبينهنَّ سترٌ يستر عن النظر؛ لعدم الحاجة إليه، فصار النظر إليهنَّ ممنوعاً بكلِّ حال، وكلامهنَّ فيه التفصيلُ الذي ذكره اللّه. ثم ذكر حكمةَ ذٰلك بقوله: ﴿ذٰلكُم أطهرُ لقلوبكم وقلوبهنَّ﴾؛ لأنَّه أبعدُ عن الريبة، وكلَّما بَعُدَ الإنسان عن الأسباب الداعيةِ إلى الشرِّ؛ فإنَّه أسلمُ له وأطهرُ لقلبِهِ؛ فلهٰذا من الأمور الشرعيَّة التي بيَّن اللّه كثيراً من تفاصيلها أنَّ جميعَ وسائل الشرِّ وأسبابه ومقدِّماته ممنوعةٌ، وأنه مشروعٌ البعد عنها بكلِّ طريق.

ثم قال كلمةً جامعةً وقاعدةً عامةً: ﴿وما كان لكم﴾: يا معشر المؤمنين؛ أي: غير لائقٍ ولا مستحسنٍ منكم، بل هو أقبحُ شيء، ﴿أن تُؤذوا رسولَ اللّه﴾؛ أي: أذيَّة قوليَّة أو فعليَّة بجميع ما يتعلَّق به، ﴿ولا أن تَنكِحوا أزواجَه من بعده أبداً﴾: هٰذا من جملة ما يؤذيه؛ فإنَّه ﷺ له مقامُ التعظيم والرفعةِ والإكرام، وتزوُّجُ زوجاتِهِ بعدَه مخلٌّ بهٰذا المقام، وأيضاً؛ فإنهنَّ زوجاتُه في الدُّنيا والآخرة، والزوجيَّةُ باقيةٌ بعد موته؛ فلذٰلك لا يحلُّ نكاحُ زوجاتِهِ بعده لأحدٍ من أمته. ﴿إنَّ ذٰلكم كان عند اللّه عظيماً﴾: وقد امتثلت هٰذه الأمة هٰذا الأمر، واجتنبتْ ما نهى اللّه عنه منه، وللّه الحمد والشكر.

---

(١) في (ب): «فإنه».

﴿٥٤﴾ ثم قال تعالى: ﴿إن تُبْدوا شيئاً﴾؛ أي: تظهروه، ﴿أوْ تُخفوه فإنَّ اللّه كان بكلِّ شيءٍ عليماً﴾: يعلم ما في قلوبكم، وما أظهرتموه؛ فيجازيكم عليه.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾.

﴿٥٥﴾ لمَّا ذكر أنهنَّ لا يُسألن متاعاً إلَّا من وراء حجاب، وكان اللفظُ عامًّا لكلِّ أحدٍ؛ احتيجَ أن يُستثنى منه هٰؤلاء المذكورون من المحارم، وأنَّه ﴿لا جُناحَ عليهنَّ﴾ في عدم الاحتجاب عنهم، ولم يذكر فيها الأعمام والأخوال؛ لأنَّهنَّ إذا لم يَحْتَجِبْنَ عمَّن هنَّ عماته وخالاته من أبناء الإخوة والأخوات مع رفعتهنَّ عليهم؛ فعدم احتجابهنَّ عن عمِّهنَّ وخالهنَّ من باب أولى، ولأنَّ منطوق الآية الأخرى المصرِّحة بذكر العمِّ والخال مقدَّمة على ما يُفهم من هٰذه الآية، وقوله: ﴿ولا نسائهنَّ﴾؛ أي: لا جناح عليهن أن لا يحتجبن عن نسائهنَّ؛ أي: اللاتي من جنسهنَّ في الدين، فيكون ذٰلك مخرجاً لنساء الكفار، ويُحتمل أنَّ المراد جنس النساء؛ فإنَّ المرأة لا تحتجب عن المرأة، ﴿ولا ما مَلَكَتْ أيمانُهنَّ﴾: ما دام العبدُ في ملكها جميعه، ولما رفع الجناح عن هٰؤلاء؛ شَرَطَ فيه وفي غيره لزومَ تقوى اللّه، وأنْ لا يكون في ذٰلك محذورٌ شرعيٌّ، فقال: ﴿واتَّقينَ اللّه﴾؛ أي: استعملْنَ تقواه في جميع الأحوال. ﴿إن اللّه كان على كلِّ شيءٍ شهيداً﴾: يشهد أعمال العباد ظاهرها وباطنها، ويسمعُ أقوالهم، ويرى حركاتِهِم؛ ثم يجازيهم على ذٰلك أتمَّ الجزاء وأوفاه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾.

﴿٥٦﴾ وهٰذا فيه تنبيهٌ على كمال رسول اللّه ﷺ ورفعةِ درجتِهِ وعلوِّ منزلته عند اللّه وعند خلقه ورفع ذِكْرِهِ، و﴿إنَّ اللّه﴾ تعالى ﴿وملائكته يصلُّون﴾ عليه؛ أي: يثني اللّه عليه بين الملائكةِ وفي الملأ الأعلى لمحبَّته تعالى له، ويُثني عليه الملائكة المقرَّبون، ويدعون له ويتضرَّعون. ﴿يا أيُّها الذين آمنوا صلُّوا عليه وسلِّموا تسليماً﴾: اقتداءً باللّه وملائكته، وجزاءً له على بعض حقوقِهِ عليكم، وتكميلاً لإيمانكم، وتعظيماً له ﷺ ومحبةً وإكراماً، وزيادةً في حسناتكم. وتكفيراً من سيئاتكم، وأفضلُ هيئات الصلاة عليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ما علَّم به أصحابه: «اللهمَّ صلِّ على محمد وعلى آل محمدٍ كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد

مجيد، وبارك على محمدٍ وعلى آل محمدٍ كما باركت على آل إبراهيم إنَّك حميدٌ مجيدٌ»[(١)]. وهٰذا الأمر بالصلاة والسلام عليه مشروعٌ في جميع الأوقات، وأوجبَه كثيرٌ من العلماء في الصلاة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾.

﴿٥٧ ـ ٥٨﴾ لما أمر تعالى بتعظيم رسوله ﷺ والصلاة والسلام عليه؛ نهى عن أذيَّته، وتوعَّد عليها، فقال: ﴿إنَّ الذين يؤذونَ اللَّه ورسولَه﴾: وهٰذا يشملُ كلَّ أذيَّة قوليَّة أو فعليَّة من سبٍّ وشتم أو تنقُّص له أو لدينه أو ما يعود إليه بالأذى، ﴿لَعَنَهُمُ اللَّه في الدُّنيا﴾؛ أي: أبعدهم وطردهم، ومِنْ لَعْنِهِم في الدُّنيا أنه يتحتَّم[(٢)] قتلُ من شتم الرسول وآذاه، ﴿والآخرةِ وأعدَّ لهم عذاباً [مهيناً]﴾[(٣)]: جزاءً له على أذاه أن يُؤذى بالعذابِ [الأليم][(٤)]، فأذيَّة الرسول ليست كأذيَّة غيرِهِ؛ لأنَّه صلى اللَّه عليه وسلم لا يؤمِن العبدُ باللَّه حتى يؤمنَ برسوله، وله من التعظيم الذي هو من لوازم الإيمانِ ما يقتضي ذٰلك أنْ لا يكونَ مثلَ غيرِهِ، وإنْ كان أذيَّةُ المؤمنين عظيمةً وإثمهُا عظيماً، ولهٰذا قال فيها: ﴿والذين يؤذونَ المؤمنين والمؤمناتِ بغير ما اكتَسَبوا﴾؛ أي: بغير جناية منهم موجبةٍ للأذى، ﴿فقدِ احتَمَلوا﴾: على ظهورِهم ﴿بُهتاناً﴾: حيث آذَوْهم بغير سببٍ، ﴿وإثماً مبيناً﴾: حيث تعدَّوْا عليهم وانتهكوا حرمةً أمرَ اللَّهُ باحترامِها، ولهٰذا كان سبُّ آحاد المؤمنين موجباً للتعزير بحسب حالته وعلوِّ مرتبتِهِ؛ فتعزيرُ مَنْ سبَّ الصحابة أبلغُ، وتعزيرُ من سبَّ العلماء وأهل الدين أعظم من غيرهم.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٥٧)، ومسلم (٤٠٦) من حديث كعب بن عجرة. وانظر «جلاء الأفهام» لابن القيم.

(٢) في (ب): «يحتم».

(٣) في النسختين: «أليما».

(٤) كذا في النسختين.

﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾.

﴿٥٩﴾ هٰذه الآية هي التي تسمَّى آية الحجاب، فأمر الله نبيَّه أن يأمُرَ النساء عموماً، ويبدأ بزوجاتِهِ وبناتِهِ ـ لأنَّهنَّ آكدُ من غيرهنَّ، ولأنَّ[1] الآمر لغيره ينبغي أن يبدأ بأهله قبل غيرهم؛ كما قال تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا قُوا أنفسَكم وأهليكم ناراً﴾. ﴿أن يُدْنينَ عليهنَّ من جلابيبِهِنَّ﴾: وهنَّ اللاَّتي يَكُنَّ فوق الثياب من ملحفةٍ وخمارٍ ورداءٍ ونحوه؛ أي: يغطِّين بها وجوهَهن وصدورَهن، ثم ذكر حكمة ذٰلك، فقال: ﴿ذٰلك أدنى أن يُعْرَفْنَ فلا يُؤْذَيْنَ﴾: دلَّ على وجود أذيَّةٍ إن لم يحتَجِبْن، وذٰلك لأنهنَّ إذا لم يحتجِبْن، ربَّما ظنَّ أنهنَّ غير عفيفاتٍ، فيتعرَّض لَهُنَّ مَنْ في قلبهِ مرضٌ، فيؤذيهنَّ، وربما استُهين بهنَّ، وظُنَّ أنهنَّ إماء، فتهاون بهنَّ من يريدُ الشرَّ؛ فالاحتجابُ حاسمٌ لمطامع الطامعين فيهنَّ. ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾: حيث غفر لكم ما سَلَفَ ورَحِمَكُم بأن بيَّن لكم الأحكام وأوضح الحلال والحرام؛ فهٰذا سدٌّ للباب من جهتهنَّ.

﴿٦٠ ـ ٦١﴾ وأما من جهة أهل الشرِّ؛ فقد توعَّدهم بقوله: ﴿لئن لم ينتهِ المنافقونَ والذين في قلوبهم مرضٌ﴾؛ أي: مرض شكٍّ أو شهوةٍ، ﴿والمرجِفون في المدينة﴾؛ أي: المخوِّفون المرهِبون الأعداء، المتحدِّثون[2] بكثرتِهم وقوَّتِهم وضعف المسلمين، ولم يذكرِ المعمولَ الذي ينتهون عنه؛ ليعمَّ ذٰلك كلَّ ما توحي به أنفسُهم إليهم، وتوسوِسُ به، وتدعو إليه من الشرِّ من التعريض بسبِّ الإسلام وأهله، والإرجاف بالمسلمين، وتوهين قُواهم، والتعرُّض للمؤمنات بالسوء والفاحشة. وغير ذٰلك من المعاصي الصادرة من أمثال هٰؤلاء.

﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بهم﴾؛ أي: نأمرك بعقوبتهم وقتالهم ونسلِّطك عليهم، ثم إذا فعلنا ذٰلك؛ لا طاقةَ لَهم بك، وليس لهم قوةٌ ولا امتناعٌ، ولهٰذا قال: ﴿ثم لا يجاوِرونَكَ فيها إلَّا قليلاً﴾؛ أي: لا يجاورونك في المدينة إلَّا قليلاً؛ بأن تقتُلَهم أو تنفيهم، وهٰذا فيه دليلٌ لنفي أهل الشرِّ الذين يُتَضَرَّر بإقامتهم بين أظهر المسلمين؛ فإنَّ ذٰلك أحسم للشرِّ وأبعد منه، ويكونونَ ﴿ملعونينَ أينما ثُقِفوا أُخِذوا وقُتِّلوا تقْتيلاً﴾؛ أي: مبعَدين حيثُ[3]

---

(١) في (ب): «ولأنه».
(٢) في (ب): «المحدثون».
(٣) في (ب): «أين».

وُجِدوا، لا يحصُلُ لهم أمنٌ، ولا يقرُّ[1] لهم قرارٌ، يخشون أن يُقتلوا أو يُحبسوا أو يعاقَبوا.

﴿٦٢﴾ ﴿سُنَّةَ الله في الذين خَلَوْا من قبلُ﴾: أنَّ مَن تمادى في العصيانِ وتجرَّأ على الأذى ولم ينتهِ منه؛ فإنَّه يعاقَب عقوبةً بليغةً، ﴿ولن تَجِدَ لسنَّةِ الله تبديلا﴾؛ أي: تغييراً، بل سنته تعالى وعادتُه جاريةٌ مع الأسباب المقتضية لأسبابها.

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾.

﴿٦٣﴾ أي: يستخبرك الناسُ عن الساعة استعجالاً لها، وبعضُهم تكذيباً لوقوعها وتعجيزاً للذي أخبر بها، ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿إنَّما علمُها عند الله﴾؛ أي: لا يعلمُها إلَّا الله؛ فليس لي ولا لغيري بها علمٌ، ومع هٰذا؛ فلا[2] تستبطئوها، ﴿وما يُدْريك لعلَّ الساعةَ تكونُ قريباً﴾.

﴿٦٤ ـ ٦٦﴾ ومجردُ مجيء الساعة قرباً وبعداً ليس تحته نتيجةٌ ولا فائدةٌ، وإنَّما النتيجة والخسار والربح والشقاوة[3] والسعادة: هل يستحقُّ العبدُ العذاب أو يستحقُّ الثواب؛ فهٰذه سأخبركم بها وأصفُ لكم مستحقَّها، فوصف مستحقَّ العذاب ووصف العذاب؛ لأنَّ الوصف المذكور منطبقٌ على هٰؤلاء المكذِّبين بالساعة، فقال: ﴿إنَّ الله لَعَنَ الكافرين﴾؛ أي: الذين صار الكفر دأبهم وطريقتهم الكفر بالله وبرسُلِهِ وبما جاؤوا به من عند الله، فأبعدهم في الدنيا والآخرة من رحمته، وكفى بذٰلك عقاباً، ﴿وأعدَّ لهم سعيراً﴾؛ أي: ناراً موقدةً تُسعَّرُ في أجسامهم، ويبلغُ العذاب إلى أفئدتهم، ويخلدون في ذٰلك العذاب الشديد، فلا يخرجونَ منه، ولا يُفَتَّرُ عنهم ساعةً، ﴿ولا يجدون﴾ لهم ﴿وليًّا﴾: فيعطيهم ما طلبوه ﴿ولا نصيراً﴾: يدفعُ عنهم العذابَ، بل قد تخلَّى عنهم العلي النصير وأحاطَ بهم عذابُ السعير، وبلغ منهم مبلغاً عظيماً، ولهٰذا قال: ﴿يوم تُقَلَّبُ وجوهُهم في النارِ﴾: فيذوقون

(١) في (ب): «ولا يقرر».
(٢) في (ب): «قد تستبطئونها».
(٣) في (ب): «والشقا».

حرَّها، ويشتدُّ عليهم أمرُها، ويتحسرون على ما أسلفوا. و ﴿**يقولونَ يا لَيتَنا أطَعْنا اللّه وأطَعْنا الرسولا**﴾: فسلِمْنا من هٰذا العذاب، واستَحْقَقنا كالمطيعين جزيلَ الثواب، ولكن أمنية فاتَ وقتُها، فلم تفدهم إلا حسرةً وندماً وهمًّا وغمًّا وألماً.

﴿٦٧﴾ ﴿**وقالوا ربَّنا إنَّا أطَعْنا سادتنا وكبراءنا**﴾: وقلَّدْناهم على ضلالهم، ﴿**فأضَلُّونا السبيلا**﴾؛ كقوله تعالى: ﴿ويوم يَعَضُّ الظالمُ على يديهِ يقولُ يا ليتني اتَّخذْتُ مع الرسولِ سبيلاً. يا وَيْلتى لَيْتَني لم أتَّخِذْ فلاناً خليلاً. لقد أضلَّني عن الذِّكْر [بعد إذ جاءني]. . .﴾ الآية.

﴿٦٨﴾ ولما علموا أنَّهم هم وكبراءهم مستحقُّون للعقاب؛ أرادوا أن يشتفوا ممَّنْ أضلُّوهم، فقالوا: ﴿**ربَّنا آتهم ضِعْفَيْنِ من العذاب والْعَنْهم لَعناً كبيراً**﴾: فيقول اللّه ﴿لكلٍّ ضعف﴾: فكلُّكم اشتركتُم في الكفر والمعاصي، فتشتركون في العقاب، وإنْ تفاوت عذابُ بعضِكم على بعض بحسب تفواتِ الجرم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾.

﴿٦٩﴾ يحذِّر تعالى عبادَه المؤمنين عن أذيَّة رسولهم محمدٍ ﷺ النبيِّ الكريم الرءوف الرحيم، فيقابلوه بضدِّ ما يجب له من الإكرام والاحترام، وأن لا يتشبَّهوا بحال الذين آذَوْا موسى بن عمران كليم الرحمٰن، فبرَّأه اللّه مما قالوا من الأذيَّة؛ أي: أظهر اللّه لهم براءته، والحالُ أنَّه عليه الصلاة والسلام ليس محلَّ التهمة والأذية؛ فإنَّه كان وجيهاً عند اللّه، مقرباً لديه، من خواصِّ المرسلين، ومن عباد اللّه[1] المخلَصين، فلم يزجرهم ما له من الفضائل عن أذيَّته والتعرُّض له بما يكره. فاحذروا أيُّها المؤمنون أن تتشبَّهوا بهم في ذٰلك، والأذيَّة المشار إليها هي قولُ بني إسرائيل عن موسى[2] لما رأوا شدَّة حيائِهِ وتستُّره عنهم: إنَّه ما يمنعُه من ذٰلك إلَّا أنَّه آدرُ؛ أي: كبير الخصيتين، واشتهر ذٰلك عندهم، فأراد اللّه أن يبرِّئه منهم، فاغتسل يوماً، ووضع ثوبه على حجر، ففرَّ الحجر بثوبه، فأهوى موسى عليه السلام في طلبه، فمرَّ به على مجالس بني إسرائيل، فرأوه أحسن خلق اللّه، فزال عنه ما رموه به[3].

---

(١) في (ب): «عباده». (٢) في (ب): «الموسى».

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٠٤)، ومسلم (٣٣٩) من حديث أبي هريرة رضي اللّه عنه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾.

﴿٧٠﴾ يأمر تعالى المؤمنين بتقواه في جميع أحوالِهِم في السرِّ والعلانية، ويخصُّ منها ويندب للقول السديد، وهو القول الموافق للصواب أو المقارب له عند تعذُّر اليقين من قراءةٍ وذكرٍ وأمرٍ بمعروف ونهي عن منكرٍ وتعلُّم علم وتعليمه والحرص على إصابة الصواب في المسائل العلميَّة وسلوك كلِّ طريق موصِل لذلك وكل وسيلةٍ تُعين عليه. ومن القول السديد لينُ الكلام ولطفُه في مخاطبة الأنام والقول المتضمِّن للنُّصح والإشارة بما هو الأصلح.

﴿٧١﴾ ثم ذَكَرَ ما يترتَّب على تقواه وقول القول السديدِ، فقال: ﴿يُصْلِحْ لكم أعمالَكم﴾؛ أي: يكون ذلك سبباً لصلاحها وطريقاً لقَبولها؛ لأنَّ استعمال التقوى تُتَقَبَّلُ به الأعمال؛ كما قال تعالى: ﴿إنَّما يتقبَّلُ الله من المتَّقينَ﴾: ويوفَّق فيه الإنسان للعمل الصالح، ويُصْلِحُ الله الأعمال أيضاً بحفظها عما يُفْسِدُها وحفظِ ثوابها ومضاعفتِهِ؛ كما أنَّ الإخلال بالتقوى والقول السديد سببٌ لفسادِ الأعمال وعدم قَبولها وعدم ترتب آثارِها عليها، ﴿ويَغفِرْ لكم﴾: أيضاً ﴿ذنوبكم﴾: التي هي السببُ في هلاكِكُم؛ فالتَّقْوى تستقيمُ بها الأمور، ويندفعُ بها كلُّ محذور، ولهذا قال: ﴿ومَن يُطِعِ اللهَ ورسولَه فقد فاز فوزاً عظيماً﴾.

﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ٧٢ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمَۢا ٧٣﴾.

﴿٧٢﴾ يعظِّم تعالى شأنَ الأمانةَ التي ائتمنَ الله عليها المكلَّفين، التي هي امتثال الأوامر واجتناب المحارم في حال السرِّ والخفية كحال العلانية، وأنَّه تعالى عَرَضَها على المخلوقات العظيمة السماواتِ والأرض والجبال عرضَ تخييرٍ لا تحتيم، وأنَّكِ إن قمتِ بها وأدَّيْتِيها على وجهها؛ فلكِ الثوابُ، وإنْ لم تَقومي بها ولم تؤدِّيها؛ فعليكِ العقاب، ﴿فأبَيْنَ أن يَحْمِلْنَها وأشفَقْنَ منها﴾؛ أي: خوفاً أن لا يقمنَ بما حملن، لا عصياناً لربِّهن ولا زهداً في ثوابه، وعرضها الله على الإنسان على ذلك الشرط المذكور، فقبِلَها وحملها مع ظلمِهِ وجهلِهِ، وحمل هذا الحمل الثقيل.

﴿٧٣﴾ فانقسم الناس بحسب قيامهم بها وعدمِهِ إلى **ثلاثة أقسام: منافقون**

[أظهروا أنهم] قاموا بها ظاهراً لا باطناً، **ومشركون** تركوها ظاهراً وباطناً، **ومؤمنون** قائمون بها ظاهراً وباطناً. فذكرَ اللّه تعالى أعمالَ هٰذه الأقسام الثلاثة وما لهم من الثوابِ والعقابِ، فقال: ﴿ليعذِّبَ اللّه المنافقينَ والمنافقاتِ والمشركينَ والمشركاتِ ويتوبَ اللّه على المؤمنين والمؤمنات وكان اللّه غفوراً رحيماً﴾: فله تعالى الحمدُ حيث خَتَمَ هٰذه الآية بهٰذين الاسمين الكريمين الدالَّيْن على تمام مغفرةِ اللّه وسعة رحمتِهِ وعموم جوده، مع أنَّ المحكوم عليهم كثيرٌ، منهم لم يستحقَّ المغفرة والرحمة، لنفاقِهِ وشركِهِ.

تم تفسير سورة الأحزاب بحمد اللّه وعونه.

❁ ❁ ❁

تفسير سورة سبأ

[وهي] مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْآخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾.

﴿١﴾ ﴿الحمدُ﴾: الثناء بالصفات الحميدةِ والأفعال الحسنة؛ فلله تعالى الحمدُ؛ لأنَّ جميع صفاته يُحمد عليها لكونها صفاتِ كمال، وأفعالُه يُحمد عليها لأنَّها دائرةٌ بين الفضل الذي يُحمد عليه ويُشكر، والعدل الذي يُحمد عليه ويُعترف بحكمتِهِ فيه. وحَمَدَ نفسَه هنا على أنَّ ﴿له ما في السمٰوات وما في الأرض﴾: مُلكاً وعبيداً يتصرَّف فيهم بحمده. ﴿وله الحمدُ في الآخرة﴾: لأنَّ في الآخرة يظهرُ من حمدِهِ والثناء عليه ما لا يكون في الدنيا؛ فإذا قضى اللّه تعالى بين الخلائق كلِّهم، ورأى الناس والخلق كلُّهم ما حكم به وكمال عدلِهِ وقسطِهِ وحكمته فيه؛ حمدوه كلُّهم على ذٰلك، حتى أهل العقاب؛ ما دخلوا النار إلَّا وقلوبُهم ممتلئةٌ من حمده، وأنَّ هٰذا من جزاء أعمالهم، وأنَّه عادلٌ في حكمه بعقابهم.

وأمَّا ظهورُ حمدِهِ في دار النعيم والثواب؛ فذٰلك شيء قد تواردتْ به الأخبارُ وتوافقَ عليه الدليلُ السمعيُّ والعقليُّ؛ فإنَّهم في الجنة يرون من توالي نعم اللّه

وإدرارِ خيره وكثرةِ بركاته وسَعَةِ عطاياه التي لم يبقَ في قلوب أهل الجنة أمنيةٌ ولا إرادةٌ إلَّا وقد أعطي فوق ما تمنَّى وأراد، بل يُعْطَوْنَ من الخير ما لم تتعلَّقْ به أمانيهم ولم يخطُرْ بقلوبِهم؛ فما ظنُّك بحمدِهم لربِّهم في هٰذه الحال مع أنَّ في الجنة تضمحلُّ العوارض والقواطع التي تقطع عن معرفة اللّه ومحبَّتِهِ والثناء عليه، ويكون ذٰلك أحبَّ إلى أهلها من كلِّ نعيم وألذَّ عليهم من كل لَذَّةٍ؟! ولهٰذا؛ إذا رأوا اللّه تعالى وسمعوا كلامه عند خطابِهِ لهم؛ أذهَلَهم ذٰلك عن كلِّ نعيم، ويكون الذكر لهم في الجنة كالنَّفَس متواصلاً في جميع الأوقات، هٰذا إذا أضفتَ ذٰلك إلى أنَّه يظهر لأهل الجنة في الجنةِ كلَّ وقتٍ من عظمة ربِّهم وجلالِهِ وجمالِهِ وسعة كمالِهِ ما يوجب لهم كمالَ الحمد والثناء عليه. ﴿وهو الحكيمُ﴾: في ملكه وتدبيره، الحكيم في أمره ونهيه. ﴿الخبيرُ﴾: المطَّلعُ على سرائر الأمورِ وخفاياها.

﴿٢﴾ ولهٰذا فصَّلَ علمَه بقولِهِ: ﴿يعلم ما يَلِجُ في الأرضِ﴾؛ أي: من مطر وبذرٍ وحيوان، ﴿وما يخرُجُ منها﴾: من أنواع النباتاتِ وأصناف الحيواناتِ، ﴿وما ينزلُ من السماءِ﴾: من الأملاك والأرزاق والأقدار، ﴿وما يعرُجُ فيها﴾: من الملائكة والأرواح وغير ذٰلك. ولمَّا ذَكَرَ مخلوقاتِهِ وحكمتَه فيها وعلمَه بأحوالها؛ ذكر مغفرتَه ورحمتَه لها، فقال: ﴿وهو الرحيمُ الغفورُ﴾؛ أي: الذي الرحمة والمغفرة وصفُه، ولم تزلْ آثارُهما تنزِلُ على العباد[1] كلَّ وقتٍ بحسب ما قاموا به من مقتضياتهما.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾.

﴿٣﴾ لـمَّا بيَّن تعالى عظمته بما وصف به نفسه، وكان هٰذا موجباً لتعظيمه وتقديسه والإيمان به؛ ذكر أنَّ من أصناف الناس طائفةً لم تُقدِّرْ ربَّها حقَّ قدرِهِ، ولم تعظِّمْه حق عظمته، بل كفروا به وأنكروا قدرتَه على إعادةِ الأموات وقيام الساعة، وعارضوا بذٰلك رسلَه، فقال: ﴿وقال الذين كفروا﴾؛ أي: باللّه وبرسله وبما جاؤوا به، فقالوا بسبب كفرهم: ﴿لا تأتينا الساعةُ﴾؛ أي: ما هي إلَّا هٰذه الحياة الدُّنيا

(١) في (ب): «عباده».

نموت ونحيا! فأمر اللّه رسولَه أنْ يردَّ قولَهم ويُبْطِلَه ويقسِمَ على البعث وأنَّه سيأتيهم، واستدلَّ على ذٰلك بدليل مَن أقرَّ به؛ لزمه أن يصدِّق بالبعث ضرورةً، وهو علمُه تعالى الواسعُ العامُّ، فقال: ﴿عالم الغيب﴾؛ أي: الأمور الغائبة عن أبصارنا وعن علمنا؛ فكيف بالشهادة؟! ثم أكَّد علمه فقال: ﴿لا يعزُبُ﴾؛ أي: لا يغيب عن علمه ﴿مثقالُ ذرَّةٍ في السمٰواتِ ولا في الأرض﴾؛ أي: جميع الأشياء بذواتها وأجزائها، حتى أصغر ما يكون من الأجزاء، وهو المثاقيل منها، ﴿ولا أصغر من ذٰلك ولا أكبر إلَّا في كتابٍ مبينٍ﴾؛ أي: قد أحاط به علمُه وجرى به قلمُه وتضمَّنه الكتابُ المبينُ الذي هو اللوحُ المحفوظ.

فالذي لا يخفى عن علمِهِ مثقال الذرة فما دونَه في جميع الأوقات، ويعلم[1] ما تَنْقُصُ الأرضُ من الأموات وما يبقى من أجسادهم؛ قادرٌ على بعثهم من باب أولى، وليس بعثُهم بأعجبَ من هٰذا العلم المحيط.

﴿٤﴾ ثم ذكر المقصودَ من البعث، فقال: ﴿ليجزيَ الذين آمنوا﴾: بقلوبهم صدَّقوا اللّه، وصدَّقوا رسله تصديقاً جازماً، ﴿وعملوا الصالحاتِ﴾: تصديقاً لإيمانهم. ﴿أولٰئك لهم مغفرةٌ﴾: لذنوبهم، بسبب إيمانهم وعملهم يندفعُ بها كلُّ شرٍّ وعقابٍ، ﴿ورزقٌ كريمٌ﴾: بإحسانهم، يحصلُ لهم به كلُّ مطلوبٍ ومرغوبٍ وأمنيَّة.

﴿٥﴾ ﴿والذين سَعَوْا في آياتنا مُعَاجِزينَ﴾؛ أي: سعوا فيها كفراً بها وتعجيزاً لمن جاء بها وتعجيزاً لمن أنزلها كما عجَّزوه في الإعادة بعد الموت. ﴿أولٰئك لهم عذابٌ من رجزٍ أليم﴾؛ أي: مؤلم لأبدانهم وقلوبهم.

﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾.

﴿٦﴾ لما ذكر تعالى إنكارَ من أنكر البعثَ، وأنَّهم يرونَ ما أنزل على رسوله ليس بحقٍّ؛ ذكر حالة الموفَّقين من العباد، وهم أهل العلم، وأنَّهم يرون ما أنزل اللّه على رسوله؛ من الكتاب وما اشتملَ عليه من الأخبارِ ﴿هو الحقَّ﴾؛ أي: الحقُّ منحصرٌ فيه، وما خالفه وناقضه فإنه باطل؛ لأنَّهم وصلوا من العلم إلى درجة

(١) في (ب): «وعلم».

اليقين، ويرون أيضاً أنَّه في أوامره ونواهيه؛ ﴿يهدي إلى صراطِ العزيز الحميد﴾: وذٰلك لأنَّهم[١] جزموا بصدق ما أخبر بها من وجوهٍ كثيرةٍ: من جهة علمِهم بصدقِ مَنْ أخبر بها، ومن جهةِ موافقتها للأمور الواقعة والكتبِ السابقة، ومن جهةِ ما يشاهِدون من أخبارها التي تقع عياناً، ومن جهة ما يشاهدونَ من الآيات العظيمة الدالَّة عليها في الآفاق وفي أنفسهم، ومن جهةِ موافقتها لما دلَّت عليه أسماؤه تعالى وأوصافُه، ويرون في الأوامر والنواهي أنها تهدي إلى الصراط المستقيم المتضمن للأمور[٢] بكل صفةٍ تزكي النفس وتنمي الأجر وتفيد العامل وغيره؛ كالصدق والإخلاص وبر الوالدين وصلة الأرحام والإحسان إلى عموم الخلق ونحو ذٰلك، وتنهى عن كلِّ صفة قبيحةٍ، تدنِّس النفس، وتحبِطُ الأجر، وتوجِبُ الإثم والوزر من الشرك والزنا والربا والظُّلم في الدماء والأموال والأعراض.

وهٰذه منقبةٌ لأهل العلم وفضيلةٌ وعلامةٌ لهم، وأنَّه كلَّما كان العبد أعظم علماً وتصديقاً بأخبار ما جاء به الرسول وأعظم معرفةً بحكم أوامره ونواهيه؛ كان من أهل العلم الذين جعلهم اللّه حجةً على ما جاء به الرسول، احتجَّ اللّه بهم على المكذِّبين المعاندين كما في هٰذه الآية وغيرها.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ ۝٨ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٩﴾.

﴿٧﴾ أي: ﴿وقال الذين كفروا﴾: على وجه التكذيب والاستهزاء والاستبعاد، وذِكْر وجه الاستبعاد؛ أي: قال بعضُهم لبعض: ﴿هل ندلُّكم على رَجُل يُنَبِّئُكم إذا مُزِّقْتُم كلَّ مُمَزَّقٍ إنَّكم لَفي خَلْقٍ جديدٍ﴾؛ يعنون بذٰلك الرجل رسولَ اللّه ﷺ، وأنَّه رجلٌ أتى بما يُستغرب منه، حتى صار بزعمهم فرجةً يتفرَّجون عليه وأعجوبةً يسخرون منه، وأنَّه كيف يقولُ: إنكم مبعوثون بعد ما مَزَّقَكُمُ البِلى وتفرَّقت أوصالُكم، واضمحلَّتْ أعضاؤكم!

﴿٨﴾ فهٰذا الرجلُ الذي يأتي بذٰلك: هل افترَى ﴿على اللّه كَذِباً﴾: فتجرَّأ عليه

---

(١) في (ب): «أنهم».
(٢) في (ب): «للامر».

وقال ما قال، ﴿أم به جِنَّةٌ﴾: فلا يُستغرب منه؛ فإنَّ الجنون فنونٌ، وكلُّ هٰذا منهم على وجه العناد والظُّلم، ولقد علموا أنه أصدقُ خلقِ اللّه وأعقلُهم، ومِنْ علمِهِم أنَّهم أبدووا وأعادوا في معاداتهم، وبذلوا أنفُسَهم وأموالَهم في صدِّ الناس عنه؛ فلو كان كاذباً مجنوناً؛ لم ينبغ لكم يا أهل العقول غير الزاكيةِ أن تُصْغوا لما قال ولا تحتفِلوا بدعوتِهِ؛ فإنَّ المجنون لا ينبغي للعاقل أن يُلْفِتَ إليه نَظَرَه أو يبلغَ قولُهُ منه كلَّ مبلغ، ولولا عنادُكم وظلمُكم؛ لَبادَرْتُم لإجابته ولَبَّيْتُم دعوتَه، ولكن ما تُغني الآياتُ والنُّذر عن قوم لا يؤمنون، ولهٰذا قال تعالى: ﴿بل الذين لا يؤمنونَ بالآخرةِ﴾، ومنهم الذين قالوا تلك المقالَة ﴿في العذابِ والضَّلال البعيدِ﴾؛ أي: في الشقاء العظيم والضلال البعيدِ الذي ليس بقريبٍ من الصواب، وأيُّ شقاءٍ وضلال أبلغُ من إنكارِهم لقدرةِ اللّه على البعثِ، وتكذيبِهم لرسولهم الذي جاء به، واستهزائِهِم به، وجزمِهِم بأنَّ ما جاؤوا به هو الحقُّ فرأوا الحقَّ باطلاً والباطل والضلال حقًّا وهدى؟!

﴿٩﴾ ثم نبَّههم على الدليل العقلي الدالِّ على عدم استبعاد البعث الذي استبعدوه، وأنَّهم لو نظروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض، فرأوا من قدرة اللّه فيهما ما يُبْهِرُ العقول، ومن عظمتِهِ ما يُذْهِلُ العلماء الفحول، وأنَّ خلقَهما وعظمتَهما وما فيهما من المخلوقات أعظمُ من إعادة الناس بعد موتِهِم من قبورِهم؛ فما الحاملُ لهم على ذٰلك التكذيب مع التصديق بما هو أكبر منه؟! نعم؛ ذاك خبرٌ غيبيٌّ إلى الآن ما شاهدوه؛ فلذٰلك كذَّبوا به. قال اللّه: ﴿إن نَشَأ نَخْسِفْ بِهِمُ الأرضَ أو نُسْقِطْ عليهم كِسَفاً من السماء﴾؛ أي: من العذاب؛ لأنَّ الأرضِ والسماء تحت تدبيرنا؛ فإنْ أمرناهما؛ لم يستعصيا؛ فاحذَروا إصرارَكم على تكذيبِكُم فنعاقِبَكُم أشدَّ العقوبة. ﴿إنَّ في ذٰلك﴾؛ أي: خلق السماواتِ والأرضِ وما فيهما من المخلوقات ﴿لآيةً لكلِّ عبدٍ منيبٍ﴾: فكلَّما كان العبدُ أعظم إنابةً إلى اللّه؛ كان انتفاعُه بالآياتِ أعظم؛ لأنَّ المنيبَ مقبلٌ إلى ربِّه، قد توجَّهت إرادتُه وهمَّاتُه لربِّه، ورجع إليه في كلِّ أمر من أموره، فصار قريباً من ربِّه، ليس له همٌّ إلَّا الاشتغال بمرضاته، فيكون نظرُهُ للمخلوقات نظرَ فكرةٍ وعبرةٍ لا نظر غفلةٍ غير نافعةٍ.

﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

﴿١٠ ـ ١١﴾ أي: ولقد مَننا على عبدنا ورسولنا داود عليه الصلاة والسلام، وآتيناه فضلاً من العلم النافع والعمل الصالح والنعم الدينيَّة والدنيويَّة: **ومن نعمِهِ عليه**:

ما خصَّه به من أمرِهِ تعالى الجمادات كالجبال والحيوانات من الطيور أن تؤوِّبَ معه وتُرَجِّعَ التسبيحَ بحمدِ ربِّها مجاوبةً له، وفي هٰذا من النعمة عليه أنْ كان ذٰلك من خصائصه التي لم تكنْ لأحدٍ قبلَه ولا بعدَه، وأنَّ ذٰلك يكون منهضاً له ولغيره على التسبيح إذا رأوا هٰذه الجماداتِ والحيواناتِ تتجاوبُ بتسبيح ربِّها وتمجيدِهِ وتكبيرِهِ وتحميدِهِ؛ كان ذٰلك مما يُهيج على ذكر اللّٰه تعالى.

ومنها: أنَّ ذٰلك كما قال كثيرٌ من العلماء أنَّه طرباً بصوت داودَ؛ فإنَّ اللّٰه تعالى قد أعطاه من حُسن الصوت ما فاق به غيرَه، وكان إذا رجَّعَ التسبيحَ والتهليلَ والتمجيدَ[١] بذٰلك الصوت الرخيم الشَّجِيِّ المطرِب؛ طربَ كلُّ مَنْ سَمِعَهُ من الإنس والجنِّ، حتى الطيور والجبال، وسبَّحت بحمدِ ربِّها.

ومنها: أنَّه لعله ليحصل له أجر تسبيحها، لأنه سبب ذلك، وتسبح تبعاً له.

ومنْ فضله عليه أن ألانَ له الحديدَ؛ ليعملَ الدروع السابغاتِ، وعلَّمه تعالى كيفيَّة صنعتِهِ؛ بأن يقدِّرَه في ﴿السردِ﴾؛ أي: يقدِّره حَلَقاً ويصنعُه كذٰلك ثم يُدْخِلُ بعضها ببعض، قال تعالى: ﴿وعلَّمْناه صنعةَ لَبوس لكم لِتُحْصِنَكُم من بأسِكُم فهل أنتم شاكرونَ﴾، ولـمَّا ذَكَرَ ما امتنَّ به عليه وعلى آله؛ أمره بشكرِهِ وأن يَعْمَلوا صالحاً، ويراقِبوا اللّٰه تعالى فيه بإصلاحه وحفظِهِ من المفسداتِ؛ فإنَّه بصيرٌ بأعمالهم، مطَّلع عليها، لا يخفى عليه منها شيءٌ.

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾.

---

(١) في (ب): «والتحميد».

﴿١٢﴾ لمَّا ذَكَرَ فضلَه على داود عليه السلام؛ ذكر فضلَه على ابنه سليمان عليه الصلاة والسلام، وأنَّ اللّه سخَّر له الريح تجري بأمرِهِ وتحمِلُه وتحمِلُ جميعَ ما معه وتقطعُ المسافة البعيدةَ جدًّا في مدةٍ يسيرةٍ، فتسير في اليوم مسيرة شهرين: ﴿غدوُّها شهرٌ﴾؛ أي: أول النهار إلى الزوال، ﴿ورواحُها شهرٌ﴾: من الزَّوال إلى آخر النهار، ﴿وأسَلْنا له عَيْنَ القِطْرِ﴾؛ أي: سخَّرْنا له عينَ النُّحاس وسهَّلْنا[1] له الأسباب في استخراج ما يُستخرج منها من الأواني وغيرها، وسخَّرَ اللّهُ له أيضاً[2] الشياطين والجنَّ لا يقدِرون أن يستعصوا[3] عن أمرِهِ، ﴿ومن يَزِغْ منهم عن أمرِنا نُذِقْه من عذاب السعير﴾.

﴿١٣﴾ وأعمالُهم[4]؛ كلُّ ما شاء سليمان عَمِلوه؛ ﴿من محاريبَ﴾: وهو كلُّ بناءٍ يُعقد وتحكم به الأبنية؛ فهٰذا فيه ذكرُ الأبنية الفخمة. ﴿وتماثيلَ﴾؛ أي: صور الحيوانات والجمادات من إتقانِ صنعتهم، وقدرتِهِم على ذٰلك، وعملهم لسليمان. ﴿وجفانٍ كالجوابِ﴾؛ أي: كالبرك الكبار يعملونها لسليمان للطعام؛ لأنَّه يحتاجُ إلى ما لا يحتاج إليه غيره. ﴿و﴾ يعملونَ له قدوراً ﴿راسياتٍ﴾: لا تُزالُ[5] عن أماكِنِها من عِظَمِها، فلما ذكر مِنَّتَه عليهم؛ أمَرَهم بشكرها، فقال: ﴿اعْمَلوا آل داودَ﴾: وهم داودُ وأولادهُ وأهلُه؛ لأنَّ المنَّةَ على الجميع، وكثير من هٰذه المصالح عائدٌ لكلِّهم ﴿شُكراً﴾: للّه على ما أعطاهم، ومقابلةً لما أولاهم. ﴿وقليلٌ من عبادي الشَّكورُ﴾: فأكثرُهم لم يشكُروا اللّه تعالى على ما أوْلاهم من نعمِهِ ودَفَعَ عنهم من النقم. والشكرُ: اعترافُ القلب بمنَّةِ اللّه تعالى، وتلقِّيها افتقاراً إليها، وصرفُها في طاعة الله تعالى، وصونُها عن صرفها في المعصية.

﴿١٤﴾ فلم يزل الشياطينُ يعملون لسليمانَ عليه الصلاة والسلامُ كلَّ بناءٍ، وكانوا قد موَّهوا على الإنس، وأخبروهم أنهم يعلمون الغيبَ، ويطَّلعون على المكنوناتِ، فأرادَ اللّه تعالى أن يُرِيَ العبادَ كَذِبَهم في هٰذه الدعوى، فمكثوا يعملون على عملِهِم، وقضى اللّه الموتَ على سليمان عليه السلام، واتَّكأ على عصاه، وهي المنسأة، فصاروا إذا مروا به وهو متَّكىءٌ عليها؛ ظنُّوه حيًّا وهابوه، فغدوا على عَمَلِهِم كذٰلك سنةً كاملةً على ما قيل. حتى سُلِّطَتْ دابةُ الأرض على عصاه، فلم

---

(١) في (ب): «سهلنا».
(٢) في (ب): «أيضاً له».
(٣) في (ب): «لا يستعصون».
(٤) في (ب): «وأعماله».
(٥) في (ب): «لا تزول».

تنزل ترعاه حتى باد وسقط، فسقط سليمان، وتفرقتِ الشياطينُ وتبينتِ الإنسُ أنَّ الجنَّ ﴿لو كانوا يعلمونَ الغيبَ ما لَبِثوا في العذابِ المُهين﴾: وهو العملُ الشاقُّ عليهم؛ فلو علموا الغيبَ؛ لعلموا موتَ سليمان الذي هم أحرص شيءٍ عليه ليسلموا ممَّا هم فيه.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾.

﴿١٥ ـ ١٩﴾ سبأ قبيلةٌ معروفةٌ في أداني اليمن، ومسكنُهم بلدةٌ يُقالُ لها: مأرِب، ومن نعم الله ولطفِهِ بالناس عموماً وبالعرب خصوصاً أنه قصَّ في القرآن أخبار المهلكين والمعاقَبين ممَّنْ كان يجاورُ العرب، ويشاهدُ آثاره، ويتناقلُ الناس أخبارَه؛ ليكونَ ذلك أدعى إلى التصديق وأقربَ للموعظة، فقال: ﴿لقد كان لسبأٍ في مسكنِهِم﴾؛ أي: محلِّهم الذي يسكنون فيه ﴿آيةٌ﴾: والآيةُ هنا ما أدرَّ الله عليهم من النعم، وصرف عنهم من النقم، الذي يقتضي ذلك منهم أن يَعْبُدوا الله ويشكُروه. ثم فسَّرَ الآية بقوله: ﴿جنَّتانِ عن يمينٍ وشمالٍ﴾: وكان لهم وادٍ عظيمٌ تأتيه سيولٌ كثيرةٌ، وكانوا بنوا سدًّا محكماً يكون مجمعاً للماء، فكانت السيول تأتيه، فيجتمع هناك ماءٌ عظيمٌ، فيفرِّقونه على بساتينهم التي عن يمين ذلك الوادي وشماله، وتُغِلُّ لهم تلك الجنتان العظيمتان من الثمار ما يكفيهم ويَحْصُلُ لهم به الغبطةُ والسرورُ، فأمرهم الله بشكرِ نِعَمِهِ التي أدرَّها عليهم من وجوه كثيرة:

منها: هاتان الجنَّتان اللتان غالب أقواتهم منهما.

ومنها: أنَّ الله جعل بَلَدَهُم بلدةً طيبةً لحسن هوائها وقلَّة وَخَمِها وحصول الرزق الرغد فيها.

ومنها: أنَّ اللّه تعالى وَعَدَهم إن شكروه أن يغفرَ لهم ويرحَمَهم، ولهٰذا قال: ﴿بلدةٌ طيبةٌ وربٌّ غفورٌ﴾.

ومنها: أنَّ اللّه لما علم احتياجَهم في تجاراتِهم ومكاسِبِهم إلى الأرض المباركة ـ الظاهرُ أنَّها قُرى صنعاء كما قاله غيرُ واحدٍ من السلف، وقيل: إنَّها الشامُ ـ؛ هيَّأ لهم من الأسباب ما به يتيسَّر وصولُهم إليها بغايةِ السُّهولة من الأمن وعدم الخوف وتواصُل القرى بينهم وبينها؛ بحيثُ لا يكون عليهم مشقَّةٌ بحمل الزاد والمزاد، ولهٰذا قال: ﴿وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركْنا فيها قرىً ظاهرةً وقدَّرْنا فيها السيرَ﴾؛ أي: سيراً مقدراً يعرفونه ويحكمونَ عليه بحيث لا يتيهونَ عنه ليالي وأياماً.

﴿آمنينَ﴾؛ أي: مطمئنين في السير في تلك الليالي والأيام غير خائفينَ، وهٰذا من تمام نعمةِ اللّه عليهم أنْ أمَّنَهم من الخوف. فأعْرَضوا عن المنعِم وعن عبادتِهِ، وبَطِروا النعمةَ وملُّوها، حتى إنَّهم طلبوا وتمنَّوا أن تتباعد أسفارُهم بين تلك القرى التي كان السير فيها متيسراً. ﴿وظلموا أنْفُسَهم﴾: بكفرِهم باللّه وبنعمتِهِ، فعاقَبَهُمُ اللّه تعالى بهٰذه النعمة التي أطْغَتْهم، فأبادها عليهم، فأرسل عليها ﴿سيلَ العَرِمِ﴾؛ أي: السيل المتوعِّر الذي خَرَّبَ سدَّهم، وأتلف جناتهم، وخرَّبَ بساتينَهم، فتبدَّلت تلك الجناتُ ذات الحدائق المعجِبَة والأشجار المثمرة، وصار بَدَلَها أشجارٌ لا نفعَ فيها. ولهٰذا قال: ﴿وبدَّلْناهم بجنَّتَيْهم جنتينِ ذواتي أُكُلٍ﴾؛ أي: شيءٍ قليل من الأكل الذي لا يقع منهم موقعاً، ﴿خَمْطٍ وأثْلٍ وشيءٍ من سدرٍ قليلٍ﴾: وهٰذا كله شجرٌ معروفٌ، وهٰذا من جنس عملهم؛ فكما بدَّلوا الشكر الحسن بالكفر القبيح؛ بُدِّلوا تلك النعمة بما ذكر. ولهٰذا قال: ﴿ذٰلك جَزَيْناهم بما كفروا وهل نُجازي إلَّا الكفورَ﴾؛ أي: وهل نُجازي جزاء العقوبة ـ بدليل السياق ـ إلَّا مَنْ كَفَرَ باللّه وبَطِرَ النعمةَ؟! فلمَّا أصابَهم ما أصابَهم؛ تفرَّقوا وتمزَّقوا بعدما كانوا مجتمعينَ، وجَعَلَهُمُ اللّه أحاديثَ يُتَحدَّث بهم وأسماراً للناس، وكان يُضْرَبُ بهم المثلُ، فيقالُ: «تفرَّقوا أيدي سبأ»؛ فكلُّ أحدٍ يتحدَّث بما جرى لهم، ولٰكنْ لا ينتفعُ بالعبرة فيهم إلَّا مَنْ قال اللّه: ﴿إنَّ في ذٰلك لآياتٍ لكلِّ صبارٍ شكورٍ﴾: صبَّارٍ على المكاره والشدائدِ، يتحمَّلُها لوجه اللّه، ولا يتسخَّطُها، بل يصبرُ عليها، شكورٍ لنعمة اللّه تعالى، يُقِرُّ بها، ويعترفُ، ويثني على من أولاها، ويصرِفُها في طاعته.

فهٰذا إذا سمع بقصَّتِهم وما جرى منهم وعليهم؛ عَرَفَ بذٰلك أنَّ تلك العقوبة

جزاءً لكفرِهم نعمةَ اللّه، وأنَّ مَنْ فَعَلَ مثلهم؛ فُعِلَ به كما فُعِلَ بهم، وأنَّ شُكْرَ اللّه تعالى حافظٌ للنعمة دافعٌ للنقمة، وأنَّ رُسُلَ اللّه صادقون فيما أخبروا به، وأنَّ الجزاء حقٌّ كما رأى أنموذَجه في دار الدنيا.

﴿٢٠﴾ ثم ذكر أنَّ قوم سبأ من الذين صَدَّقَ عليهم إبليسُ ظنَّه؛ حيث قال لربِّه: ﴿فبعزَّتِكَ لأغْوِيَنَّهُمْ أجمعينَ. إلَّا عبادَكَ منهم المُخْلَصينَ﴾: وهٰذا ظنٌّ من إبليس لا يقينٌ؛ لأنَّه لا يعلم الغيبَ ولم يأتِهِ خبرٌ من اللّه أنَّه سيُغْويهم أجمعين؛ إلَّا من استثنى؛ فهٰؤلاء وأمثالهم ممَّنْ صدَّقَ عليه إبليسُ ظنَّه ودعاهم وأغواهم، ﴿فاتَّبَعوه إلَّا فريقاً من المؤمنين﴾: ممَّنْ لم يكفرْ بنعمة اللّه؛ فإنَّه لم يدخُلْ تحتَ ظنِّ إبليس، ويُحتمل أنَّ قصة سبأ انتهت عند قولِهِ: ﴿إنَّ في ذٰلك لآياتٍ لكلِّ صبارٍ شكورٍ﴾. ثم ابتدأ فقال: ﴿ولقد صَدَّقَ عليهم﴾؛ أي: على جنس الناس، فتكون الآيةُ عامةً في كلِّ مَنِ اتَّبَعَهُ.

﴿٢١﴾ ثم قال تعالى: ﴿وما كان له﴾؛ أي: لإبليس ﴿عليهم من سلطانٍ﴾؛ أي: تسلُّطٍ وقهرٍ وقسرٍ على ما يريده منهم، ولٰكنَّ حكمةَ اللّه تعالى اقتضت تسليطَه وتسويلَه لبني آدم؛ ﴿لنعلم من يؤمنُ بالآخرة ممَّنْ هو منها في شكٍّ﴾؛ أي: ليقوم سوقُ الامتحان، ويُعْلَمَ به الصادقُ من الكاذب، ويُعْرَفَ مَنْ كان إيمانُه صحيحاً يثبتُ عند الامتحان والاختبار وإلقاءِ الشُّبَه الشيطانيَّةِ ممَّنْ إيمانُه غيرُ ثابتٍ يتزلزلُ بأدنى شبهةٍ ويزولُ بأقلِّ داعٍ يدعوه إلى ضدِّه؛ فاللّه تعالى جعله امتحاناً يمتحن به عبادَه ويُظْهِرُ الخبيثَ من الطيب. ﴿وربُّك على كلِّ شيءٍ حفيظٌ﴾: يحفظُ العباد ويحفظُ عليهم أعمالهم، ويحفظُ تعالى جزاءَها؛ فيوفِّيهم إيَّاها كاملة موفرةً.

﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿٢٢ ـ ٢٣﴾ أي: ﴿قل﴾: يا أيها الرسولُ للمشركين باللّه غيرَهُ من المخلوقاتِ التي لا تنفعُ ولا تضرُّ ملزماً لهم بعجزِها ومبيِّناً بطلان عبادتها: ﴿ادعوا الذينَ زعمتُم من دون اللّه﴾؛ أي: زعمتموهم شركاء للّه إنْ كان دعاؤكم ينفعُ؛ فإنَّهم قد توفرتْ فيهم أسبابُ العجز وعدم إجابة الدعاء من كلِّ وجه؛ فإنَّهم ليس لهم أدنى ملك، فلا يملكونَ مثقال ذرَّةٍ في السماوات والأرض: على وجه الاستقلال، ولا على

وجه الاشتراك، ولهٰذا قال: ﴿وما لهم﴾؛ أي: لتلك الآلهة الذين زعمتم ﴿فيهما﴾؛ أي: في السماواتِ والأرض ﴿من شِرْكٍ﴾؛ أي: لا شركٌ قليل ولا كثيرٌ؛ فليس لهم ملكٌ ولا شركة ملك.

بقي أنْ يُقالَ: ومع ذٰلك؛ فقد يكونون أعواناً للمالك ووزراء له؛ فدعاؤهم يكون نافعاً؛ لأنَّهم بسبب حاجة الملك إليهم يقضون حوائج مَنْ تعلَّق بهم، فنفى تعالى هٰذه المرتبةَ، فقال: ﴿وما له﴾؛ أي: للَّه تعالى الواحد القهار ﴿منهم﴾؛ أي: من هٰؤلاء المعبودين ﴿من ظهيرٍ﴾؛ أي: معاونٍ ووزيرٍ يساعده على الملك والتدبير. فلم يبقَ إلَّا الشفاعةُ، فنفاها بقوله: ﴿ولا تنفَعُ الشفاعةُ عنده إلا لِمَنْ أذِنَ له﴾: فهٰذه أنواع التعلُّقات التي يتعلَّقُ بها المشركون بأندادهم وأوثانهم من البشر والشجر والحجر وغيرهم، قَطَعَها اللّه وبيَّن بطلانَها تبييناً حاسماً لموادِّ الشرك قاطعاً لأصوله؛ لأنَّ المشرك إنَّما يدعو ويعبدُ غير اللّه؛ لما يرجو منه من النفع؛ فهٰذا الرجاء هو الذي أوجبَ له الشركَ؛ فإذا كان من يدعوه غير اللّه لا مالكاً للنفع والضرِّ ولا شريكاً للمالك ولا عوناً وظهيراً للمالك ولا يقدِرُ أن يَشْفَعَ بدون إذنِ المالك؛ كان هٰذا الدعاء وهٰذه العبادة ضلالاً في العقل باطلةً في الشرع، بل ينعكسُ على المشركِ مطلوبُه ومقصودُه؛ فإنَّه يريدُ منها النفع، فبيَّن اللّه بطلانه وعدمه، وبيَّن في آيات أُخَرَ ضررَها على عابديها[1]، وأنَّه يوم القيامةِ يكفرُ بعضُهم ببعض ويلعنُ بعضُهم بعضاً ومأواهم النارُ، وإذا حُشِرَ الناس كانوا لهم أعداءً وكانوا بعبادتهم كافرين.

والعجب أن المشرك استكبر عن الانقياد للرسل بزعمهم أنهم بشرٌ، ورضي أن يَعْبُدَ ويدعو الشجر والحجر، استكبر عن الإخلاص للملك الرحمٰن الديان، ورضي بعبادةِ مَنْ ضَرُّهُ أقربُ من نفعِهِ طاعةً لأعدى عدوٍّ له وهو الشيطان!

وقوله: ﴿حتى إذا فُزِّعَ عن قلوبِهِم قالوا ماذا قال ربُّكُم قالوا الحقَّ وهو العليُّ الكبيرُ﴾: **يُحتمل** أنَّ الضمير في هٰذا الموضع يعودُ إلى المشركين؛ لأنهم مذكورون في اللفظ، والقاعدة في الضمائرِ أن تعودَ إلى أقرب مذكورٍ، ويكونُ المعنى: إذا كان يوم القيامةِ وفُزِّع عن قلوب المشركين؛ أي: زال الفزع وسُئِلوا حين رجعت إليهم عقولُهم عن حالهم في الدُّنيا وتكذيبهم للحقِّ الذي جاءت به الرسل؛ أنَّهم

---

(١) في (ب): «ضرره على عابديه».

يقرُّون أنَّ ما هم عليه من الكفر والشرك باطلٌ، وأنَّ ما قال اللّٰه وأخبرت به عنه رسلُه هو الحقُّ، فبدا لهم ما كانوا يُخفون من قبلُ، وعلموا أن الحقَّ للّٰه، واعترفوا بذُنوبهم. ﴿وهو العليُّ﴾: بذاته فوقَ جميع المخلوقاتِ، وقهرُهُ لهم وعلوُّ قدره بما له من الصفات العظيمةِ جليلة المقدار. ﴿الكبيرُ﴾: في ذاته وصفاته، ومن علوِّه أنَّ حكمه تعالى يعلو، وتُذْعِنُ له النفوسُ، حتى نفوس المتكبرينَ والمشركينَ، وهٰذا المعنى أظهرُ، وهو الذي يدلُّ عليه السياق.

ويُحتمل أنَّ الضمير يعود إلى الملائكة، وذٰلك أنَّ اللّٰه تعالى إذا تكلَّم بالوحي؛ سمعتْه الملائكةُ فصُعِقوا وخرُّوا للّٰه سجداً، فيكون أول من يرفعُ رأسهَ جبريلُ، فيكلِّمه اللّٰه من وحيه بما أراد؛ فإذا زال الصعقُ عن قلوب الملائكة وزال الفزعُ، فيسأل بعضُهم بعضاً عن ذٰلك الكلام الذي صعقوا منه: ماذا قال ربُّكم؟ فيقولُ بعضُهم لبعض: قال الحقَّ: إمَّا إجمالاً لعلمهم أنه لا يقول إلَّا حقًّا، وإمَّا أن يقولوا: قال كذا وكذا[1]، للكلام الذي سمعوه منه، وذٰلك من الحقِّ. فيكون المعنى على هٰذا أنَّ المشركين الذين عبدوا مع اللّٰه تلك الآلهة التي وَصَفْنا لكم عجزها ونقصها وعدم نفعها بوجهٍ من الوجوه كيف صَدَفوا وصَرَفوا عن إخلاص العبادة للربِّ العظيم العليِّ الكبير الذي من عظمته وجلاله أنَّ الملائكة الكرام والمقرَّبين من الخلق يبلغ بهم الخضوعُ والصعقُ عند سماع كلامه هٰذا المبلغ، ويقرُّون كلُّهم للّٰه أنَّه لا يقول إلَّا الحقَّ؛ فما بال هٰؤلاءِ المشركين استكبروا عن عبادةِ مَنْ هٰذا شأنُه وعظمةُ ملكِهِ وسلطانِهِ؟! فتعالى العليُّ الكبيرُ عن شركِ المشركين وإفكِهِم وكذِبِهم.

﴿۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿٢٤﴾ يأمر تعالى نبيَّه محمداً ﷺ أن يقولَ لمن أشركَ باللّٰه ويسألَه عن صحةِ[2]

---

(١) كما في «صحيح البخاري» (٤٨٠٠)، و«السنة» لأبي عاصم (٥١٥).

(٢) في (ب): «حجة».

شركِهِ: ﴿من يَرزُقُكم من السمٰواتِ والأرضِ﴾: فإنَّهم لا بدَّ أن يُقرُّوا أنَّه اللّه، ولئنْ لم يقرُّوا؛ فَـ﴿قُلِ اللّهُ﴾: فإنَّك لا تجد من يدفعُ هٰذا القول. فإذا تبيَّن أنَّ اللّه وحده الذي يرزقُكم من السماواتِ والأرضِ ويُنْزِلُ لكم المطر ويُنْبِتُ لكم النباتَ ويفجِّرُ لكم الأنهارَ ويُطْلِعُ لكم من ثمار الأشجار وجعل لكم الحيواناتِ جميعَها لنفعِكُم ورزقِكُم؛ فلِمَ تعبدون معه من لا يرزُقُكم شيئاً ولا يفيدكم نفعاً؟! وقوله: ﴿وإنا أو إيَّاكم لعلى هدىً أو في ضلال مبينٍ﴾؛ أي: إحدى الطائفتين منَّا ومنكم على الهدى مستعليةٌ عليه، أو في ضلال بيِّنٍ منغمرةٌ فيه.

وهٰذا الكلام يقولُه من تبيَّن له الحقُّ واتَّضح له الصوابُ وجَزَمَ بالحقِّ الذي هو عليه وبطلانِ ما عليه خصمُه؛ أي: قد شرحنا من الأدلَّة الواضحة عندنا وعندكم ما به يُعْلَم علماً يقينيًّا لا شكَّ فيه مَن المحقُّ منا ومَن المبطلُ ومَن المهتدي ومن الضالُّ، حتى إنَّه يصير التعيينُ بعد ذٰلك لا فائدة فيه؛ فإنَّك إذا وازنتَ[1] بين من يدعو إلى عبادة الخالقِ لسائر المخلوقات، المتصرِّفِ فيها بجميع أنواع التصرُّفات، المسدي جميع النعم، الذي رزقهم وأوصل إليهم كلَّ نعمة ودفع عنهم كلَّ نقمة، الذي له الحمدُ كلُّه والملكُ كلُّه وكلُّ أحدٍ من الملائكة فَمَنْ دونهم خاضعون لهيبته متذلِّلون لعظمته، وكلُّ الشفعاء تخافه، لا يشفعُ أحدٌ منهم عنده إلَّا بإذنِهِ، العليُّ الكبيرُ في ذاتِهِ وأوصافِهِ وأفعالِهِ، الذي له كلُّ كمال وكلُّ جلال وكلُّ جمال وكلُّ حمد وثناء ومجدٍ، يدعو إلى التقرُّب لمن هٰذا شأنه، وإخلاص العمل له، وينهى عن عبادةِ مَنْ سواه، وبين من يتقرَّب إلى أوثان وأصنام وقبور لا تَخْلُقُ ولا ترزقُ ولا تملكُ لأنفسها ولا لِمَنْ عَبَدَها نفعاً ولا ضرًّا ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، بل هي جماداتٌ لا تعقل ولا تسمع دعاء عابديها، ولو سمعتْه؛ ما استجابت لهم، ويوم القيامةِ يكفُرون بشِرْكِهم ويتبرؤون منهم ويتلاعنون بينهم، ليس لهم قِسْطٌ من الملك، ولا شركة فيه ولا إعانة فيه، ولا لهم شفاعةٌ يستقلُّون بها دون اللّه؛ فهو يدعو من هٰذا وصفُهُ، ويتقرَّبُ إليه مهما أمكَنَه، ويعادي مَنْ أخلصَ الدين للّه ويحاربُهُ، ويكذِّبُ رسل اللّه الذين جاؤوا بالإخلاص للّه وحده؛ تبيَّنَ لك[2] أيَّ الفريقين: المهتدي من الضالُّ والشقيَّ من السعيد، ولم يحتج إلى أن يعينَ لك ذٰلك؛ لأنَّ وصف الحال أوضح من لسان المقال.

---

(١) فعل الشرط، كذا في الحاشية بخط المؤلف رحمه الله.

(٢) جواب الشرط، كذا في الحاشية بخط المؤلف رحمه الله.

﴿٢٥﴾ ﴿قل﴾ لهم: ﴿لا تُسألونَ عمَّا أجرَمْنا ولا نسألُ عما تعْمَلونَ﴾؛ أي: كلٌّ منَّا ومنكم له عمله، أنتم لا تُسألون عن إجرامِنا وذنوبنا لو أذْنَبْنا، ونحنُ لا نُسألُ عن أعمالكم؛ فليكن المقصودُ منَّا ومنكم طَلَبَ الحقائق وسلوكَ طريق الإنصاف، ودَعوا ما كُنَّا نعملُ، ولا يكنْ مانعاً لكم من اتِّباع الحقِّ؛ فإنَّ أحكام الدُّنيا تجري على الظواهر، ويُتَّبَعُ فيها الحقُّ ويُجْتَنَبُ الباطلُ، وأما الأعمال؛ فلها دارٌ أخرى يَحْكُمُ فيها أحكمُ الحاكمين، ويفصِلُ بين المختصمين أعدلُ العادلين.

﴿٢٦﴾ ولهٰذا قال: ﴿قل يَجْمَعُ بينَنا ربُّنا ثم يفتحُ بينَنا﴾؛ أي: يحكم بينَنا حكماً يتبيَّن به الصادقُ من الكاذب، والمستحقُّ للثواب من المستحقِّ للعقاب وهو خير الفاتحين.

﴿٢٧﴾ ﴿قل﴾: لهم يا أيها الرسولُ، ومَنْ ناب منابك: ﴿أروني الذين ألحقتم به شركاءَ﴾؛ أي: أين هم؟ وأين السبيل إلى معرفتهم؟ وهل هم في الأرض أم في السماء؟ فإنَّ عالم الغيب والشهادة قد أخبرنا أنَّه ليس في الوجودِ له شريكٌ: ﴿ويعبُدونَ من دون اللّه ما لا يضرُّهم ولا يَنْفَعُهم ويقولون هٰؤلاءِ شفعاؤُنا عند اللّهِ قل أتنبِّئونَ اللّه بما لا يعلمُ...﴾ [الآية]، ﴿وما يتَّبعُ الذين يدعونَ من دون اللّه شركاءَ؟ إنْ يتَّبِعونَ إلَّا الظَّنَّ وإنْ هم إلَّا يَخْرُصونَ﴾، وكذٰلك خواصُّ خلقِهِ من الأنبياء والمرسلين لا يعلَمون له شريكاً؛ فيا أيُّها المشركون! أروني الذين ألحقتم بزعمكم الباطل باللّه شركاء! وهٰذا السؤال لا يمكنهم الإجابةُ عنه، ولهٰذا قال: ﴿كلا﴾؛ أي: ليس للّه شريكٌ ولا ندٌّ ولا ضدٌّ، ﴿بل هو اللّهُ﴾: الذي لا يستحقُّ التألُّه والتعبُّد إلَّا هو ﴿العزيزُ﴾: الذي قهر كلَّ شيء؛ فكلُّ ما سواه فهو مقهورٌ مسخَّر مدبَّر. ﴿الحكيمُ﴾: الذي أتقن ما خَلَقَه، وأحسَنَ ما شَرَعَه، ولو لم يكنْ في حكمتِهِ في شرعِهِ إلَّا أنَّه أمر بتوحيده وإخلاص الدين له، وأحبَّ ذٰلك وجعله طريقاً للنجاة، ونهى عن الشرك به واتِّخاذ الأندادِ من دونِهِ، وجَعَلَ ذٰلك طريقاً للشقاء والهلاك؛ لكفى[1] بذٰلك برهاناً على كمال حكمتِهِ؛ فكيف وجميعُ ما أمر به ونهى عنه مشتملٌ على الحكمة؟!

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ

(١) في (ب): «يكفي».

﴿٢٨ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ٢٩ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ
عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ٣٠﴾.

﴿٢٨﴾ يخبر تعالى أنَّه ما أرسل رسولَه ﷺ إلا ليبشِّر جميع الناس بثواب اللّه، ويخبِرَهم بالأعمال الموجبة لذلك، وينذِرَهم عقاب اللّه، ويخبِرَهم بالأعمال الموجبة له؛ فليس لك من الأمر شيءٌ، وكلُّ ما اقْتَرَحَ عليك أهلُ التكذيب والعنادِ؛ فليس من وظيفتِكَ، إنَّما ذٰلك بيد اللّه تعالى. ﴿ولٰكنَّ أكثرَ الناس لا يعلمونَ﴾؛ أي: ليس لهم علمٌ صحيحٌ، بل إمَّا جهالٌ أو معاندونَ لم[1] يعملوا بعلمهم، فكأنَّهم لا علم لهم، ومن عدم علمِهِم جَعْلُهُم عدمَ الإجابة لما اقترحوه على الرسول موجباً لردِّ دعوته.

﴿٢٩﴾ فممَّا اقترحوه استعجالُهم العذابَ الذي أنْذَرَهم به، فقال: ﴿ويقولونَ متى هٰذا الوعدُ إن كنتُم صادقينَ﴾: وهٰذا ظلمٌ منهم؛ فأيُّ ملازمة بين صدقِهِ وبين الإخبار بوقت وقوعِهِ؟! وهل هٰذا إلَّا ردٌّ للحقِّ وسفهٌ في العقل؟! أليس النذير في أمرٍ من أحوال الدُّنيا لو جاء قوماً يعلمون صدقَه ونُصحه ولهم عدوٌّ ينتهزُ الفرصة منهم ويعدُّ لهم، فقال لهم: تركتُ عدوَّكم قد سار يريد اجتياحَكُم واستئصالَكم؛ فلو قال بعضُهم: إن كنتَ صادقاً؛ فأخبِرْنا بأيَّةِ ساعةٍ يصل إلينا؟ وأين مكانه الآن؟ فهل يعدُّ هٰذا القائل عاقلاً أم يُحكم بسفهِهِ وجنونِهِ؟! هٰذا والمخبر يمكن صدقُهُ وكذبُهُ، والعدوُّ قد يبدو له غيرهم وقد تنحلُّ عزيمته، وهم قد يكون بهم مَنَعَةٌ يدافعون بها عن أنفسهم؛ فكيفَ بمن كذَّبَ أصدقَ الخلقِ المعصوم في خبره، الذي لا ينطِقُ عن الهوى بالعذاب اليقين، الذي لا مَدْفَعَ له ولا ناصر منه، أليس ردُّ خبرِهِ بحجَّة عدم بيان وقت وقوعِهِ من أسفه السفه؟!

﴿٣٠﴾ ﴿قل﴾ لهم مخبراً بوقت وقوعِهِ الذي لا شكَّ فيه: ﴿لكم ميعادُ يوم لا تستأخِرونَ عنه ساعةً ولا تَسْتَقْدِمونَ﴾: فاحْذَروا ذٰلك اليوم وأعدُّوا له عدَّته.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ
ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟
لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ٣١ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ

(١) في (ب): «ولم».

صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟
بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟
ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿٣١﴾ لما ذكر تعالى أنَّ ميعادَ المستعجلين بالعذابِ لابدَّ من وقوعه عند حلول أجله؛ ذكر هنا حالَهم في ذٰلك اليوم، وأنَّك لو رأيتَ حالَهم إذ وُقِفوا عند ربِّهم واجتمع الرؤساءُ والأتباعُ في الكفر والضَّلال؛ لرأيتَ أمراً عظيماً وهولاً جسيماً، ورأيت كيف يتراجع و ﴿يرجِعُ بعضُهم إلى بعضٍ القولَ﴾، فيقول ﴿الذين استُضْعِفوا﴾: وهم الأتباعُ، ﴿للذين استَكْبَروا﴾: وهم القادةُ: ﴿لولا أنتم لَكُنَّا مؤمنينَ﴾: ولٰكنَّكم حُلْتُم بيننا وبين الإيمان، وزيَّنْتُم لنا الكفرانَ[١]، فتبعناكم على ذٰلك، ومقصودُهم بذٰلك أن يكون العذابُ على الرؤساءِ دونهم.

﴿٣٢﴾ ﴿قال الذين استَكْبَروا للذين استضعفوا﴾: مستفهمينَ لهم ومخبرينَ أنَّ الجميع مشتركون في الجُرم: ﴿أنحن صَدَدْناكم عن الهُدى بعد إذْ جاءَكُم﴾؛ أي: بقوَّتنا وقهرِنا لكم، ﴿بل كنتُم مجرمينَ﴾؛ أي: مختارين للإجرام، لستُم مقهورين عليه، وإن كُنَّا قد زَيَّنَّا لكُم؛ فما كان لنا عليكم من سلطان.

﴿٣٣﴾ فقال ﴿الذين استُضْعِفوا للذينَ استَكْبَروا بلْ مَكْرُ الليل والنهارِ إذْ تأمرونَنا أن نكفُرَ باللّٰه ونجعلَ له أنداداً﴾؛ أي: بل الذي دهانا منكم ووصل إلينا من إضلالكم ما دبَّرْتُموه من المكر في الليل والنهار؛ إذْ تُحَسِّنون لنا الكفرَ وتدعوننا إليه، وتقولون: إنَّه الحقُّ، وتقدحون في الحقِّ، وتهجِّنونَه وتزعمونَ أنَّه الباطلُ؛ فما زال مكرُكُم بنا وكيدُكُم إيَّانا حتى أغْوَيْتُمونا وفَتَنْتُمونا. فلم تُفِدْ تلك المراجعةُ بينَهم شيئاً إلَّا تبرِّي بعضِهم من بعضٍ والندامةَ العظيمةَ، ولهٰذا قال: ﴿وأسرُّوا الندامةَ لما رأوا العذابَ﴾؛ أي: زال عنهم ذٰلك الاحتجاجُ الذي احتجَّ به بعضُهم[٢] لينجو من العذاب، وعلم أنَّه ظالمٌ مستحقٌّ له، فندم كلُّ منهم غاية الندم، وتمنَّى أنْ لو كان على الحقِّ، وأنَّه ترك[٣] الباطل الذي أوصله إلى هٰذا العذاب، سرًّا في أنفسهم؛ لخوفهم من الفضيحة في إقرارهم على أنفسهم! وفي بعض مواقف القيامةِ وعند

(١) في (ب): «الكفر».
(٢) في (ب): «بعضهم على بعض».
(٣) في (ب): «وترك».

دخولِهِمُ النارَ يُظْهِرون ذُلك الندمَ جهراً: ﴿ويومَ يَعَضُّ الظالمُ على يَدَيْهِ يقولُ يا لَيْتَني اتَّخَذْتُ مع الرسول سَبيلاً. يا وَيْلَتى لَيْتَني لم أَتَّخِذْ فُلاناً خليلاً...﴾ الآيات، ﴿وقالوا لو كُنَّا نَسْمَعُ أو نَعْقِلُ ما كُنَّا في أصحابِ السعير. فاعترفوا بذَنْبِهِم فَسُحْقاً لأصحاب السَّعيرِ﴾. ﴿وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا﴾: يُغَلُّونَ كما يُغَلُّ المسجونُ الذي سيُهانُ في سجنه؛ كما قال تعالى: ﴿إذِ الأغلالُ في أعناقِهِم والسلاسلُ يُسْحَبونَ في الحميم ثم في النارِ يُسْجَرونَ...﴾ الآيات. ﴿هل يُجْزَوْنَ﴾: في هٰذا العذاب والنَّكال وتلك الأغلال الثقال ﴿إلَّا ما كانوا يَعْمَلونَ﴾: من الكفر والفسوق والعصيان.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿٣٤﴾ يخبر تعالى عن حالة الأمم الماضية المكذِّبة للرسل أنَّها كحال هٰؤلاء الحاضرين المكذِّبين لرسولهم محمدٍ ﷺ، وأنَّ الله إذا أرسل رسولاً في قريةٍ من القرى؛ كفر به مُتْرَفوها، وأبطرتْهم نعمتُهم، وفخروا بها.

﴿٣٥﴾ ﴿وقالوا نحنُ أكثرُ أموالاً وأولاداً﴾؛ أي: ممَّن اتَّبع الحقَّ، ﴿وما نحن بمعذَّبينَ﴾؛ أي: أولاً لسنا بمبعوثينَ؛ فإنْ بُعِثْنا؛ فالذي أعطانا الأموال والأولاد في الدنيا؛ سَيُعْطينا أكثر من ذُلك في الآخرة، ولا يعذِّبُنا.

﴿٣٦﴾ فأجابهم اللّه تعالى بأنَّ بَسْطَ الرزقِ وتضييقَه ليس دليلاً على ما زعمتُم؛ فإنَّ الرزق تحت مشيئةِ الله؛ إنْ شاءَ؛ بسطه لعبده، وإن شاء؛ ضيَّقَه.

﴿٣٧﴾ وليست الأموال والأولاد ﴿بالتي﴾ تقرب إلى الله ﴿زُلفى﴾: وتُدني إليه، وإنَّما الذي يقرِّبُ منه زلفى الإيمان بما جاء به المرسلونَ والعملُ الصالح الذي هو من لوازم الإيمان؛ فإنَّ أولٰئك[1] لهم الجزاء عند الله تعالى مضاعفاً الحسنة بعشر

(١) في (ب): «فأولئك».

أمثالها إلى سبعمائةِ ضعفٍ إلى أضعافٍ كثيرة لا يعلمُها إلَّا اللّٰه. ﴿وهم في الغُرُفاتِ آمنونَ﴾؛ أي: في المنازل العاليات المرتفعات جدًّا، ساكنين فيها مطمئنِّين، آمنون من المكدِّرات والمنغِّصات لما هم فيه من اللذَّات وأنواع المشتَهَياتِ، وآمنون من الخروج منها والحزن فيها.

﴿٣٨﴾ وأما الذين سعوا في آياتنا على وجه التعجيز لنا ولرسلنا والتكذيب؛ ﴿أولٰئك في العذاب مُحضَرونَ﴾.

﴿٣٩﴾ ثم أعادَ تعالى أنه ﴿يَبسُطُ الرزقَ لِمَن يشاءُ مِن عبادِه ويَقْدِرُ له﴾: ويَقْدِرُ له ليرتِّبَ عليه قوله: ﴿وما أنفَقْتُم من شيءٍ﴾: نفقةً واجبةً أو مستحبَّةً على قريب أو جارٍ أو مسكينٍ أو يتيم أو[1] غير ذٰلك، ﴿فهو﴾ تعالى ﴿يُخلِفُهُ﴾: فلا تتوهَّموا أنَّ الإنفاق مما يُنْقِصُ الرزق، بل وعد بالخلف للمنفق الذي يبسط الرزق لمن يشاءُ ويَقْدِرُ. ﴿وهو خيرُ الرازقينَ﴾: فاطلُبوا الرزقَ منه، واسعَوْا في الأسبابِ التي أمَرَكم بها.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿٤٠ ـ ٤١﴾ ﴿ويوم يحشُرُهم جميعاً﴾؛ أي: العابدين لغير اللّٰه والمعبودين من دونه من الملائكةِ، ﴿ثم يقولُ﴾: اللّٰه ﴿للملائكةِ﴾: على وجه التوبيخ لِمَنْ عَبَدَهم: ﴿أهٰؤلاء إيَّاكُم كانوا يعبدونَ﴾؟ فتبرؤوا من عبادتهم و﴿قالوا سبحانَكَ﴾؛ أي: تنزيهاً لك وتقديساً أنْ يكونَ لك شريكٌ أو ندٌّ، ﴿أنت وَلِيُّنا من دونِهِم﴾: فنحن مفتقِرونَ إلى ولايتك، مضطرُّون إليها؛ فكيف ندعو غيرنا إلى عبادتنا؟ أم كيف نَصْلُحُ لأن نُتَّخَذَ من دونك أولياءَ وشركاءَ، ولٰكنْ هٰؤلاء المشركون ﴿كانوا يَعْبُدون الجنَّ﴾؛ أي: الشياطين، يأمرونَهم[2] بعبادتِنا أو عبادة غيرنا، فيطيعونَهم بذٰلك، وطاعتُهم هي عبادتُهم؛ لأنَّ العبادة الطاعة؛ كما قال تعالى مخاطباً لكلِّ من اتَّخذ معه آلهة: ﴿ألم أعْهَدْ إليكُم يا بني آدم أنْ لا تَعْبُدوا الشيطانَ إنَّه لكم عدوٌّ مبينٌ. وأنِ اعْبُدوني هٰذا صراطٌ مستقيمٌ﴾. ﴿أكْثَرُهم بهم مؤمنونَ﴾؛ أي: مصدِّقون للجنِّ منقادون لهم؛ لأنَّ الإيمانَ هو التصديقُ الموجِبُ للانقياد.

---

(١) في (ب): «و».

(٢) في (ب): «يأمرون».

﴿٤٢﴾ فلما تبرؤوا منهم؛ قال تعالى مخاطباً لهم[1]: ﴿فاليوم لا يملِكُ بعضُكم لبعضٍ نفعاً ولا ضَرًّا﴾: تقطَّعت بينكم الأسبابُ، وانقطع بعضُكم من بعض، ﴿ونقولُ للذين ظلموا﴾: بالكفر والمعاصي بعدما ندخِلُهُمُ النارَ: ﴿ذوقوا عذابَ النارِ التي كنتُم بها تكذِّبون﴾: فاليوم عايَنْتُموها ودخَلْتُموها جزاءً لتكذيبكم وعقوبةً لما أحدثه ذٰلك التكذيبُ من عدم الهربِ من أسبابها.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿٤٣﴾ يخبر تعالى عن حالةِ المشركين عندما تُتلى عليهم آياتُ اللّٰه البيناتُ وحججُه الظاهراتُ وبراهينُه القاطعاتُ، الدالةُ على كل خير، الناهيةُ عن كلِّ شرٍّ، التي هي أعظمُ نعمةٍ جاءتهم ومنَّةٍ وصلتْ إليهم، الموجبة لمقابلتها بالإيمان والتصديق والانقياد والتسليم، أنَّهم يقابِلونها بضدِّ ما ينبغي ويكذِّبونَ مَنْ جاءهم بها ويقولونَ: ﴿ما هٰذا إلَّا رجلٌ يريدُ أن يَصُدَّكُم عما كان يعبدُ آباؤُكم﴾؛ أي: هٰذا قصدُه حين يأمُرُكم بالإخلاص للّٰه لتتركوا عوائدَ آبائِكم الذين تعظِّمون وتمشون خلفَهم، فردُّوا الحقَّ بقول الضالِّين، ولم يوردوا[2] برهاناً ولا شبهةً؛ فأيُّ شبهة إذا أمرتِ الرسلُ بعضَ الضالِّين باتِّباع الحقِّ فادَّعَوْا أنَّ إخوانهم الذين على طريقتهم لم يزالوا عليه؟! وهٰذه السفاهة وردُّ الحقِّ بأقوال الضالين إذا تأملتَ كلَّ حقٍّ رُدَّ؛ فإذا هٰذا مآلُه، لا يُرَدُّ إلَّا بأقوال الضالِّين من المشركين والدَّهريين والفلاسفة والصابئين والملحدين في دين اللّٰه المارقين؛ فهم أسوةُ كلِّ من رَدَّ الحقَّ إلى يوم القيامةِ.

ولمَّا احتجُّوا بفعل آبائِهم وجعلوها دافعةً لما جاءت به الرسل؛ طعنوا بعد هٰذا بالحقِّ، ﴿وقالوا ما هٰذا إلا إفكٌ مفترىً﴾؛ أي: كذبٌ افتراه هٰذا الرجلُ الذي جاء به، ﴿وقال الذينَ كفروا للحقِّ لـمَّا جاءهم إنْ هٰذا إلَّا سحرٌ مبينٌ﴾؛ أي: سحرٌ ظاهرٌ بيِّنٌ لكلِّ أحدٍ؛ تكذيباً بالحقِّ وترويجاً على السفهاء.

﴿٤٤﴾ ولـمَّا بيَّن ما ردُّوا به الحقَّ، وأنَّها أقوالٌ دون مرتبة الشُّبهة، فضلاً أن

---

(١) في (ب): «قال تعالى لهم».
(٢) في (ب): «يردوا».

تكون حجَّةً؛ ذكر أنَّهم وإنْ أراد أحدٌ أن يحتجَّ لهم؛ فإنَّهم لا مستند لهم ولا لهم شيءٌ يعتمدونَ عليه أصلاً، فقال: ﴿وما آتيناهم من كتبٍ يدرسونَها﴾: حتى تكون عمدةً لهم، ﴿وما أرسَلْنا إليهم قبلَكَ من نذيرٍ﴾: حتى يكونَ عندَهم من أقوالِهِ وأحوالِهِ ما يدفعون به ما جئتَهم به؛ فليس عندهم علمٌ ولا أثارةٌ من علم.

﴿٤٥﴾ ثم خوَّفَهم ما فَعَلَ بالأمم المكذبين قبلَهم، فقال: ﴿وكَذَّبَ الذين من قبلِهِم وما بَلَغوا﴾؛ أي: ما بلغ هٰؤلاء المخاطَبون ﴿معشارَ ما آتيناهم فكذَّبوا﴾؛ أي: الأمم الذين من قبلهم ﴿رسلي فكيف كان نكيرِ﴾؛ أي: إنكاري عليهم وعقوبتي إيَّاهم، قد أعْلَمْنا ما فَعَلَ بهم من النَّكال، وأنَّ منهم من أغرقه، ومنهم من أهلكه بالريح العقيم وبالصيحة وبالرجفة وبالخسف بالأرض وبإرسال الحاصِبِ من السماء؛ فاحذَروا يا هٰؤلاءِ المكذِّبون أن تدوموا على التكذيبِ، فيأخُذَكم كما أخَذَ مَنْ قبلَكم ويصيبُكم ما أصابَهم.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿٤٦﴾ أي: ﴿قل﴾: يا أيُّها الرسولُ لهٰؤلاء المكذِّبين المعاندين المتصدِّين لردِّ الحقِّ وتكذيبِهِ والقدح بِمَنْ جاء به: ﴿إنَّما أعِظُكم بواحدةٍ﴾؛ أي: بخصلةٍ واحدةٍ أشيرُ عليكم بها وأنصحُ لكم في سلوكها، وهي طريقٌ نَصَفٌ، لست أدعوكم بها إلى اتِّباع قولي ولا إلى ترك قولِكم من دون موجِبٍ لذٰلك، وهي: ﴿أن تقوموا للَّهِ مثنى وفرادى﴾؛ أي: تنهضوا بهمَّةٍ ونشاطٍ وقصدٍ لاتِّباع الصواب وإخلاصٍ للَّه مجتمعين ومتباحِثين في ذٰلك ومتناظرين وفرادى، كلُّ واحدٍ يخاطِبُ نفسَه بذٰلك؛ فإذا قُمتم للَّه مثنى وفرادى؛ استعملتُم فِكْرَكُم وأجَلْتُموه وتدبَّرْتُم أحوال رسولِكم: هل هو مجنونٌ فيه صفاتُ المجانين من كلامِهِ وهيئتِهِ وصفتِهِ؟ أم هو نبيٌّ صادقٌ منذرٌ لكم ما يضرُّكم مما أمامكم من العذاب الشديد؟ فلو قبلوا هٰذه الموعظةَ واستعملوها؛ لتبيَّن لهم أكثر من غيرهم أنَّ رسول اللَّه ﷺ ليس بمجنونٍ؛ لأنَّ هيئاته ليست كهيئات المجانين في خنقهم واختلاجهم ونظرهم، بل هيئتُهُ أحسنُ الهيئات، وحركاتُهُ أجلُّ الحركات، وهو أكمل الخلق أدباً وسكينةً وتواضعاً ووقاراً، لا يكون إلَّا لأرزن الرجال عقلاً.

ثم إذا تأمَّلوا كلامَه الفصيحَ ولفظَه المليحَ وكلماتِهِ التي تملأ القلوب أمناً وإيماناً وتزكِّي النفوس وتطهِّرُ القلوب وتبعثُ على مكارم الأخلاق وتحثُّ على محاسن الشِّيَم وترهِّبُ عن مساوىء الأخلاق ورذائِلِها، إذا تكلَّم؛ رَمَقَتْهُ العيونُ هيبةً وإجلالاً وتعظيماً؛ فهل هٰذا يشبِهُ هَذَيان المجانين وعربَدَتَهم وكلامَهم الذي يشبِهُ أحوالَهم؟! فكلُّ من تدبَّر أحوالَه وقصده استعلام: هل هو رسولُ اللّه أم لا؟ سواء تفكَّر وحدَه أم معه غيرُهُ؛ جزم بأنه رسولُ اللّه حقًّا ونبيُّه صدقاً، خصوصاً المخاطبين، الذي هو صاحبُهم، يعرفون أول أمرِهِ وآخرَه.

﴿٤٧﴾ وثَمَّ مانعٌ للنفوس آخرُ عن اتِّباع الداعي إلى الحقِّ، وهو أنه يأخذُ أموال مَن يستجيبُ له ويأخذُ أجرةً على دعوتِهِ، فبيَّن اللّه تعالى نزاهةَ رسوله عن هٰذا الأمر، فقال: ﴿**قل ما سألتُكم من أجرٍ**﴾؛ أي: على اتِّباعكم للحقِّ ﴿**فهو لكم**﴾؛ أي: فأشهدكم أنَّ ذٰلك الأجر على التقدير أنَّه لكم. ﴿**إنْ أجرِيَ إلَّا على اللّه وهو على كلِّ شيءٍ شهيدٌ**﴾؛ أي: محيطٌ علمهُ بما أدعو إليه؛ فلو كنتُ كاذباً؛ لأخذني بعقوبته، وشهيدٌ أيضاً على أعمالِكم، سيحفظُها عليكم ثم يجازيكم بها.

﴿٤٨﴾ ولمَّا بيَّنَ البراهينَ الدالةَ على صحة الحقِّ وبطلان الباطل؛ أخبر تعالى أنَّ هٰذه سنَّتُه وعادته أن يَقْذِف بالحقِّ على الباطلِ فيدمَغَهُ فإذا هو زاهقٌ؛ لأنَّه بيَّن من الحقِّ في هٰذا الموضع وردَّ به أقوالَ المكذِّبين ما كان عبرةً للمعتبرين وآيةً للمتأملين؛ فإنَّك كما ترى كيف اضمحلَّتْ أقوالُ المكذِّبين، وتبيَّن كذِبُهم وعنادُهم، وظهر الحقُّ وسطع، وبطل الباطلُ وانقمعْ، وذٰلك بسبب بيان ﴿**عَلَّام الغيوبِ**﴾، الذي يعلم ما تنطوي عليه القلوبُ من الوساوس والشُّبه، ويعلم ما يقابِلُ ذٰلك ويدفعُه من الحُجج، فيعلِّم بها عبادَه، ويبيِّنُها لهم.

﴿٤٩﴾ ولهٰذا قال: ﴿**قل جاء الحقُّ**﴾؛ أي: ظهر وبان وصار بمنزلة الشمس وظَهَرَ سلطانُه، ﴿**وما يُبدِىءُ الباطل وما يعيدُ**﴾؛ أي: اضمحلَّ وبطل أمرُه وذهب سلطانُه؛ فلا يُبدىء ولا يُعيدُ.

﴿٥٠﴾ **ولما تبيَّن** الحقُّ بما دعا إليه الرسولُ، وكان المكذِّبونَ له يرمونَه بالضَّلال؛ أخبرهم بالحقِّ، ووضَّحه لهم وبيَّن لهم عَجزَهُم عن مقاومتِهِ، وأخبرَهَم أنَّ رميَهم له بالضلال ليس بضائرِ الحقِّ شيئاً ولا دافع ما جاء به، وأنَّه إنْ ضلَّ ـ وحاشاه من ذٰلك، لٰكن على سبيل التنزُّلِ في المجادلة ـ؛ فإنَّما يَضِلُّ على نفسِهِ؛ أي: ضلالُه قاصرٌ على نفسه، غيرُ متعدٍّ إلى غيرِهِ، ﴿**وإنِ اهتديتُ**﴾: فليس ذٰلك من نفسي وحولي وقوَّتي،

وإنَّما هدايتي بما ﴿يوحي إليَّ ربي﴾: فهو مادة هدايتي؛ كما هو مادةُ هداية غيري؛ إنَّ ربِّي سميعٌ للأقوال والأصواتِ كلِّها، قريبٌ ممَّن دعاه وسأله وعَبَدَهُ.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿٥١﴾ يقول تعالى: ﴿ولو ترى﴾: أيُّها الرسولُ ومَنْ قام مقامَكَ حالَ هٰؤلاء المكذِّبين ﴿إذ فزِعوا﴾: حين رأوا العذابَ وما أخبرتْهم به الرسلُ وما كذَّبوا به؛ لرأيتَ أمراً هائلاً ومنظراً مفظِعاً وحالةً منكرةً وشدَّةً شديدةً، وذٰلك حين يحقُّ عليهم العذابُ، وليس لهم عنه مهربٌ ولا فوتٌ، ﴿وأخِذوا من مكانٍ قريبٍ﴾؛ أي: ليس بعيداً عن محلِّ العذاب، بل يؤخَذون ثم يُقْذَفون في النار.

﴿٥٢﴾ ﴿وقالوا﴾: في تلك الحال: آمنَّا باللّهِ، وصدَّقْنا ما به كذَّبْنا، ﴿و﴾ لٰكنْ ﴿أنَّى لهم التَّناوُشُ﴾؛ أي: تناولُ الإيمان، ﴿من مكانٍ بعيدٍ﴾: قد حيل بينَهم وبينَه، وصار من الأمورِ المُحالة في هٰذه الحالة.

﴿٥٣﴾ فلو أنَّهم آمنوا وقتَ الإمكان؛ لكان إيمانُهم مقبولاً، ولكنَّهم ﴿كفروا به من قبلُ ويَقْذِفونَ﴾؛ أي: يرمون ﴿بالغيبِ من مكانٍ بعيدٍ﴾: بقذفهم الباطل لِيُدْحِضوا به الحقَّ، ولٰكن لا سبيل إلى ذٰلك؛ كما لا سبيل للرامي من مكانٍ بعيد إلى إصابةِ الغرضِ؛ فكذٰلك الباطلُ من المُحال أن يغلبَ الحقَّ أو يدفعَه، وإنَّما يكون له صولةٌ وقتَ غفلةِ الحقِّ عنه، فإذا برزَ الحقُّ وقاوم الباطلَ؛ قمعه.

﴿٥٤﴾ ﴿وحِيل بينَهم وبينَ ما يَشْتهونَ﴾: من الشهواتِ واللَّذَّاتِ والأولاد والأموال والخدم والجنودِ، قد انفردوا بأعمالِهِم، وجاؤوا فرادى كما خُلِقوا وتَركوا ما خُوِّلوا وراءَ ظهورهم، ﴿كما فعل بأشياعِهِم﴾: من الأمم السابقين حين جاءهم الهلاك حيل بينَهم وبينَ ما يشتهون. ﴿إنَّهم كانوا في شكٍّ مريبٍ﴾؛ أي: مُحْدِث الرِّيبة وقلق القلب؛ فلذٰلك لم يؤمِنوا، ولم يعتَبوا حين استُعْتِبوا.

تم تفسير سورة سبأ.

وللّه الحمد والمنَّة والفضل، ومنه العون، وعليه التوكُّل، وبه الثقة[1].

---

(١) في (ب): «والثقة».

تفسير سورة فاطر

[وهي] مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۚ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾.

﴿١﴾ يمدح [اللَّه] تعالى نفسه الكريمة المقدَّسةَ على خلقهِ السماواتِ والأرضَ وما اشتَمَلَتا عليه من المخلوقات؛ لأنَّ ذٰلك دليلٌ على كمال قدرتِهِ وسَعة ملكِهِ وعموم رحمتِهِ وبديع حكمته وإحاطةِ علمه. ولمَّا ذَكَرَ الخلقَ؛ ذَكَرَ بعده ما يتضمَّنُ الأمر، وهو أنه جعل ﴿الملائكةَ رسلاً﴾: في تدبيرِ أوامرِهِ القدريَّة ووسائطَ بينَه وبين خلقِهِ في تبليغ أوامره الدينيَّة. وفي ذِكْرِهِ أنَّه جعل الملائكة رسلاً ولم يستثْنِ منهم أحداً دليلٌ على كمال طاعتهم لربِّهم وانقيادِهِم لأمرِهِ؛ كما قال تعالى: ﴿لا يعصونَ اللَّه ما أمَرَهم ويفعلون ما يُؤمرون﴾. ولما كانت الملائكةُ مدبِّراتٍ بإذن اللَّه ما جَعَلَهم اللَّه موكَّلين فيه؛ ذَكَرَ قُوَّتَهم على ذٰلك وسرعة سيرِهِم؛ بأن جَعَلَهم ﴿أولي أجنحةٍ﴾: تطير بها فتسرعُ بتنفيذ ما أمرت به، ﴿مثنى وثلاث ورباع﴾؛ أي: منهم من له جناحان وثلاثة وأربعة بحسب ما اقتضتْه حكمتُه. ﴿يزيدُ في الخَلْقِ ما يشاءُ﴾؛ أي: يزيد بعضَ مخلوقاتِهِ على بعض في صفة خلقِها وفي القوَّة وفي الحسن وفي زيادة الأعضاء المعهودةِ وفي حسن الأصوات ولذَّةِ النغماتِ. ﴿إنَّ اللَّه على كلِّ شيءٍ قديرٌ﴾: فقدرتُه تعالى تأتي على ما يشاؤه، ولا يستعصي عليها شيءٌ، ومن ذٰلك زيادة مخلوقاتِهِ بعضها على بعض.

﴿٢﴾ ثم ذَكَرَ انفرادَه تعالى بالتدبيرِ والعطاء والمنع، فقال: ﴿ما يَفْتَحِ اللَّهُ للناس من رحمةٍ فلا مُمْسِكَ لها وما يُمْسِكْ﴾: من رحمتِهِ عنهم ﴿فلا مرسلَ له من بعدِهِ﴾: فهٰذا يوجب التعلُّقَ باللَّه تعالى والافتقارَ إليه من جميع الوجوه، وأنْ لا يُدعى إلَّا هو ولا يُخاف ويُرجى إلَّا هو. ﴿وهو العزيز﴾: الذي قَهَرَ الأشياءَ كلَّها. ﴿الحكيمُ﴾: الذي يضع الأشياءَ مواضِعَها، ويُنْزِلُها منازلها.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا

﴿إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٣ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ۝٤﴾.

﴿٣﴾ يأمرُ تعالى جميع الناس أن يَذْكُروا نعمتَه عليهم، وهٰذا شاملٌ لِذِكْرِها بالقلب اعترافاً وباللسان ثناءً وبالجوارح انقياداً، فإنَّ ذِكْرَ نعمِهِ تعالى داعٍ لشكرِهِ. ثم نَبَّهَهم على أصول النِّعم، وهي الخلق والرزق، فقال: ﴿هل من خالقٍ غيرُ الله يرزُقُكم من السماءِ والأرض﴾: ولما كان من المعلوم أنه ليس أحدٌ يَخْلُقُ ويرزقُ إلَّا الله؛ نتج من ذٰلك أنْ كان ذٰلك دليلاً على ألوهيَّته وعبوديَّته، ولهٰذا قال: ﴿لا إلٰه إلَّا هو فأنَّى تؤفكونَ﴾؛ أي: تُصْرَفون من عبادةِ الخالق الرازق لعبادةِ المخلوق المرزوق.

﴿٤﴾ ﴿وإن يُكَذِّبوكَ﴾: يا أيُّها الرسولُ؛ فلك أسوةٌ بمن قبلَكَ من المرسلين؛ ﴿فقد كُذِّبَتْ رسلٌ من قبلِكَ﴾: فأُهْلِكَ المكذِّبون، ونَجَّى الله الرسل وأتباعهم. ﴿وإلى اللهِ تُرجع الأمورُ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ۝٥ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝٦ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧﴾.

﴿٥ ـ ٦﴾ يقول تعالى: ﴿يا أيُّها الناس إنَّ وعدَ الله﴾: بالبعث والجزاء على الأعمال ﴿حقٌّ﴾؛ أي: لا شكَّ فيه ولا مريةَ ولا تردُّد، قد دلَّت على ذٰلك الأدلة السمعية والبراهين العقلية، فإذا كان وعدُهُ حقًّا؛ فتهيَّؤوا له وبادِروا أوقاتَكم الشريفة بالأعمال الصالحة ولا يَقْطَعْكُم عن ذٰلك قاطعٌ. ﴿فلا تَغُرَّنَّكُمُ الحياةُ الدُّنيا﴾: بلذَّاتِها وشهواتِها ومطالبِها النفسيَّة، فتُلهيكم عما خُلقتم له، ﴿ولا يَغُرَّنَّكم بالله الغَرورُ﴾: الذي هو الشيطانُ، الذي هو عدوُّكم في الحقيقة. ﴿فاتَّخِذوه عَدُوًّا﴾؛ أي: لتكن منكم عداوته على بالٍ، ولا تُهملوا محاربته كلَّ وقتٍ؛ فإنَّه يراكم وأنتم لا تَرَوْنَه، وهو دائماً لكم بالمرصاد. ﴿إنَّما يَدْعو حِزْبَه ليكونوا من أصحابِ السعيرِ﴾: هٰذا غايتُه ومقصودُه مِمَّنْ تَبِعَهُ أن يُهانَ غاية الإهانة بالعذاب الشديد.

﴿٧﴾ ثم ذكر أنَّ الناس انقسموا بحسب طاعة الشيطان وعدمِها إلى قسمين، وذَكَرَ جزاءَ كلٍّ منهما، فقال: ﴿الذين كفروا﴾؛ أي: جحدوا ما جاءتْ به الرسلُ ودلَّت عليه الكتبُ ﴿لهم عذابٌ شديدٌ﴾: في نار جهنَّم، شديدٌ في ذاتِهِ ووصفِهِ،

وأنَّهم خالدون فيها أبداً، ﴿والذين آمنوا﴾: بقلوبِهِم بما دعا اللّه إلى الإيمان به، ﴿وعملوا﴾ ـ بمقتضى ذٰلك الإيمان بجوارِحِهم ـ الأعمالَ الصالحةَ ﴿لهم مغفرةٌ﴾: لذُنوبهم، يزولُ بها عنهم الشرُّ والمكروه، ﴿وأجرٌ كبيرٌ﴾: يحصُلُ به المطلوبُ.

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ۝٨﴾.

﴿٨﴾ يقولُ تعالى: ﴿أفَمَن زُيِّنَ له﴾: عملُه السيئ القبيح، زيَّنه له الشيطانُ وحسَّنه في عينِهِ[1]، ﴿فرآه حسناً﴾؛ أي: كمن هداه اللّه إلى الصراطِ المستقيم والدين القويم؛ فهل يستوي هٰذا وهٰذا؟! فالأول عمل السيئ، ورأى الحقَّ باطلاً والباطل حقًّا، والثاني عمل الحسنَ ورأى الحقَّ حقًّا والباطل باطلاً، ولٰكن الهداية والإضلال بيدِ اللّه تعالى. ﴿فإنَّ اللّه يُضِلُّ مَن يشاءُ ويَهْدي مَن يشاءُ فلا تَذْهَبْ نفسُك عليهم﴾؛ أي: على الضالِّين الذين زُيِّنَ لهم سوءُ أعمالِهِم، وصدَّهُم الشيطانُ عن الحقِّ ﴿حسراتٍ﴾: فليس عليك إلَّا البلاغُ، وليس عليك مِن هداهم شيءٌ، واللّه هو الذي يُجازيهم بأعمالهم. ﴿إنَّ اللّه عليمٌ بما يصنعونَ﴾.

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ۝٩﴾.

﴿٩﴾ يخبر تعالى عن كمال اقتدارِهِ وسَعَة جودِهِ وأنَّه ﴿أرسلَ الرياحَ فتُثير سحاباً فسُقْناه إلى بلدٍ مَيِّتٍ﴾: فأنزله اللّه عليها، ﴿فأحْيَينا به الأرض بعدَ موتها﴾: فحييتِ البلادُ والعبادُ، وارتزقت الحيواناتُ، ورَتَعَتْ في تلك الخيرات، ﴿كذٰلك﴾: الذي أحيا الأرض بعد موتها ينشر الأمواتَ من قبورهم بعدما مزَّقهم البلاء، فيسوقُ إليهم مطراً كما ساقه إلى الأرض الميتة، فينزِلُه عليهم، فتحيا الأجساد والأرواح من القبور، فيأتون للقيام بين يدي اللّه، ليحكم بينهم ويَفْصِلَ بحكمِهِ العدل.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ۝١٠﴾.

﴿١٠﴾ أي: يا مَن يُريد العزَّةَ! اطْلُبْها ممَّنْ هي بيدِهِ؛ فإنَّ العزَّة بيد اللّه، ولا

(١) في (ب): «عينيه».

تُنال إلَّا بطاعتِهِ، وقد ذَكَرَها بقولِهِ: ﴿إليه يصعدُ الكلمُ الطيِّبُ﴾: من قراءة وتسبيح وتحميدٍ وتهليل وكل كلام حسنٍ طيِّب، فيرُفع إلى اللّه، ويُعرضُ عليه، ويُثني اللّه على صاحبه بين الملأ الأعلى، ﴿والعملُ الصالح﴾: من أعمال القلوب وأعمال الجوارح ﴿يرفعُهُ﴾: اللّه تعالى إليه أيضاً كالكلم الطيب. وقيل: والعمل الصالحُ يرفَعُ الكلمَ الطَّيِّبَ؛ فيكون رفع الكلم الطيب بحسب أعمال العبد الصالحة فهي التي ترفع كلمه الطيب، فإذا لم يكنْ له عملٌ صالحٌ؛ لم يُرْفَعْ له قولٌ إلى اللّه تعالى. فهٰذه الأعمال التي تُرفع إلى اللّه تعالى ويَرْفَعُ اللّه صاحِبَها ويعزُّه، وأمَّا السيئاتُ؛ فإنَّها بالعكس، يريدُ صاحبُها الرفعةَ بها، ويمكرُ ويكيدُ ويعودُ ذٰلك عليه، ولا يزدادُ إلَّا هواناً ونزولاً، ولهٰذا قال: ﴿والعملُ الصالحُ يرفعُهُ والذين يمكرونَ السيئاتِ لهم عذابٌ شديدٌ﴾: يُهانون فيه غايةَ الإهانة. ﴿ومَكْرُ أولٰئك هو يبورُ﴾؛ أي: يهلك ويضمحلُّ ولا يفيدُهم شيئاً؛ لأنَّه مكرٌ بالباطل لأجل الباطل.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

﴿١١﴾ يذكر تعالى خلقَه الآدميَّ وتنقُّله في هٰذه الأطوار من ترابٍ إلى نطفةٍ وما بعدها، ﴿ثم جَعَلَكم أزواجاً﴾؛ أي: لم يزل ينقُلُكم طوراً بعد طورٍ حتى أوصلكم إلى أنْ كنتُم أزواجاً؛ ذكر يتزوجُ أنثى، ويُرادُ بالزواج الذُّرِّية والأولاد؛ فهو وإنْ كان النكاحُ من الأسبابِ فيه؛ فإنَّه مقترنٌ بقضاء اللّه وقدره وعلمه. ﴿وما تَحْمِلُ مِن أنثى ولا تضعُ إلَّا بعلمِهِ﴾: وكذٰلك أطوارُ الآدميِّ كلُّها بعلمه وقضائه ﴿وما يُعَمَّرُ من مُعَمَّرٍ ولا يُنقَصُ من عُمُرِهِ﴾؛ أي: عمر الذي كان معمَّراً عمراً طويلاً، ﴿إلَّا﴾: بعلمه تعالى، أو: وما ينقص من عمر الإنسان الذي هو بصدد أن يَصِلَ إليه لولا ما سلكه من أسباب قِصَرِ العمر؛ كالزِّنا وعقوق الوالدين وقطيعة الأرحام ونحو ذٰلك مما ذُكِرَ أنَّها من أسباب قصر العمر، والمعنى أنَّ طولَ العمر وقِصَرَه بسببٍ وبغير سببٍ كله بعلمه تعالى، وقد أثبت ذٰلك ﴿في كتابٍ﴾: حوى ما يجري على العبد في جميع أوقاته وأيام حياته. ﴿إنَّ ذٰلك على اللّه يسيرٌ﴾؛ أي: إحاطة علمه بتلك المعلومات الكثيرة، وإحاطةُ كتابه بها.

فهٰذه ثلاثةُ أدلَّة من أدلَّة البعث والنشور، كلُّها عقليَّة، نبَّه اللّه عليها في هٰذه الآيات: إحياء الأرض بعد موتها، وأنَّ الذي أحياها سيُحيي الموتى. **وتَنَقُّل الآدمي** في تلك الأطوار، فالذي أوجَدَه ونَقَّلَه طبقاً بعد طبق وحالاً بعد حال حتى بلغ ما

قُدِّرَ له؛ فهو على إعادتِهِ وإنشائِهِ النشأةَ الأخرى أقدرُ، وهو أهونُ عليه. **وإحاطة** علمه بجميع أجزاء العالم العلويّ والسفليّ دقيقها وجليلها، الذي في القلوب، والأجنَّة التي في البطون، وزيادة الأعمار ونقصها، وإثباتُ ذٰلك كلِّه في كتاب؛ فالذي كان هٰذا[1] يسيراً عليه؛ فإعادتُه للأموات أيسرُ وأيسرُ. فتبارك من كَثُرَ خيرُه، ونبَّه عبادَه على ما فيه صلاحُهم في معاشهم ومعادهم.

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾.

﴿١٢﴾ هٰذا إخبارٌ عن قدرتِهِ وحكمتِهِ ورحمتِهِ، أنَّه جعل البحرينِ لمصالح العالم الأرضيِّ كلِّهم، وأنَّه لم يسوِّ بينهما؛ لأنَّ المصلحة تقتضي أن تكون الأنهارُ عذبةً فراتاً سائغاً شرابها؛ لينتفعَ بها الشاربون والغارسون والزارعون، وأن يكونَ البحرُ ملحاً أجاجاً؛ لئلَّا يَفْسُدَ الهواءُ المحيطُ بالأرض بروائح ما يموتُ في البحر من الحيوانات، ولأنَّه ساكنٌ لا يجري؛ فملوحتُه تمنعُه من التغيُّر، ولتكون حيواناته أحسنَ وألذَّ، ولهٰذا قال: ﴿ومن كلٍّ﴾: من البحر الملح والعذب ﴿**تأكلونَ لحماً طريًّا**﴾: وهو السمك المتيسِّرُ صيدُه في البحر، ﴿وتستخرجون حِلْيَةً تَلْبَسونَها﴾: من لؤلؤ ومرجانٍ وغيره مما يوجدُ في البحر، فهٰذه مصالحُ عظيمةٌ للعباد.

ومن المصالح أيضاً والمنافع في البحر أن سَخَّرَه اللّه تعالى يحملُ الفلكَ من السفن والمراكب، فتراها تمخُرُ البحر وتشقُّه، فتسلكُ من إقليم إلى إقليم آخر ومن محلٍّ إلى محلٍّ، فتحمل السائرين وأثقالَهم وتجاراتِهم، فيحصُلُ بذٰلك من فضل اللّه وإحسانه شيءٌ كثير، ولهذا قال: ﴿ولِتَبْتَغوا من فضلِهِ ولعلَّكم تشكُرون﴾.

﴿١٣﴾ **ومن ذٰلك أيضاً** إيلاجُهُ تعالى الليلَ بالنهارِ والنهارَ بالليلِ؛ يُدْخِلُ هٰذا على هٰذا وهٰذا على هٰذا، كلما أتى أحدُهما؛ ذهب الآخر، ويزيدُ أحدُهما وينقصُ

(١) أضاف الشيخ هنا في هامش (أ) و(ب): «نعته» ثم شطب عليها في هامش (أ).

الآخرُ ويتساويان، فيقوم بذلك ما يقومُ من مصالح العبادِ في أبدانهم وحيواناتهم وأشجارِهم وزُروعهم، **وكذلك ما جعل الله** في تسخير الشمس والقمر من مصالح الضياء والنورِ والحركة والسكون وانتشار العباد في طلب فضله وما فيهما من تنضيج الثمار وتجفيف ما يجفَّف[1] وغير ذلك مما هو من الضَّرورياتِ التي لو فُقِدَتْ؛ لَلَحِقَ الناسَ الضررُ.

وقوله ﴿**كلٌّ يجري لأجل مُسَمًّى**﴾؛ أي: كلٌّ من الشمس والقمر يسيران في فلكهما ما شاء الله أن يسيرا؛ فإذا جاء الأجلُ وقَرُبَ انقضاءُ الدُّنيا؛ انقطع سيرُهما، وتعطَّل سلطانُهما، وخسفَ القمرُ، وكُوِّرَتِ الشمسُ، وانتثرتِ النُّجومُ.

فلما بيَّن تعالى ما بيَّن من هذه المخلوقات العظيمة وما فيها من العبرِ الدالَّة على كماله وإحسانِهِ قال: ﴿**ذلكُمُ الله ربُّكم له الملكُ**﴾؛ أي: الذي انفرد بخَلْق هذه المذكورات وتسخيرِها هو الربُّ المألوه المعبودُ الذي له الملكُ كلُّه. ﴿**والذين تدعونَ من دونِهِ**﴾: من الأوثان والأصنام، لا يملِكونَ ﴿**من قِطْمير**﴾؛ أي: لا يملكون شيئاً لا قليلاً ولا كثيراً، حتى ولا القطمير الذي هو أحقر الأشياء، وهذا من تنصيص النفي وعمومه؛ فكيف يُدْعَوْنَ وهم غير مالكينَ لشيء من ملك السماواتِ والأرض؟!

﴿١٤﴾ ومع هذا: ﴿**إن تَدْعوهم**﴾: لا يسمعوكم؛ لأنهم ما بين جمادٍ[2] وأمواتٍ وملائكةٍ مشغولين بطاعة ربهم، ﴿**ولو سمعوا**﴾: على وجه الفرض والتقدير ﴿**ما اسْتَجابوا لكم**﴾: لأنَّهم لا يملِكون شيئاً ولا يرضى أكثرُهم بعبادةِ مَنْ عَبَدَه، ولهذا قال: ﴿**ويوم القيامةِ يكفُرونَ بشِرْكِكُم**﴾؛ أي: يتبرؤون منكم، ويقولونَ: سبحانك أنتَ وليُّنا من دونهم، ﴿**ولا ينبِّئُك مثلُ خبيرٍ**﴾؛ أي: لا أحدَ ينبِّئُكَ أصدقُ من الله العليم الخبيرِ؛ فاجْزِمْ بأنَّ هذا الأمر الذي نبأ به كأنه رأيُ عينٍ، فلا تشكَّ فيه ولا تمترِ. فتضمَّنَتْ هذه الآياتُ الأدلَّة والبراهين الساطعةَ الدالَّة على أنَّه تعالى المألوهُ المعبودُ الذي لا يستحقُّ شيئاً من العبادة سواه، وأنَّ عبادةَ ما سواه باطلةٌ متعلقةٌ بباطل لا تفيدُ عابده شيئاً.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ

---

(١) في (ب): «وتخفيف ما يخفف». (٢) في (ب): «جمادات».

﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾.

﴿١٥﴾ يخاطبُ تعالى جميع الناس، ويخبِرُهم بحالِهم ووصفِهم، وأنهم فقراءُ إلى الله من جميع الوجوه: فقراءُ في إيجادِهم؛ فلولا إيجادُه إيَّاهم لم يوجدوا، فقراء في إعدادِهم بالقُوى والأعضاء والجوارح، التي لولا إعدادُه إيَّاهم بها؛ لما استعدُّوا لأيِّ عمل كان، فقراء في إمدادِهم بالأقواتِ والأرزاقِ والنعم الظاهرةِ والباطنة؛ فلولا فضلُه وإحسانُه وتيسيرُه الأمور، لما حصل لهم من الرزقِ والنعم شيءٌ، فقراءُ في صرف النقم عنهم ودفع المكارهِ وإزالة الكروب والشدائدِ؛ فلولا دفعُه عنهم وتفريجُه لكُرُباتهم وإزالتُهُ لعسرِهم؛ لاستمرَّتْ عليهم المكارهُ والشدائدُ، فقراءُ إليه في تربيتهم بأنواع التربية وأجناس التدبير، فقراء إليه في تألُّههم له وحُبِّهم له وتعبُّدهم وإخلاص العبادة له تعالى؛ فلو لم يوفِّقْهم لذٰلك؛ لهلكوا وفسدتْ أرواحُهم وقلوبُهم وأحوالُهم، فقراءُ إليه في تعليمهم ما لا يعلمون وعملهم بما يُصْلِحُهم؛ فلولا تعليمُه؛ لم يتعلَّموا، ولولا توفيقُه؛ لم يَصْلُحوا؛ فهم فقراء بالذات إليه بكلِّ معنى وبكل اعتبارٍ، سواء شعروا ببعض أنواع الفقرِ أم لم يشعُروا، ولٰكنَّ الموفَّق منهم الذي لا يزال يشاهدُ فَقْرَه في كل حال من أمورِ دينه ودنياه، ويتضرَّعُ له ويسأله أنْ لا يَكِلَه إلى نفسِهِ طرفةَ عين وأنْ يعينه على جميع أمورِهِ، ويستصحبُ هٰذا المعنى في كلِّ وقتٍ؛ فهٰذا حريٌّ بالإعانة التامَّة من ربِّه وإلٰهه الذي هو أرحمُ به من الوالدةِ بولدها.

﴿والله هو الغنيُّ الحميدُ﴾؛ أي: الذي له الغنى التامُّ من جميع الوجوه؛ فلا يحتاجُ إلى ما يحتاجُ إليه خلقُه، ولا يفتقرُ إلى شيءٍ مما يفتقرُ إليه الخلقُ، وذٰلك لكمال صفاتِهِ، وكونِها كلها صفاتِ كمال ونعوتَ جلال، ومن غناه تعالى أنَّه أغنى الخلقَ في الدُّنيا والآخرة، الحميدُ في ذاته، وأسمائِهِ؛ لأنَّها حسنى، وأوصافه؛ لكونها عليا، وأفعاله؛ لأنَّها فضلٌ وإحسانٌ وعدلٌ وحكمةٌ ورحمةٌ، وفي أوامره ونواهيه؛ فهو الحميدُ على ما فيه، وعلى ما منه[1]، وهو الحميدُ في غناه، الغنيُّ في حمده.

---

(١) «قوله على ما فيه: أي من الصفات، وعلى ما مَنَّه من الفضل والإنعام وعلى الجزاء بالعدل»، كذا في هامش نسخة (أ) بخط المؤلف.

﴿١٦﴾ ﴿إن يَشَأْ يُذْهِبْكم ويأتِ بخلقٍ جديدٍ﴾: يُحتمل أنَّ المرادَ: إنْ يشأ يُذْهِبْكم أيُّها الناس ويأتِ بغيركم من الناس أطوع للّه منكم، ويكون في هٰذا تهديدٌ لهم بالهلاك والإبادة، وأنَّ مشيئتَه غيرُ قاصرة عن ذٰلك. ويُحتمل أنَّ المرادَ بذٰلك إثباتُ البعث والنُّشور، وأنَّ مشيئةَ اللّه تعالى نافذةٌ في كلِّ شيءٍ، وفي إعادتكم بعد موتكم خلقاً جديداً، ولٰكن لذٰلك الوقت أجلٌ قدَّره اللّه لا يتقدَّم عنه ولا يتأخَّر.

﴿١٧﴾ ﴿وما ذٰلك على اللّه بعزيزٍ﴾؛ أي: بممتنع ولا معجزٍ له.

﴿١٨﴾ ويدلُّ على المعنى الأخير ما ذكره بعده في قوله: ﴿ولا تزرُ وازرةٌ وِزْرَ أخرى﴾؛ أي: في يوم القيامةِ كلُّ أحدٍ يُجازى بعمله، ولا يحملُ أحدٌ ذنبَ أحدٍ. ﴿وإن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ﴾؛ أي: نفسٌ مثقلةٌ بالخطايا والذنوب تستغيثُ بمن يحمل عنها بعضَ أوزارها، ﴿لا يُحْمَلْ منه شيءٌ ولو كان ذا قُربى﴾: فإنَّه لا يَحْمِلُ عن قريبٍ، فليست حالُ الآخرة بمنزلةِ حال الدُّنيا يساعدُ الحميم حميمَه والصديقُ صديقَه، بل يوم القيامةِ يتمنَّى العبدُ أن يكونَ له حقٌّ على أحدٍ، ولو على والديه وأقاربه. ﴿إنَّما تنذرُ الذين يَخْشَوْنَ ربَّهم بالغيب وأقاموا الصلاةَ﴾؛ أي: هٰؤلاء الذين يقبلون النذارةَ وينتفعون بها، أهلُ الخشية للّه بالغيبِ. الذين[1] يخشونَه في حال السرِّ والعلانية والمشهدِ والمغيبِ وأهل إقامةِ الصلاة بحدودِها وشروطِها وأركانها وواجباتها وخُشوعها؛ لأنَّ الخشيةَ للّه تستدعي من العبدِ العملَ بما يخشى من تضييعِهِ العقاب والهربَ مما يخشى من ارتكابِهِ العذاب، والصلاة تدعو إلى الخير وتنهى عن الفحشاء والمنكر. ﴿ومن تزكَّى فإنَّما يتزكَّى لنفسِهِ﴾؛ أي: ومن زكَّى نفسَه بالتنقِّي من العيوب كالرياء والكبر والكذبِ والغشِّ والمكرِ والخداع والنفاقِ ونحو ذٰلك من الأخلاق الرذيلة، وتحلَّى بالأخلاق الجميلة من الصدقِ والإخلاصِ والتواضُع ولين الجانب والنُّصح للعباد وسلامةِ الصدرِ من الحقدِ والحسدِ وغيرِهما من مساوىء الأخلاق؛ فإنَّ تزكِيَتَه يعود نفعُها إليه ويصلُ مقصودُها إليه، ليس يضيعُ من عملِهِ شيءٌ. ﴿وإلى اللّه المصيرُ﴾: فيجازي الخلائقَ على ما أسْلَفوه، ويحاسِبُهم على ما قدَّموه وعَمِلوه، ولا يغادِرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلَّا أحصاها.

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَـٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾

---

(١) في (ب): «أي الذين».

﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿١٩ ـ ٢٣﴾ يخبر تعالى أنَّه لا يتساوى الأضدادُ في حكمة اللّه وفيما أوْدَعه في فِطَرِ عباده، فلا ﴿يستوي الأعمى﴾: فاقد البصر ﴿والبصيرُ. ولا الظلماتُ ولا النورُ. ولا الظِّلُّ ولا الحَرورُ. وما يستوي الأحياءُ ولا الأمواتُ﴾؛ فكما أنه من المتقرِّر عندكم الذي لا يَقْبَلُ الشكَّ أنَّ هٰذه المذكورات لا تتساوى؛ فكذٰلك فَلْتَعْلَموا أنَّ عدمَ تساوي المتضادَّاتِ المعنويَّةِ أولى وأولى؛ فلا يستوي المؤمنُ والكافرُ، ولا المهتدي والضالُّ، ولا العالم والجاهل، ولا أصحابُ الجنة وأصحابُ النار، ولا أحياءُ القلوبِ وأمواتُها؛ فبين هٰذه الأشياء من التفاوتِ والفَرْقِ ما لا يعلمُه إلَّا اللّه تعالى. فإذا علمتَ المراتبَ وميَّزْتَ الأشياء وبان الذي ينبغي أن يُتَنافَسَ في تحصيله من ضدِّه؛ فليخترِ الحازمُ لنفسه ما هو أولى به وأحقُّ بالإيثار. ﴿إنَّ اللّه يُسْمِعُ مَن يشاءُ﴾: سماع فَهْم وقَبول؛ لأنَّه تعالى هو الهادي الموفِّق. ﴿وما أنتَ بمسمع مَن في القبورِ﴾؛ أي: أمواتُ القلوب، أو: كما أنَّ دعاءَك لا يفيدُ سكانَ القبورِ شيئاً، كذٰلك لا يفيدُ المعرِضَ المعاندَ شيئاً، ولكنَّ وظيفتَك النذارةُ وإبلاغُ ما أرسلتَ به؛ قُبِلَ منك أم لا، ولهٰذا قال: ﴿إنْ أنتَ إلا نذيرٌ﴾.

﴿٢٤﴾ ﴿إنا أرسلناك بالحقِّ﴾؛ أي: مجرَّدُ إرسالنا إيَّاك بالحقِّ؛ لأنَّ اللّه تعالى بَعَثَكَ على حين فترةٍ من الرسل وطموسٍ من السُّبل واندراسٍ من العلم وضرورةٍ عظيمةٍ إلى بعثك، فبعثَكَ اللّه رحمةً للعالمين، وكذٰلك ما بَعَثْناك به من الدين القويم والصراطِ المستقيم حقٌّ لا باطل، وكذٰلك ما أرسلناك به من هٰذا القرآن العظيم وما اشتملَ عليه من الذِّكْرِ الحكيم حقٌّ وصدقٌ، ﴿بشيراً﴾: لمن أطاعَكَ بثواب اللّه العاجل والآجل ﴿ونذيراً﴾[1]: لمن عصاك بعقاب الله العاجل والآجل، ولست ببدع من الرسل. فما ﴿مِنْ أمَّةٍ﴾: من الأمم الماضية والقرون الخالية ﴿إلَّا خلا فيها نذيرٌ﴾: يقيمُ عليهم حجَّةَ اللّه؛ ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عن بَيِّنَةٍ ويَحْيا مَنْ حَيَّ عن بَيِّنَةٍ﴾.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾.

---

(١) في (ب): «نذيراً».

﴿٢٥﴾ أي: وإنْ يكذِّبْك أيُّها الرسول هٰؤلاء المشركون؛ فلست أول رسول كُذِّبَ، ﴿فقد كَذَّبَ الذين من قبلهم جاءتْهم رسُلُهم بالبيناتِ﴾: الدالَّاتِ على الحقِّ وعلى صدقهم فيما أخبروهم به. ﴿والزُّبُرِ﴾؛ أي: الكتب المكتوبة المجموع فيها كثير من الأحكام. ﴿والكتابِ المنيرِ﴾؛ أي: المضيء في أخباره الصادقة وأحكامه العادلة، فلم يكن تكذيبُهم إياهم ناشئاً عن اشتباه أو قصورٍ بما جاءتْهم به الرسلُ، بل بسبب ظلمِهِم وعنادِهِم.

﴿٢٦﴾ ﴿ثم أخذتُ الذين كفروا﴾: بأنواع العقوباتِ ﴿فكيف كان نكيرِ﴾: عليهم؟ كان أشدَّ النكير وأعظمَ التنكيل؛ فإيَّاكم وتكذيبَ هٰذا الرسول الكريم، فيصيبكم كما أصاب أولٰئك من العذاب الأليم والخزي الوخيم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾.

يذكر تعالى خلقَه للأشياء المتضادَّات التي أصلُها واحدٌ ومادتُها واحدةٌ وفيها من التفاوت والفرق ما هو مشاهدٌ معروف؛ ليدلَّ العبادَ على كمال قدرتِهِ وبديع حكمتِهِ:

﴿٢٧﴾ فمن ذٰلك أنَّ اللّه تعالى أنزلَ من السماء ماءً، فأخرج به من الثمراتِ المختلفاتِ والنباتات المتنوعاتِ ما هو مشاهدٌ للناظرين، والماء واحدٌ والأرضُ واحدةٌ. ومن ذٰلك الجبالُ التي جعلها اللّه أوتاداً للأرض؛ تجدِها جبالاً مشتبكةً، بل جبلاً واحداً، وفيها ألوان متعددةٌ، فيها ﴿جُدَدٌ بيضٌ﴾؛ أي: طرائق بيضٌ، وفيها طرائقُ صفرٌ وحمرٌ، وفيها ﴿غرابيبُ سودٌ﴾؛ أي: شديدة السواد جدًّا.

﴿٢٨﴾ ومن ذٰلك الناسُ والدوابُّ والأنعام؛ فيها من اختلاف الألوان والأوصافِ والأصواتِ والهيئاتِ ما هو مرئيٌّ بالأبصار مشهودٌ للنُّظَّارِ، والكلُّ من أصل واحدٍ ومادةٍ واحدةٍ، فتفاوتُها دليلٌ عقليٌّ على مشيئةِ اللّه تعالى التي خَصَّصَتْ ما خَصَّصَتْ منها بلونِهِ ووصفِهِ، وقدرة اللّه تعالى حيث أوجدها كذٰلك، وحكمتِهِ ورحمتِهِ حيث كان ذٰلك الاختلاف وذٰلك التفاوتُ فيه من المصالحِ والمنافع ومعرفة الطرق ومعرفة الناس بعضهم بعضاً ما هو معلوم، وذٰلك أيضاً دليلٌ على سعة علم اللّه تعالى، وأنه يَبْعَثُ مَنْ في القبور. ولٰكن الغافل ينظر في هٰذه الأشياء وغيرها نَظَرَ غفلةٍ لا تحدثُ

له تذكُّراً، وإنَّما ينتفع بها من يخشى اللّه تعالى ويعلم بفكرِهِ الصائب وجهَ الحكمة فيها، ولهٰذا قال: ﴿إنَّما يخشى اللّهَ من عبادِهِ العلماءُ﴾: فكلُّ من كان باللّه أعلم؛ كان أكثرَ له خشيةً، وأوجبتْ له خشيةُ اللّه الانكفافَ عن المعاصي والاستعدادَ للقاء مَنْ يخشاه، وهٰذا دليلٌ على فضيلة العلم؛ فإنَّه داعٍ إلى خشية اللّه، وأهلُ خشيتِهِ هم أهلُ كرامتِهِ؛ كما قال تعالى: ﴿رضي اللّه عنهم ورَضُوا عنه ذٰلك لِمَنْ خَشِيَ ربَّه﴾. ﴿إنَّ اللّه عزيزٌ﴾: كامل العزَّة، ومن عزَّته خَلْقُ هٰذه المخلوقات المتضادَّات. ﴿غفورٌ﴾: لذنوب التائبين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ٢٩ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ٣٠﴾.

﴿٢٩﴾ ﴿إنَّ الذين يتلونَ كتاب اللّه﴾؛ أي: يتَّبعونَه في أوامره فيمتَثِلونها وفي نواهيه فيترُكونها وفي أخبارِهِ فيصدِّقونها ويعتَقِدونها ولا يقدِّمون عليه ما خالَفَه من الأقوال، ويتلون أيضاً ألفاظَه بدراستِهِ، ومعانِيَه بتتبُّعِها واستخراجِها، ثم خصَّ من التلاوة بعدما عمَّ الصلاةَ ـ التي هي عمادُ الدِّين ونورُ المسلمين وميزانُ الإيمان وعلامةُ صدق الإسلام ـ النفقةَ[1] على الأقارب والمساكين واليتامى وغيرهم من الزكاة والكفارات والنذور والصدقات، ﴿سرًّا وعلانيةً﴾: في جميع الأوقات؛ ﴿يرجونَ﴾: بذٰلك ﴿تجارةً لن تبورَ﴾؛ أي: لن تكسدَ وتفسدَ، بل تجارة هي أجلُّ التجاراتِ وأعلاها وأفضلُها ألا وهي رضا ربِّهم والفوزُ بجزيل ثوابِهِ والنجاةُ من سخطِهِ وعقابِهِ، وهٰذا فيه الإخلاصُ[2] بأعمالهم، وأنَّهم لا يرجون بها من المقاصدِ السيئةِ والنيَّاتِ الفاسدةِ شيئاً.

﴿٣٠﴾ ذكر أنَّهم حصل لهم ما رَجَوْه، فقال: ﴿لِيُوَفِّيهم أجورَهم﴾؛ أي: أجور أعمالهم على حسب قِلَّتِها وكثرتها وحُسنها وعدمِهِ، ﴿ويزيدَهُم من فضلِهِ﴾: زيادة عن أجورهم. ﴿إنَّه غفورٌ شكورٌ﴾: غفر لهم السيئاتِ، وقَبِلَ منهم القليل من الحسنات.

﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ

---

(١) في (ب): «والنفقة». (٢) في (ب): «أنهم يخلصون».

بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم
مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ
يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ
ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا
يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿٣١﴾ يذكر تعالى أنَّ الكتابَ الذي أوحاه إلى رسوله ﴿هو الحقُّ﴾: من كثرةِ ما اشتمل عليه من الحقِّ، كأنَّ الحقَّ منحصرٌ فيه؛ فلا يكنْ في قلوبكم حرجٌ منه ولا تتبرَّموا منه ولا تستهينوا به؛ فإذا كان هو الحقَّ؛ لزم أنَّ كلَّ ما دلَّ عليه من المسائل الإلْهيَّة والغيبيَّة وغيرها مطابقٌ لما في الواقع؛ فلا يجوز أن يُرادَ به ما يخالفُ ظاهرَه وما دلَّ عليه. ﴿مصدِّقاً لما بينَ يديهِ﴾: من الكتب والرسل؛ لأنَّها أخبرتْ به، فلما وُجِدَ وظهرَ؛ ظهرَ به صدقُها؛ فهي بشرتْ به وأخبرتْ، وهو صدَّقها، ولهٰذا لا يمكن أحداً أن يؤمنَ بالكتب السابقة وهو كافرٌ بالقرآن أبداً؛ لأنَّ كفره به ينقضُ إيمانه بها؛ لأنَّ من جملة أخبارِها الخبرَ عن القرآن، ولأنَّ أخبارها مطابقةٌ لأخبار القرآن. ﴿إنَّ الله بعبادِهِ لخبيرٌ بصيرٌ﴾: فيعطي كلَّ أمةٍ وكلَّ شخص ما هو اللائقُ بحالِهِ، ومن ذٰلك أنَّ الشرائع السابقة لا تَليق إلَّا بوقتها وزمانها، ولهٰذا ما زال الله يرسلُ الرسلَ رسولاً بعد رسول حتى خَتَمَهم بمحمدٍ ﷺ، فجاء بهٰذا الشرع الذي يَصْلُحُ لمصالح الخلق إلى يوم القيامةِ، ويتكفَّل بما هو الخير في كل وقت، ولهٰذا لمَّا كانت هٰذه الأمةُ أكملَ الأمم عقولاً وأحسنهم أفكاراً وأرقَّهم قلوباً وأزكاهم أنفساً؛ اصطفاهم تعالى واصطفى لهم دينَ الإسلام وأورثهم الكتابَ المهيمنَ على سائر الكتب.

﴿٣٢﴾ ولهٰذا قال: ﴿ثم أوْرَثْنا الكتاب الذين اصْطَفَيْنا من عبادِنا﴾: وهم هٰذه الأمة. ﴿فمنهم ظالمٌ لنفسِهِ﴾: بالمعاصي التي هي دون الكفرِ، ﴿ومنهم مقتصدٌ﴾: مقتصرٌ على ما يجب عليه، تاركٌ للمحرَّم، ﴿ومنهم سابقٌ بالخيرات﴾؛ أي: سَارَعَ فيها، واجْتَهَدَ فسبق غيره، وهو المؤدي للفرائض، المكثر من النوافل، التارك للمحرم والمكروه؛ فكلهم اصطفاه الله تعالى لوراثة هٰذا الكتاب، وإن تفاوتتْ مراتِبُهم وتميَّزت أحوالُهم؛ فلكل منهم قسطٌ من وراثتِهِ، حتى الظالم لنفسه؛ فإنَّ ما معه من أصل الإيمان وعلوم الإيمان وأعمال الإيمان من وراثة الكتاب؛ لأنَّ المراد بوراثة الكتاب وراثةُ علمِهِ وعمله ودراسةُ ألفاظِهِ واستخراج معانيه، وقوله:

﴿بإذن الله﴾: راجعٌ إلى السابق إلى الخيرات[١]؛ لئلَّا يغترَّ بعمله، بل ما سَبَقَ إلى الخيرات إلَّا بتوفيق اللّه تعالى ومعونته؛ فينبغي له أن يشتغلَ بشكر اللّه تعالى على ما أنعم به عليه. ﴿ذٰلك هو الفضلُ الكبيرُ﴾؛ أي: وراثة الكتاب الجليل لمن اصطفى تعالى من عباده هو الفضلُ الكبيرُ الذي جميع النعم بالنسبة إليه كالعدم، فأجلُّ النعم على الإطلاق وأكبرُ الفضل وراثةُ هٰذا الكتاب.

﴿٣٣﴾ ثم ذكر جزاء الذين أوْرَثَهم كتابَه، ﴿جناتُ عدنٍ يَدْخُلونها﴾؛ أي: جناتٌ مشتملاتٌ على الأشجار والظلِّ والظليل والحدائق الحسنة والأنهار المتدفِّقة والقصور العالية والمنازلِ المزخرفةِ في أبدٍ لا يزول وعيش لا يَنْفَدُ. والعَدْنُ: الإقامة؛ فجنات عدنٍ؛ أي: جنات إقامة، أضافها للإقامة لأنَّ الإقامةَ والخلودَ وصفُها ووصفُ أهلها، ﴿يُحَلَّوْنَ فيها من أساورَ من ذهبٍ﴾: وهو الحُلِيُّ الذي يُجعل في اليدين على ما يحبُّون ويرونَ أنَّه أحسنُ من غيره، الرجال والنساء في الحلية في الجنة سواء. ﴿و﴾ يحلَّوْن فيها ﴿لؤلؤاً﴾: يُنْظَمُ في ثيابهم وأجسادهم، ﴿ولباسُهُم فيها حريرٌ﴾: من سندس ومن إستبرقٍ أخضر.

﴿٣٤﴾ ﴿و﴾ لمَّا تمَّ نعيمُهم وكَمُلَتْ لَذَّتُهم؛ ﴿قالوا الحمدُ للّه الذي أذْهَبَ عنَّا الحَزَنَ﴾: وهٰذا يشملُ كلَّ حزنٍ؛ فلا حزنَ يعرض لهم بسبب نقص في جمالهم ولا في طعامهم وشرابهم ولا في لذَّاتهم ولا في أجسادهم ولا في دوام لَبْثِهم؛ فهم في نعيم ما يرونَ عليه مزيداً، وهو في تزايدٍ أبدَ الآباد. ﴿إنَّ ربَّنا لَغفورٌ﴾: حيث غَفَرَ لنا الزَّلاتِ. ﴿شكورٌ﴾: حيث قَبِلَ منَّا الحسناتِ وضاعَفَها، وأعطانا من فضلِهِ ما لم تَبْلُغْهُ أعمالُنا ولا أمانينا. فبمغفرتِهِ؛ نَجَوْا من كلِّ مكروه ومرهوبٍ، وبشكرِهِ وفضلِهِ؛ حصل لهم كلُّ مرغوبٍ محبوبٍ.

﴿٣٥﴾ ﴿الذي أحَلَّنا﴾؛ أي: أنزلنا نزول حلول واستقرارٍ، لا نزول معبرٍ واعتبار ﴿دار المُقامةِ﴾؛ أي: الدار التي تدوم فيها الإقامةُ، والدار التي يُرغب في المقام فيها؛ لكثرة خيراتها وتوالي مسرَّاتها وزوال كدوراتها، وذٰلك الإحلال بفضلِهِ علينا وكرمِهِ، لا بأعمالنا؛ فلولا فضلُهُ؛ لما وَصَلْنا إلى ما وَصَلْنا إليه، ﴿لا يَمَسُّنا فيها نَصبٌ ولا يَمَسُّنا فيها لُغوبٌ﴾؛ أي: لا تعبٌ في الأبدان ولا في القلبِ والقُوى ولا في كثرة التمتُّع.

(١) في (ب): «بالخيرات».

وهٰذا يدلُّ على أن اللّه تعالى يَجْعَلُ أبدانَهم في نشأةٍ كاملةٍ ويُهَيِّئُ لهم من أسباب الراحة على الدَّوام ما يكونون بهٰذه الصفة؛ بحيث لا يمسُّهم نصبٌ ولا لغوبٌ ولا همٌّ ولا حزنٌ.

ويدلُّ على أنهم لا ينامون في الجنة؛ لأنَّ النوم فائدتُه زوالُ التعب وحصولُ الراحة به، وأهل الجنةِ بخلافِ ذٰلك، ولأنَّه موتٌ أصغر، وأهل الجنة لا يموتون. جعلنا اللّه منهم بمنِّه وكرمه.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿٣٦﴾ لما ذكر تعالى حال أهل الجنة ونعيمَهم؛ ذكر حالَ أهل النار وعذابَهم، فقال: ﴿والذين كَفَروا﴾؛ أي: جحدوا ما جاءتْهم به رسُلُهم من الآيات وأنكروا لقاءَ ربِّهم، ﴿لهم نارُ جهنَّم﴾: يعذَّبون فيها أشدَّ العذاب وأبلغَ العقاب، ﴿لا يُقْضى عليهم﴾: بالموت ﴿فيمَوتوا﴾: فيستريحوا، ﴿ولا يُخَفَّفُ عنهم من عذابِها﴾: فشدَّة العذاب وعِظَمُهُ مستمرٌّ عليهم في جميع الآنات واللحظات. ﴿كذٰلك نجزي كلَّ كفورٍ﴾.

﴿٣٧﴾ ﴿وهم يَصْطَرِخون فيها﴾؛ أي: يصرخون ويتصايحون ويستغيثون ويقولون: ﴿ربَّنا أخرِجْنا نَعْمَلْ صالحاً غير الذي كنَّا نعملُ﴾: فاعترفوا بذنبهم، وعرفوا أنَّ اللّه عَدَلَ فيهم، ولٰكنْ سألوا الرجعةَ في غير وقتها، فيُقال لهم ألم: ﴿نُعَمِّرْكُم ما﴾؛ أي: دهراً وعمراً ﴿يتذكَّرُ فيه مَن تَذَكَّرَ﴾؛ أي: يتمكَّن فيه من أراد التذكُّر من العمل، مَتَّعْناكم في الدنيا، وأدررنا عليكم الأرزاق، وقيضْنا لكم أسباب الراحة، ومددْنا[1] لكم في العمر، وتابعْنا عليكم الآياتِ، وواصَلْنا إليكم النُّذر، وابْتَلَيْناكم بالسراءِ والضراءِ؛ لِتُنيبوا إلينا وترجِعوا إلينا، فلم ينجَعْ فيكم إنذارٌ، ولم تُفِدْ فيكم موعظةٌ، وأخَّرْنا عنكم العقوبةَ، حتى إذا انقضتْ آجالُكم وتمَّتْ أعمارُكم ورحلتُم عن دار الإمكان بأشرِّ الحالات ووصلتُم إلى هٰذه الدار دار الجزاء على

(١) في (ب): «ومدينا».

الأعمال؛ سألتُم الرجعةَ! هيهات هيهات! فات وقتُ الإمكان، وغضب عليكم الرحيم الرحمٰن، واشتدَّ عليكم عذاب النار، ونسيَكم أهلُ الجنة، فامكثوا فيها خالدين مخلَّدين وفي العذاب مُهانين، ولهٰذا قال: ﴿فذوقوا فما للظالمين من نصيرٍ﴾: ينصُرُهم فيُخرِجُهم منها، أو يخفِّفُ عنهم من عذابها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿٣٨﴾ لمَّا ذكر جزاء أهل الدارين، وذكر أعمال الفريقين؛ أخبر تعالى عن سعةِ علمِهِ تعالى واطِّلاعه على غيب السمٰواتِ والأرض التي غابت عن أبصارِ الخَلْق وعن علمهم، وأنَّه عالمٌ بالسرائر وما تنطوي عليه الصُّدور من الخير والشرِّ والزكاء وغيره، فيعطي كلاًّ ما يستحقُّه، وينزِلُ كلَّ أحدٍ منزلته.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾.

﴿٣٩﴾ يخبر تعالى عن كمال حكمتِهِ ورحمتِهِ بعبادِهِ أنَّه قَدَّرَ بقضائِهِ السابق أنْ يجعلَ بعضَهم يَخْلُفُ بعضاً في الأرض، ويرسلَ لكلِّ أمَّةٍ من الأمم النُّذُرَ، فينظرَ كيف يعملونَ؛ ﴿فمن كَفَرَ﴾: باللّه وبما جاءتْ به رسلُه؛ فإنَّ كفرَه عليه، وعليه إثمُه وعقوبتُه، ولا يَحْمِلُ عنه أحدٌ، ولا يزداد الكافر بكفرِهِ إلَّا مقتَ ربِّه له وبغضَه إيَّاه، وأيُّ عقوبة أعظمُ من مقت الربِّ الكريم؟! ﴿ولا يزيد الكافرين كُفرُهم إلَّا خساراً﴾؛ أي: يخسرون أنفسَهم وأهليهم وأعمالَهم ومنازلَهم في الجنة؛ فالكافر لا يزالُ في زيادةٍ من الشقاء والخسران والخزي عند اللّه وعند خلقِهِ والحرمان.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾.

﴿٤٠﴾ يقول تعالى معجِّزاً لآلهةِ المشركين ومبيِّناً نقصَها وبطلانَ شِركهم من جميع الوجوه: ﴿قُلْ﴾ يا أيُّها الرسول لهم: ﴿أرأيتُم﴾؛ أي: أخبِروني عن شركائكُم ﴿الذين تدعونَ من دونِ اللّه﴾: هل هم مستحقُّون للدعاء والعبادةِ؟! فأروني ﴿ماذا خَلَقوا من الأرضِ﴾: هل خَلَقوا بحراً أم خلقوا جبالاً أو خلقوا حيواناً أو خلقوا جماداً؟! سيقرُّون أنَّ الخالقَ لجميع الأشياء هو اللّه تعالى. أم لشركائِكُم ﴿شركٌ في السمٰواتِ﴾: في خلقها وتدبيرها؟! سيقولون: ليس لهم شركةٌ! فإذا لم يخلقْ شيئاً

ولم يَشْركوا الخالقَ في خلقه؛ فلم عبدتُموهم ودعوتُموهم مع إقراركم بعجزهم؟! فانتفى الدليل العقليُّ على صحَّةِ عبادتهم، ودلَّ على بطلانها.

ثم ذكر الدليل السمعيَّ، وأنَّه أيضاً منتفٍ، فلهٰذا قال: ﴿أم آتيناهم كتاباً﴾: يتكلَّم بما كانوا به يشركون؛ يأمُرُهم بالشركِ وعبادةِ الأوثان. ﴿فهم﴾: في شركهم ﴿على بينةٍ﴾: من ذٰلك الكتاب الذي نَزَلَ عليهم في صحة الشرك، ليس الأمر كذٰلك؛ فإنَّهم ما نزل عليهم كتابٌ قبلَ القرآن، ولا جاءهم نذيرٌ قبل رسول اللّه محمدٍ ﷺ، ولو قُدِّرَ نزولُ كتاب إليهم وإرسالُ رسول إليهم وزعموا أنَّه أمَرَهم بشِرْكِهم؛ فإنَّا نجزِمُ بكذِبِهم؛ لأنَّ اللّه قال: ﴿وما أرسَلْنا من قبلِكَ من رسول إلَّا نوحي إليه أنَّه لا إله إلَّا أنا فاعبدونِ﴾: فالرسلُ والكتبُ كلُّها متفقةٌ على الأمر بإخلاص الدين للّه تعالى: ﴿وما أُمِروا إلَّا لِيَعْبُدوا اللّهَ مخلِصينَ له الدينَ حنفاءَ﴾.
فإنْ قيلَ: إذا كان الدليل العقليُّ والنقليُّ قد دلَّا على بطلان الشرك؛ فما الذي حمل المشركين على الشركِ وفيهم ذوو العقول والذكاء والفطنة؟! أجاب تعالى بقوله: ﴿بل إن يَعِدُ الظالمون بعضُهم بعضاً إلَّا غروراً﴾؛ أي: ذٰلك الذي مَشَوْا عليه ليس لهم فيه حُجَّةٌ، وإنَّما ذٰلك توصيةُ بعضهم لبعضٍ به، وتزيينُ بعضِهم لبعضٍ، واقتداءُ المتأخِّر بالمتقدِّم الضالِّ، وأماني منَّاها الشياطين. وزيَّنَ لهم سوءَ أعمالهم[(١)]، فنشأت في قلوبهم، وصارتْ صفةً من صفاتها، فعَسُرَ زوالُها وتعسَّرَ انفِصالُها، فحصل ما حَصَلَ من الإقامة على الكفر والشرك الباطل المضمحلِّ.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾.

﴿٤١﴾ يخبر تعالى عن كمال قدرتِهِ وتمام رحمتِهِ وسعةِ حلمِهِ ومغفرتِهِ، وأنَّه تعالى ﴿يمسِكُ السمٰواتِ والأرضَ﴾: عن الزوال؛ فإنَّهما لو زالتا؛ ما أمسكهما أحدٌ من الخلق، لعجزتْ قُدَرُهم وقُواهم عنهما، ولٰكنَّه تعالى قضى أن يكونا كما وُجِدا؛ ليحصُلَ للخلقِ القرارُ والنفعُ والاعتبارُ، وليعلموا من عظيم سلطانِهِ وقوَّةِ قدرتِهِ ما به تمتلىءُ قلوبُهم له إجلالاً وتعظيماً ومحبةً وتكريماً، وليعلموا كمال حِلمِهِ ومغفرتِهِ بإمهال المذنبين وعدم معاجلتِهِ للعاصين، مع أنَّه لو أمر السماء؛ لَحَصَبَتْهم، ولو أذِنَ للأرض؛ لابتلعتْهم، ولٰكن وَسِعَتْهم مغفرتُه وحلمُه وكرمُه. ﴿إنَّه كان حليماً غفوراً﴾.

(١) في (ب): «وزين لهم أعمالهم».

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾.

﴿٤٢﴾ أي: وأقسم هٰؤلاء الذين كذَّبوك يا رسول اللّه قسماً اجتهدوا فيه بالأيمانِ الغليظة: ﴿لَئِن جاءهم نذيرٌ لَيكونُنَّ أهدى من إحدى الأمم﴾؛ أي: أهدى من اليهودِ والنصارى أهل الكتب، فلم يفوا بتلك الإقسامات والعهود، ﴿فلما جاءهم نذيرٌ﴾: لم يَهْتَدوا، ولم يَصيروا أهدى من إحدى الأمم، بل لم يَدوموا على ضلالهم الذي كان، بل ﴿ما زادَهم﴾ ذٰلك ﴿إلَّا نفوراً﴾: زيادة ضلال وبغي وعناد.

﴿٤٣﴾ وليس إقسامُهُم المذكورُ لقصدِ حسنٍ وطلبٍ للحقِّ، وإلَّا؛ لَوُفِّقوا له، ولٰكنه صادرٌ عن استكبارٍ في الأرض على الخلقِ وعلى الحقِّ، وبهرجةٍ في كلامهم هٰذا؛ يريدون به المكر والخداع، وأنَّهم أهل الحقِّ الحريصون على طلبه، فيغتر بهم المغترُّون، ويمشي خلفهم المقتدون، ﴿ولا يَحيق المكرُ السيِّئُ﴾: الذي مقصودُهُ مقصودٌ سَيِّئٌ ومآله وما يرمي إليه سَيِّئٌ باطل ﴿إلا بأهلِهِ﴾: فمكرُهُم إنَّما يعودُ عليهم. وقد أبان اللّه لعبادِهِ في هٰذه المقالات وتلك الإقسامات أنَّهم كَذَبَةٌ في ذٰلك مزوِّرون، فاستبان خِزْيُهُم، وظهرتْ فضيحتُهُم، وتبيَّن قصدُهم السيِّئُ، فعاد مكرُهُم في نحورهم، وردَّ اللّه كيدَهم في صدورهم، فلم يبقَ لهم إلَّا انتظارُ ما يَحِلُّ بهم من العذابِ، الذي هو سنَّةُ اللّه في الأولين، التي لا تُبَدَّلُ ولا تُغَيَّرُ؛ أنَّ كلَّ مَن سار في الظلم والعناد والاستكبار على العباد أنْ تَحِلَّ به نقمتُه وتُسْلَبَ عنه نعمتُه، فليترقَّبْ هٰؤلاء ما فعل بأولٰئك.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾.

﴿٤٤﴾ يحضُّ تعالى على السير في الأرض في القلوب والأبدان للاعتبار لا لمجرَّدِ النظر والغفلة، وأن ينظُروا إلى عاقبة الذين من قبلهم ممَّن كذَّبوا الرسلَ

وكانوا أكثر منهم أموالاً وأولاداً وأشدَّ قوةً وعمروا الأرض أكثر مما عمرها[١] هٰؤلاء، فلما جاءهم العذابُ؛ لم تنفعْهم قوتُهم، ولم تغنِ عنهم أموالُهم ولا أولادُهم من اللّه شيئاً، ونفذتْ فيهم قدرةُ اللّه ومشيئتُه، ﴿وما كانَ اللّهُ لِيُعْجِزَهُ من شيءٍ في السمٰواتِ ولا في الأرضِ﴾: لكمال علمه وقدرته. ﴿إنَّه كان عليماً قديراً﴾.

﴿٤٥﴾ ثم ذَكَرَ تعالى كمالَ حلمِهِ وشدَّةَ إمهاله وإنظارِهِ أربابَ الجرائم والذنوب، فقال: ﴿ولو يؤاخِذُ اللّهُ الناس بما كَسَبوا﴾: من الذنوب ﴿ما ترك على ظَهْرِها من دابَّةٍ﴾؛ أي: لاستوعبت العقوبةُ حتى الحيواناتِ غيرَ المكلَّفةِ. ﴿ولٰكن﴾: يُمهلهم تعالى ولا يُهملهم[٢]، ﴿يؤخِّرُهم إلى أجلٍ مسمًّى فإذا جاء أجلُهم فإنَّ اللّه كانَ بعبادِهِ بصيراً﴾: فيجازيهم بحسبِ ما عَلِمَهُ منهم من خيرٍ وشرٍّ.

تم تفسير سورة فاطر. والحمد للّه رب العالمين.

❁ ❁ ❁

تفسير سورة يس

[وهي] مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ
ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ
فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا
مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ
أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ
بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ وَكُلَّ شَىْءٍ
أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾.

﴿٢﴾ هٰذا قسمٌ من اللّه تعالى بالقرآن الحكيم الذي وَصْفُهُ الحكمةُ، وهي وضعُ

(١) في (ب): «وعمروها أكثر مما عمروها». (٢) في (ب): «يمهلهم».

كلِّ شيءٍ موضعَه: وضعُ الأمر والنهي في المحلِّ[1] اللائق بهما، ووضع الجزاء بالخير والشرِّ في محلِّهما اللائق بهما؛ فأحكامُهُ الشرعيَّةُ والجزائيةُ كلُّها مشتملةٌ على غاية الحكمة. ومن حكمة هٰذا القرآن أنه يجمع بين ذِكْر الحُكْم وحِكْمته، فينبِّه العقول على المناسبات والأوصاف المقتضية لترتيب الحكم عليها.

﴿٣﴾ ﴿إنَّك لَمِنَ المرسلينَ﴾: هٰذا المقسَم عليه، وهو رسالةُ محمد ﷺ، وأنَّك يا محمد من جملة المرسلين، فلست ببدع من الرسل. وأيضاً؛ فجئت بما جاء به الرسل من الأصول الدينيَّة. وأيضاً؛ فمن تأمل أحوال[2] المرسلين وأوصافهم وعرف الفرق بينهم وبين غيرهم؛ عرف أنَّك من خيار المرسلين بما فيك من الصفات الكاملة والأخلاق الفاضلة. ولا يخفى ما بين المقسَم به وهو القرآنُ الحكيم وبين المقسَم عليه وهو رسالةُ الرسول محمدٍ ﷺ من الاتصال، وأنَّه لو لم يكن لرسالتِهِ دليلٌ ولا شاهدٌ إلَّا هٰذا القرآن الحكيم؛ لكفى به دليلاً وشاهداً على رسالة محمد [ﷺ]، بل القرآنُ العظيم أقوى الأدلةِ المتصلةِ المستمرةِ على رسالة الرسول، فأدلةُ القرآن كلُّها أدلةٌ لرسالة محمد ﷺ.

﴿٤﴾ ثم أخبر بأعظم أوصاف الرسول ﷺ، الدالَّة على رسالته، وهو أنَّه ﴿على صراطٍ مستقيم﴾: معتدل، موصل إلى الله وإلى دار كرامته، وذٰلك الصراط المستقيم مشتملٌ على أعمال، وهي الأعمال الصالحة المصلحة للقلب والبدن والدنيا والآخرة، والأخلاق الفاضلة المزكِّية للنفس المطهِّرة للقلب المنمِّية للأجر، فهٰذا الصراط المستقيم الذي هو وصفُ الرسول ﷺ ووصفُ دينه الذي جاء به.

فتأمَّلْ جلالةَ هٰذا القرآن الكريم؛ كيف جَمَعَ بين القَسَم بأشرف الأقسام على أجلِّ مُقْسَم عليه، وخبرُ الله وحدَه كافٍ، ولٰكنَّه تعالى أقام من الأدلَّة الواضحة والبراهين الساطعةِ في هٰذا الموضع على صحَّة ما أقسم عليه من رسالة رسولِهِ ما نبَّهنا عليه وأشرنا إشارةً لطيفة لسلوك طريقه.

﴿٥﴾ وهٰذا الصراط المستقيم ﴿تنزيلَ العزيزِ الرَّحيم﴾؛ فهو الذي أنزلَ به كتابَه وأنزلَه طريقاً لعبادِهِ موصلاً لهم إليه، فحماه بعزَّته عن التغيير والتبديل، ورَحِمَ به عبادَه رحمةً اتَّصلتْ بهم حتى أوصلتْهم إلى دار رحمته، ولهٰذا ختم الآية بهٰذين الاسمين الكريمين العزيز الرحيم.

---

(١) في (ب): «الموضع». (٢) في (ب): «أصول».

﴿٦﴾ فلما أقسم تعالى على رسالته، وأقام الأدلَّة عليها؛ ذَكَرَ شدَّةَ الحاجة إليها واقتضاءَ الضَّرورة لها، فقال: ﴿لِتُنذِرَ قوماً ما أُنذِرَ آباؤهم فهم غافلونَ﴾: وهم العربُ الأميُّون، الذين لم يزالوا خالين من الكتب، عادمين الرسل، قد عَمَّتْهُمُ الجهالة وغمرتْهُمُ الضلالة، وأضحكوا عليهم وعلى سَفَهِهِم عقولَ العالمينَ، فأرسل اللّه إليهم رسولاً من أنفسهم يزكِّيهم، ويعلِّمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لَفي ضلال مُبين، فينذرُ العربَ الأميِّين ومَنْ لَحِقَ بهم من كلِّ أميٍّ، ويذكِّرُ أهل الكتب بما عندهم من الكتبِ؛ فنعمةُ اللّه به على العرب خصوصاً وعلى غيرِهم عموماً.

﴿٧﴾ ولٰكن هٰؤلاء الذين بُعِثْتَ [فيهم] لإنذارِهم بعدما أنذَرْتَهم انقسموا **قسمين**: قسمٌ ردَّ لما جئتَ به ولم يَقْبَلِ النِّذارة، وهم الذين قال اللّه فيهم: ﴿لقد حَقَّ القولُ على أكثرِهم فهم لا يؤمنونَ﴾؛ أي: نفذ فيهم القضاءُ والمشيئةُ أنَّهم لا يزالون في كفرهم وشِرْكِهم، وإنَّما حقَّ عليهم القولُ بعد أن عُرِضَ عليهم الحقُّ فرفَضوه؛ فحينئذٍ عوقبوا بالطبع على قلوبهم.

﴿٨﴾ وذَكَرَ الموانعَ من وصول الإيمان لقلوبهم، فقال: ﴿إنَّا جَعَلْنا في أعناقِهِم أغلالاً﴾: وهي جمع غِلٍّ، والغلُّ ما يُغَلُّ به العُنُق؛ فهو للعنق بمنزلةِ القيد للرِّجْل. وهٰذه الأغلالُ التي في [الأذقان][1] عظيمةٌ قد وصَلَتْ ﴿إلى﴾: أذقانهم، ورفعت رؤوسهم إلى فوق. ﴿فهم مُقْمَحُونَ﴾؛ أي: رافعوا رؤوسهم من شدَّةِ الغلِّ الذي في أعناقهم؛ فلا يستطيعون أن يَخْفِضوها.

﴿٩﴾ ﴿وجَعَلْنا مِن بينِ أيديهم سَدًّا ومن خَلْفِهِم سَدًّا﴾؛ أي: حاجزاً يحجُزُهم عن الإيمان؛ ﴿فهم لا يُبْصِرونَ﴾: قد غمرهم الجهلُ والشقاءُ من جميع جوانبهم، فلم تُفِدْ فيهم النِّذارةُ.

﴿١٠﴾ ﴿وسواءٌ عليهم أأنذَرْتَهم أم لم تُنذِرْهُم لا يؤمنونَ﴾: وكيف يؤمِنُ من طبع على قلبه ورأى الحقَّ باطلاً والباطل حَقًّا؟!

﴿١١﴾ **والقسم الثاني** الذين قَبِلوا النِّذارَةَ وقد ذَكَرَهُم بقوله: ﴿إنَّما تُنذِرُ﴾؛ أي: إنَّما تنفعُ نِذارَتُك ويَتَّعِظُ بنُصْحِكَ ﴿مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾؛ أي: من قصْدُهُ اتِّباع الحقِّ وما ذُكِّر به، ﴿وخَشِيَ الرحمٰنَ بالغيبِ﴾؛ أي: مَنِ اتَّصف بهٰذين الأمرين: القصد

(١) كذا في (أ) و (ب)، وقد صوبت في (أ) بخط مغاير «الأعناق».

الحسن في طلب الحقِّ، وخشية اللَّه تعالى؛ فهم الذين ينتفعونَ برسالتِك ويَزْكُون بتعليمِكَ، وهذا الذي وُفِّقَ لهٰذين الأمرين، بشِّره ﴿بمغفرةٍ﴾: لذُنوبه ﴿وأجرٍ كريمٍ﴾: لأعماله الصالحة ونيَّتِهِ الحسنةِ.

﴿١٢﴾ ﴿إنَّا نحنُ نُحْيي الموتى﴾؛ أي: نبعثُهم بعد موتِهِم لِنُجازِيَهم على الأعمال، ﴿ونَكْتُبُ ما قَدَّموا﴾: من الخير والشرِّ، وهو أعمالُهم التي عملوها وباشَروها في حال حياتِهِم، ﴿وآثارَهُم﴾: وهي آثار الخير وآثارُ الشرِّ التي كانوا هم السببَ في إيجادها في حال حياتِهِم وبعدَ وفاتِهِم، وتلك الأعمال التي نشأت من أقوالِهِم وأفعالِهِم وأحوالِهِم؛ فكلُّ خيرٍ عمل به أحدٌ من الناس بسبب علم العبد وتعليمِهِ أو نُصحه أو أمرِهِ بالمعروف أو نهيِهِ عن المنكر أو علم أَوْدَعَه عند المتعلِّمين أو في كتبٍ يُنْتَفَع بها في حياتِهِ وبعدَ موتِهِ أو عمل خيراً من صلاةٍ أو زكاةٍ أو صدقةٍ أو إحسانٍ فاقتدى به غيرُه، أو عمل مسجداً أو محلاً من المحالِّ التي يرتَفِقُ بها الناسُ وما أشبهَ ذٰلك؛ فإنَّها من آثارِهِ التي تُكْتَبُ له، وكذٰلك عمل الشرِّ، ولهٰذا: «من سنَّ سنَّةً حسنةً؛ فله أجْرُها وأجْرُ من عَمِلَ بها إلى يوم القيامةِ، ومن سنَّ سنَّة سيئة، فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة»[١].

وهٰذا الموضع يبيِّنُ لك علوَّ مرتبة الدَّعوة إلى اللَّه والهداية إلى سبيله بكلِّ وسيلةٍ وطريق موصل إلى ذٰلك، ونزول درجة الداعي إلى الشرِّ الإمام فيه، وأنَّه أسفل الخليقة وأشدُّهم جرماً وأعظمُهم إثماً، ﴿وكلَّ شيءٍ﴾: من الأعمال والنيَّاتِ وغيرها ﴿أحصَيْناه في إمامٍ مُبينٍ﴾؛ أي: كتاب هو أمُّ الكتب، وإليه مرجِعُ الكُتُب التي تكون بأيدي الملائكة، وهو اللوحُ المحفوظُ.

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ[٢] ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا
فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن
شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ
ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾
قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ

---

(١) كما في «صحيح مسلم» برقم: (١٠١٧) عن جرير بن عبدالله.

(٢) في النسختين: إلى آخر القصة.

قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ
أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ
عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ
فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ
ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن
كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا
كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾
وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿١٣﴾ أي: واضرِبْ لهٰؤلاء المكذِّبين برسالتك الرادِّين لدعوتِكَ مثلاً يعتبرونَ به ويكون لهم موعظةً إن وُفِّقوا للخيرِ، وذٰلك المثلُ أصحابُ القريةِ وما جرى منهم من التَّكذيب لرسل اللّه وما جرى عليهم من عقوبتِهِ ونكاله، وتعيينُ تلك القريةِ لو كان فيه[1] فائدةٌ؛ لعيَّنَها اللّه، فالتعرُّض لذٰلك وما أشبهه من باب التكلُّف والتكلُّم بلا علم، ولهٰذا إذا تكلَّم أحدٌ في مثل هٰذه الأمور؛ تجدُ عنده من الخَبْطِ والخَلْطِ والاختلاف الذي لا يستقرُّ له قرارٌ ما تعرِفُ به أنَّ طريقَ العلم الصحيح الوقوفُ مع الحقائق وتَرْكُ التعرُّض لما لا فائدة فيه، وبذٰلك تزكو النفسُ ويزيدُ العلمُ من حيث يظنُّ الجاهل أنَّ زيادتَه بذكر الأقوال التي لا دليلَ عليها ولا حُجَّةَ عليها ولا يَحْصُلُ منها من الفائدة إلَّا تشويشُ الذهن واعتيادُ الأمور المشكوكِ فيها. والشاهدُ أنَّ هٰذه القريةَ جَعَلَها اللّه مثلاً للمخاطَبين. ﴿إذ جاءها المُرْسَلونَ﴾: من اللّه تعالى؛ يأمُرونَهم بعبادةِ اللّه وحدَه وإخلاصِ الدين له، ويَنْهَوْنَهم عن الشرك والمعاصي.

﴿١٤﴾ ﴿إذ أرسَلْنا إليهم اثْنَينِ فكذَّبوهما فَعَزَّزْنا بثالثٍ﴾؛ أي: قوَّيْناهما بثالثٍ، فصاروا ثلاثةَ رسل؛ اعتناءً من اللّه بهم، وإقامةً للحجَّة بتوالي الرسل إليهم، ﴿فقالوا﴾ لهم: ﴿إنَّا إليكم مُرْسَلونَ﴾.

﴿١٥﴾ فأجابوهم بالجوابِ الذي ما زال مشهوراً عند من ردَّ دعوةَ الرُّسل، فقالوا: ﴿ما أنتم إلَّا بشرٌ مثلُنا﴾؛ أي: فما الذي فضَّلَكم علينا وخصَّكم من دوننا؟!

---

(١) في (ب): «فيها».

قالت الرسل لأممهم: إن نحنُ إلَّا بشرٌ مثلُكم، ولكن [اللّٰه] يمنُّ على من يشاءُ من عبادِهِ، ﴿وما أنزل الرحمٰنُ من شيءٍ﴾؛ أي: أنكروا عمومَ الرسالةِ، ثم أنكروا أيضاً المخاطبين لهم، فقالوا: ﴿إنْ أنتم إلَّا تكذِبونَ﴾.

﴿١٦﴾ فقالت هٰؤلاء الرسل الثلاثة: ﴿ربُّنا يعلم إنَّا إليكم لَمُرْسَلونَ﴾: فلو كنَّا كاذبينَ؛ لأظهر[1] اللّٰهُ خِزْيَنا ولبادَرَنا بالعقوبة.

﴿١٧﴾ ﴿وما علينا إلَّا البلاغُ المُبينُ﴾؛ أي: البلاغ المبينُ الذي يحصُلُ به توضيحُ الأمور المطلوب بيانها، وما عدا هٰذا من آيات الاقتراح أو[2] من سرعةِ العذاب؛ فليس إلينا، وإنَّما وظيفتُنا التي هي البلاغُ المبينُ قُمْنا بها وبيَّنَّاها لكم؛ فإنِ اهْتَدَيْتُم؛ فهو حظُّكم وتوفيقُكم، وإن ضَلَلْتُم؛ فليس لنا من الأمر شيءٌ.

﴿١٨﴾ فقال أصحاب القرية لرُسُلِهِم: ﴿إنَّا تَطَيَّرْنا بكُم﴾؛ أي: لم نر على قدومكم علينا واتِّصالكم بنا إلَّا الشرَّ، وهٰذا من أعجب العجائب؛ أن يُجْعَلَ من قَدِمَ عليهم بأجَلِّ نعمةٍ يُنعِمُ اللّٰهُ بها على العبادِ وأجلِّ كرامةٍ يكرِمُهم بها، وضرورتهم إليها فوق كلِّ ضرورةٍ، قد قدم بحالة شَرٍّ زادت على الشرِّ الذي هم عليه واستشأموا بها، ولٰكنَّ الخِذْلانَ وعدمَ التوفيق يَصْنَعُ بصاحبِهِ أعظمَ مما[3] يَصْنَعُ به عدوُّه، ثم توعَّدوهم فقالوا: ﴿لَئِن لم تنتَهوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾؛ أي: لَنَقْتُلَنَّكم رجماً بالحجارةِ أشنع القتلات، ﴿ولَيَمَسَّنَّكُم مِنَّا عذابٌ أليمٌ﴾.

﴿١٩﴾ فقالت لهم رسلهم: ﴿طائِرُكم معكم﴾: وهو ما معهم من الشركِ والشرِّ المقتضي لوقوع المكروه والنقمةِ وارتفاع المحبوبِ والنعمةِ. ﴿أإن ذُكِّرْتُم﴾؛ أي: بسبب أنَّا ذكَّرْناكم ما فيه صلاحُكُم وحظُّكم قلتُم لنا ما قلتُم، ﴿بل أنتم قومٌ مسرِفونَ﴾: متجاوِزونَ للحدِّ مُتَجَرْهِمونَ في قولِكم. فلم يزِدْهم دعاؤُهم إلَّا نفوراً واستكباراً.

﴿٢٠﴾ ﴿وجاء من أقصى المدينةِ رجلٌ يسعى﴾: حرصاً على نُصْح قومِهِ حين سمعَ ما دَعَتْ إليه الرسل وآمنَ به وعلم ما ردَّ به قومُه عليهم، فقال لهم: ﴿يا قوم اتَّبِعوا المرسلينَ﴾: فأمَرَهم باتِّباعهم، ونَصَحَهم على ذٰلك، وشهد لهم بالرسالة.

﴿٢١﴾ ثم ذكر تأييداً لما شهد به ودعا إليه، فقال: ﴿اتَّبِعوا مَن لا يَسْأَلُكم

---

(١) في (ب): «لظهر».
(٢) في (ب): «و».
(٣) في (ب): «ما».

أجراً﴾؛ أي: اتَّبِعوا مَنْ نَصَحَكُم نُصْحاً يعودُ إليكم بالخير، وليس يريدُ منكم أموالَكُم ولا أجراً على نصحِهِ لكم وإرشادِهِ؛ فهٰذا موجبٌ لاتِّباع مَنْ هٰذا وصفُهُ. بقي أن يُقالَ: فلعلَّه يَدْعو ولا يأخُذُ أجرةً ولٰكنَّه ليس على الحقِّ، فدَفَعَ هٰذا الاحتراز بقوله: ﴿وهم مهتدونَ﴾: لأنهم لا يَدْعون إلَّا لما يَشْهَدُ العقلُ الصحيح بحُسْنِهِ، ولا يَنْهَوْنَ إلَّا بما يشهدُ العقلُ الصحيح بقُبْحِهِ.

﴿٢٢ ـ ٢٥﴾ فكأنَّ قومَه لم يَقْبَلوا نُصْحَهُ، بل عادوا لائمين له على اتِّباع الرسل وإخلاص الدين للّه وحده، فقال: ﴿وما لي لا أعبُدُ الذي فَطَرَني وإليه تُرْجَعونَ﴾؛ أي: وما المانعُ لي من عبادةِ مَنْ هو المستحقُّ للعبادة؛ لأنَّه الذي فَطَرني وخَلَقَني ورَزَقَني وإليه مآل جميع الخلق فيجازيهم بأعمالهم؛ فالذي بيدِهِ الخَلْقُ والرزقُ والحكمُ بين العباد في الدُّنيا والآخرة هو الذي يَسْتَحِقُّ أن يُعْبَدَ ويُثْنى عليه ويُمَجَّدَ دون مَنْ لا يملِكُ نفعاً ولا ضرًّا ولا عطاءً ولا منعاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، ولهٰذا قال: ﴿أأتَّخِذُ من دونِهِ آلهةً إن يُرِدْنِ الرحمٰنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عنِّي شفاعَتُهُم شيئاً﴾: لأنَّه لا أحدَ يشفع عند اللّه إلَّا بإذنِهِ؛ فلا تُغْني شفاعتُهم عني شيئاً ﴿ولا هم يُنقِذونِ﴾: من الضُّرِّ الذي أرادَه اللّهُ بي. ﴿إنِّي إذاً﴾؛ أي: إن عبدتُ آلهةً هٰذا وصفُها ﴿لَفي ضلال مُبينٍ﴾: فجمع في هٰذا الكلام بين نُصحهم، والشهادةِ للرسُل بالرسالةِ والاهتداءِ، والإخبار بتعيُّن[1] عبادة اللّه وحدَه، وذكر الأدلَّة عليها، وأنَّ عبادة غيرِهِ باطلةٌ، وذَكَرَ البراهينَ عليها والأخبارَ بضلال مَنْ عَبَدَها، والإعلان بإيمانِهِ جَهْراً مع خوفِهِ الشديد من قتلهم، فقال: ﴿إنِّي آمنتُ بربِّكُم فاسمعونِ﴾.

﴿٢٦ ـ ٢٧﴾ فقتله قومُه لمَّا سَمِعوا منه وراجَعَهم بما راجَعَهم به. ﴿قيل﴾: له في الحال: ﴿ادْخُلِ الجَنَّةَ﴾. فقال مخبراً بما وصل إليه من الكرامة على توحيدِهِ وإخلاصِهِ وناصحاً لقومه بعدَ وفاتِهِ كما نَصَحَ لهم في حياته: ﴿يا لَيتَ قَومِي يَعلمُونَ. بمَا غَفَر لي ربِّي﴾؛ أي: بأي شيءٍ غفر لي فأزال عني أنواع العقوبات، ﴿وجَعَلَني من المُكْرَمينَ﴾: بأنواع المَثوبات والمسرَّات؛ أي: لو وَصَلَ علمُ ذٰلك إلى قلوبهم؛ لم يقيموا على شركهم.

﴿٢٨﴾ قال اللّه في عقوبة قومه: ﴿وما أنزَلْنا على قومِهِ من بعدِهِ من جندٍ من السماءِ﴾؛ أي: ما احْتَجْنا أن نتكلَّفَ في عقوبتهم فننزلَ جنداً من السماء لإتلافِهِم.

---

(١) في (ب): «بتعيين».

﴿وما كُنَّا منزِلينَ﴾: لعدم الحاجةِ إلى ذٰلك، وعظمة اقتدارِ اللّٰه تعالى، وشدَّةِ ضعفِ بني آدم، وأنَّهم أدنى شيء يصيبهم من عذاب اللّٰه يكفيهم.

﴿٢٩﴾ ﴿إن كانتْ﴾؛ أي: ما كانت عقوبتُهم ﴿إلَّا صيحةً واحدةً﴾؛ أي: صوتاً واحداً تكلَّم به بعضُ ملائكة اللّٰه؛ ﴿فإذا هم خامدونَ﴾: قد تقطَّعتْ قلوبُهم في أجوافهم وانْزَعَجوا لتلك الصيحةِ فأصبحوا خامدينَ لا صوتَ ولا حركةَ ولا حياةَ بعد ذٰلك العتوِّ والاستكبار ومقابلة أشرفِ الخَلْقِ بذٰلك الكلام القبيح وتجبُّرهم عليهم.

﴿٣٠﴾ قال الله متوجعاً للعبادِ: ﴿يا حسرةً على العبادِ ما يأتيهم من رسول إلَّا كانوا به يستهزِئونَ﴾؛ أي: ما أعظم شقاءَهم وأطولَ عناءَهم وأشدَّ جهلَهم حيث كانوا بهٰذه الصفةِ القبيحةِ التي هي سببٌ لكلِّ شقاءٍ وعذابٍ ونَكالٍ.

﴿٣١ ـ ٣٢﴾ ﴿ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون. وإن كلٌّ لمَّا جميعٌ لدينا محضرون﴾؛ يقول تعالى: ألم يَرَ هٰؤلاء ويَعْتَبِروا بِمَنْ قبلَهم من القرون المكـذِّبة التي أهْلَكَها الله تعالى وأوقَعَ بها عقابَها، وأنَّ جميعَهم قد بادَ وهَلَكَ فلم يرجِعْ إلى الدُّنيا ولنْ يَرْجِعَ إليها، وسيعيدُ اللّٰه الجميع خلقاً جديداً، ويبعثُهم بعد موتِهِم، ويحضُرونَ بين يديهِ تعالى؛ ليحكمَ بينهم بحكمِهِ العدل الذي لا يظلِمُ مثقالَ ذرَّةٍ وإنْ تَكُ حسنةً يضاعِفْها، ويُؤْتِ من لَدُنْه أجراً عظيماً.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿٣٣﴾ أي: ﴿وآيةٌ لهم﴾: على البعثِ والنُّشور والقيام بين يدي اللّٰه تعالى للجزاء على الأعمال هٰذه ﴿الأرضُ المَيْتَةُ﴾: أنزل اللّٰه عليها المطرَ فأحْياها[1] بعد موتها، ﴿وأخرَجْنا منها حَبًّا فمنه يأكُلونَ﴾: من جميع أصناف الزُّروع ومن جميع أصناف النباتِ التي تأكُلُه أنعامُهم.

---

(١) في (ب): «فأصابها».

﴿٣٤﴾ ﴿وجعلنا فيها﴾؛ أي: في تلك الأرض الميتة ﴿جَنَّاتٍ﴾؛ أي: بساتين فيها أشجارٌ كثيرةٌ، وخصوصاً النخيل والأعناب، اللذان هما أشرف الأشجار، ﴿وفجَّرنا فيها﴾؛ أي: في الأرض ﴿من العيون﴾: جعلنا في الارض تلكَ الأشجارَ والنخيل والأعناب.

﴿٣٥﴾ ﴿ليأكلوا من ثمرِهِ﴾: قوتاً وفاكهةً وأدماً ولذَّةً. ﴿و﴾ الحال أنَّ تلك الثمار ﴿ما﴾ عملتها ﴿أيديهم﴾: وليس لهم فيها صنعٌ ولا عملٌ، إنْ هو إلَّا صنعةُ أحكم الحاكمين وخيرِ الرازقين، وأيضاً؛ فلم تَعْمَلْهُ أيديهم بطبخ ولا غيرِهِ، بل أوجد اللّٰهُ هٰذه الثمارَ غير محتاجةٍ لطَبْخ ولا شيءٍ تؤخَذُ من أشجارِها فتُؤكَلُ في الحال. ﴿أفلا يَشكُرونَ﴾: مَنْ ساقَ لهم هٰذه النعم، وأسبغَ عليهم من جُودِهِ وإحسانِهِ ما به تَصْلُحُ أمورُ دينهم ودُنياهم، أليس الذي أحْيا الأرض بعد موتِها فأنْبَتَ فيها الزُّروعَ والأشجارَ وأوْدَعَ فيها لذيذَ الثمار وأظهر ذٰلك الجنى من تلك الغصونِ وفَجَّرَ الأرضَ اليابسة الميتة بالعُيونِ بقادرٍ على أن يُحْيِيَ الموتى؟ بلى إنَّه على كل شيء قدير.

﴿٣٦﴾ ﴿سبحانَ الذي خَلَقَ الأزواجَ كُلَّها﴾؛ أي: الأصناف كلَّها ﴿مما تُنبِتُ الأرضُ﴾: فَنَوَّعَ فيها من الأصناف ما يعسُرُ تعدادُهُ، ﴿ومن أنفسِهِم﴾: فنوَّعهم إلى ذكرٍ وأنثى، وفاوتَ بين خَلْقِهِم وخُلُقِهِم وأوصافهم الظاهرة والباطنة ﴿وممَّا لا يعلمونَ﴾: من المخلوقات التي قد خُلِقَتْ وغابتْ عن عِلْمِنا، والتي لم تُخْلَقْ بعد؛ فسُبحانه وتعالى أن يكونَ له شريكٌ أو ظهيرٌ أو عوينٌ أو وزيرٌ أو صاحبةٌ أو ولدٌ أو سميٌّ أو شبيهٌ أو مثيلٌ في صفاتِ كماله ونعوتِ جلالِهِ، أو يُعْجِزَه شيءٌ يريدُه.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿٣٧﴾ أي: ﴿وآيةٌ لهم﴾: على نفوذِ مشيئتِهِ وكمال قدرتِهِ وإحيائِهِ الموتى بعد موتهم ﴿الليلُ نسلخُ منه النهارَ﴾؛ أي: نزيل الضياءَ العظيمَ الذي طَبَّقَ الأرضَ فنبدِلُه بالظُّلمة ونُحِلُّها محلَّه؛ ﴿فإذا هم مظلِمون﴾.

﴿٣٨﴾ وكذٰلك نزيلُ هٰذه الظلمةَ التي عَمَّتْهم وشَمِلَتْهم، فنُطْلِعُ[1] الشمسَ،

(١) في (ب): «فتطلع».

فتضيء الأقطار، وينتشر الخلقُ لمعايشهم ومصالحهم، ولهٰذا قال: ﴿والشمسُ تجري لِمُستَقَرٍّ لها﴾؛ أي: دائماً تجري لمستقرٍّ لها، قدَّرها اللّه، لا تتعداه ولا تقصر عنه وليس لها تصرف في نفسها ولا استعصاء على قدرة الله تعالى. ﴿ذٰلك تقدير العزيزِ﴾: الذي بعزَّتِهِ دَبَّرَ هٰذه المخلوقاتِ العظيمةَ بأكمل تدبيرٍ وأحسن نظام. ﴿العليم﴾: الذي بعِلْمِهِ جَعَلَها مصالح لعبادِهِ ومنافعَ في دينِهِم ودُنياهم.

﴿٣٩﴾ ﴿والقمرَ قدَّرْناه منازلَ﴾: ينزِلُها[1]، كلَّ ليلةٍ ينزِلُ منها واحدةً، ﴿حتى﴾: يصغُرَ جدًّا فيعود ﴿كالعُرجونِ القديم﴾؛ أي: عُرجون النخلةِ الذي من قدمه نَشَّ وصَغُر حجمُهُ وانحنى، ثم بعد ذٰلك ما زال يزيدُ شيئاً فشيئاً حتى يتمَّ نورُه، ويَتَّسِقَ ضياؤُه.

﴿٤٠﴾ وكلٌّ من الشمس والقمر والليل والنهار قدَّره اللّه تقديراً لا يتعدَّاه، وكلٌّ له سلطانٌ ووقتٌ، إذا وُجِدَ؛ عُدِمَ الآخرَ، ولهٰذا قال: ﴿لا الشمسُ ينبغي لها أن تُدرِكَ القمرَ﴾؛ أي: في سلطانِهِ الذي هو الليل؛ فلا يمكنُ أن توجدَ الشمسُ في الليل، ﴿ولا الليلُ سابِقُ النهارِ﴾: فيدخُلُ عليه قبل انقضاءِ سلطانِهِ. ﴿وكلٌّ﴾: من الشمس والقمر والنجوم ﴿في فَلَكٍ يَسْبِحونَ﴾؛ أي: يترَدَّدون على الدوام؛ فكلُّ هٰذا دليلٌ ظاهرٌ وبرهانٌ باهرٌ على عظمة الخالقِ وعظمةِ أوصافِهِ، خصوصاً وصفَ القدرةِ والحكمةِ والعلم في هٰذا الموضع.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾
وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا
قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ
رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ
ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ
إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ
تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿٤١﴾ أي: ودليلٌ لهم وبرهانٌ على أنَّ اللّه وحدَه المعبودُ؛ لأنَّه المنعِمُ بالنِّعم

---

(١) في (ب): «ينزل بها».

الصارف للنِّقم الذي من جملةِ نعمه. ﴿أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهم﴾: قال كثيرٌ من المفسِّرين: المرادُ بذٰلك آباؤهم[١].

﴿٤٢﴾ ﴿وخَلَقْنا لهم﴾؛ أي: للموجودين من[٢] بعدِهم ﴿من مثلِهِ﴾؛ أي: من مثل ذٰلك الفلك؛ أي: جنسه ﴿ما يَرْكَبونَ﴾: به. فذكر نعمتَه على الآباء بِحَمْلِهم في السفن؛ لأنَّ النعمة عليهم نعمةٌ على الذُّرِّيَّة.

وهٰذا الموضعُ من أشكلِ المواضع عليَّ في التفسير؛ فإنَّ ما ذَكَرَه كثيرٌ من المفسِّرين من أنَّ المرادَ بالذُّرِّيَّةِ الآباء مما لا يُعْهَدُ في القرآن إطلاقُ الذُّرِّيَّةِ على الآباء، بل فيه[٣] من الإبهام وإخراج الكلام عن موضوعِهِ ما يأباه كلامُ ربِّ العالمين وإرادتُه البيانَ والتوضيحَ لعبادِهِ. وثَمَّ احتمالٌ أحسنُ من هٰذا، وهو أنَّ المرادَ بالذُّرِّيَّةِ الجنسُ، وأنَّهم هم بأنفسهم؛ لأنَّهم هم من ذُرِّيَّةِ بني آدم، ولٰكن يَنْقُضُ هٰذا المعنى قوله: ﴿وخَلَقْنا لهم من مثلِهِ ما يَرْكَبون﴾: إنْ أُريدَ: وخَلَقْنا من مثل ذٰلك الفُلْك؛ أي: لهؤلاء المخاطبين ما يركبونَ من أنواع الفُلْك، فيكونُ ذٰلك تكريراً للمعنى تأباه فصاحةُ القرآن. فإنْ أُريدَ بقوله: ﴿وخَلَقْنا لهم من مثلِهِ ما يركبونَ﴾: الإبل التي هي سُفُن البرِّ؛ استقامَ المعنى واتَّضح؛ إلَّا أنَّه يبقى أيضاً أن يكون الكلامُ فيه تشويشٌ؛ فإنَّه لو أُريد هٰذا المعنى؛ لقال: وآيةٌ لهم أنَّا حَمَلْناهم في الفُلْكِ المَشْحونِ وخَلَقْنا لهم من مثلِهِ ما يركبونَ، فأمَّا أنْ يُقالَ في الأول: حملنا ذريتهم، وفي الثاني: حملناهم؛ فإنَّه لا يظهرُ المعنى إلَّا أنْ يقالَ: الضميرُ عائدٌ إلى الذُّرِّيَّةِ. واللّٰه أعلم بحقيقةِ الحال.

فلمَّا وصلتُ في الكتابة إلى هٰذا الموضع؛ ظهر لي معنى ليس ببعيدٍ من مرادِ اللّٰه تعالى، وذٰلك أنَّ مَنْ عَرَفَ جلالة كتابِ اللّٰه وبيانَه التامَّ من كلِّ وجهٍ للأمور الحاضرة والماضية والمستقبلةِ، وأنَّه يَذْكُرُ من كلِّ معنى أعلاه وأكمل ما يكون من أحوالِهِ، وكانت الفُلْكُ من آياته تعالى ونعمِهِ على عباده من حين أنعم عليهم بتعلُّمها إلى يوم القيامةِ، ولم تزلْ موجودةً في كلِّ زمان إلى زمانِ المواجَهين بالقرآن، فلمَّا خاطبهم اللّٰه تعالى بالقرآن، وذَكَرَ حالةَ الفُلك، وعَلِمَ تعالى أنَّه سيكونُ أعظمُ آياتِ الفلكِ في غير وقتهم وفي غير زمانهم حين يُعَلِّمُهُم صنعةَ الفُلك البحريَّة الشراعيَّة

---

(١) وهو اختيار ابن جرير (٢٠/ ٥٢١)، والبغوي (٦/ ١٩)، وابن كثير (٦/ ٥٦٤).
(٢) في (ب): «في». (٣) في (ب): «فيها».

منها والنّارية والجويَّة السابحة في الجوِّ كالطيور ونحوها والمراكبِ البريَّة ممَّا كانت الآيةُ العظمى فيه لم توجَدُ إلَّا في الذُّرِّيَّةِ؛ نبَّه في الكتاب على أعلى نوع من أنواع آياتها، فقال: ﴿وآيةٌ لهم أنَّا حمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ في الفُلْكِ المشحونِ﴾؛ أي: المملوء ركباناً وأمتعةً، فحملهم اللّه تعالى، ونجَّاهم بالأسباب التي علَّمهم اللّهُ بها من الغرق.

﴿٤٣﴾ ولهٰذا نبَّههم على نعمتِهِ عليهم حيث[1] أنجاهم من الغرقِ مع قدرتِهِ على ذٰلك، فقال: ﴿وإن نشأ نُغْرِقْهم فلا صريخَ لهم﴾؛ أي: لا أحد يصرُخُ لهم فيعاوِنُهم على الشدَّة ولا يزيلُ عنهم المشقَّة، ﴿ولا هم يُنقَذونَ﴾: مما هم فيه.

﴿٤٤﴾ ﴿إلَّا رحمةً مِنَّا ومتاعاً إلى حينٍ﴾: حيث لم نُغْرِقْهم لطفاً بهم وتمتيعاً لهم إلى حينٍ، لعلَّهم يرجِعونَ، أو يستدرِكون ما فَرَطَ منهم.

﴿٤٥﴾ ﴿وإذا قيل لهمُ اتَّقوا ما بَيْنَ أيديكم وما خَلْفَكُم﴾؛ أي: من أحوال البرزخ والقيامةِ وما في الدُّنيا من العقوبات؛ ﴿لعلَّكم تُرْحَمونَ﴾: أعرضوا عن ذٰلك، فلم يرفعوا به رأساً، ولو جاءَتْهم كلُّ آيةٍ.

﴿٤٦﴾ ولهٰذا قال: ﴿وما تأتيهم مِن آيةٍ مِن آياتِ ربِّهم إلَّا كانوا عنها معرضينَ﴾: وفي إضافة الآياتِ إلى ربِّهم دليلٌ على كمالها ووضوحِها؛ لأنَّه ما أبين من آياتِ اللّه ولا أعظم بياناً، وإنَّ من جملة تربيةِ اللّه لعبادِهِ أنْ أوصلَ إليهم الآياتِ التي يستدلُّون بها على ما ينفعُهم في دينهم ودنياهم.

﴿٤٧﴾ ﴿وإذا قيلَ لهم أنفِقوا ممَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ﴾؛ أي: من الرزق الذي مَنَّ به اللّهُ عليكم، ولو شاء لَسَلَبَكُم إيَّاه، ﴿قالَ الذين كَفَروا للذين آمنوا﴾: معارضينَ للحقِّ محتجِّين بالمشيئةِ: ﴿أنُطْعِمُ مَن لو يشاءُ اللّه أطْعَمَهُ إنْ أنتُم﴾: أيها المؤمنون، لفي ﴿ضلالٍ مبينٍ﴾: حيث تأمروننا بذٰلك، وهٰذا مما يدلُّ على جهلهم العظيم أو تجاهُلِهم الوخيم؛ فإنَّ المشيئة ليست حجَّةً لعاصٍ أبداً؛ فإنَّه وإنْ كان ما شاءَ اللّهُ كان، وما لم يشأ لم يكنْ؛ فإنَّه تعالى مَكَّنَ العبادَ وأعطاهم من القوَّةِ ما يقدرون على فعل الأمرِ واجتنابِ النَّهي؛ فإذا تَرَكوا ما أمِروا به؛ كان ذٰلك اختياراً منهم لا جبراً لهم وقهراً.

﴿٤٨ ـ ٤٩﴾ ﴿ويقولون﴾: على وجه التكذيب والاستعجال: ﴿متى هٰذا الوعدُ

---

(١) في (ب): «حين».

إن كُنتُم صادقينَ﴾. قال اللّٰه تعالى: لا يستبعدوا ذٰلك؛ فإنَّه عن قريبٍ، ﴿ما ينظُرونَ إلَّا صَيحَةً واحدةً﴾: وهي نفخةُ الصور. ﴿تأخُذُهم﴾؛ أي: تصيبُهم ﴿وهم يَخِصِّمونَ﴾؛ أي: وهم لاهون عنها، لم تخطُرْ على قلوبِهِم في حال خصومَتِهِم وتشاجُرِهم بينَهم، الذي لا يوجد في الغالب إلَّا وقتَ الغفلة.

﴿٥٠﴾ وإذا أخذتْهم وقتَ غفلَتِهِم؛ فإنَّهم لا يُنظرونَ ولا يُمهلون؛ ﴿فلا يستطيعون توصيةً﴾؛ أي: لا قليلة ولا كثيرة، ﴿ولا إلى أهلِهِم يَرْجِعونَ﴾.

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿٥١﴾ النفخة الأولى هي نفخةُ الفزع والموت. وهٰذه نفخةُ البعثِ والنشور؛ فإذا نُفِخَ في الصور؛ خرجوا ﴿من الأجداث﴾ والقبور ﴿يَنسِلون﴾ إلى ربِّهم؛ أي: يسرعون للحضور بين يديه، لا يتمكَّنونَ من التأنِّي والتأخُّر.

﴿٥٢﴾ وفي تلك الحال يحزنُ المكذِّبون ويُظْهِرونَ الحسرةَ والندم ويقولون: ﴿يا وَيلَنا مَن بَعَثَنا مِن مَرْقَدِنا﴾؛ أي: من رقدتنا في القبور؛ لأنه ورد في بعض الأحاديث أنَّ لأهل القبور رقدةً قبيل النفخ في الصور[1]. فيُجابون ويُقال لهم: ﴿هٰذا ما وَعَدَ الرحمٰنُ وَصَدَقَ المرسلونَ﴾؛ أي: هٰذا الذي وعدكم اللّٰه به ووعدتْكم به الرسلُ، فظهر صدقُهم رأي عينٍ. ولا تَحْسَبْ أنَّ ذكر الرحمٰن في هٰذا الموضع لمجرَّدِ الخبر عن وعدِهِ، وإنَّما ذٰلك للإخبار بأنَّه في ذٰلك اليوم العظيم سَيَرَوْنَ من رحمتِهِ ما لا يخطُرُ على الظُّنون ولا حَسَبَ به الحاسبون؛ كقوله: ﴿المُلْكُ يومئذٍ الحقُّ للرحمٰن﴾، ﴿وخَشَعَتِ الأصواتُ للرحمٰنِ﴾، ونحو ذٰلك مما يَذْكُرُ اسمَه الرحمٰن في هٰذا.

﴿٥٣﴾ ﴿إن كانت﴾: البعثة من القبور ﴿إلَّا صيحةً واحدةً﴾: يَنْفُخُ فيها إسرافيلُ في الصور، فتحيا الأجساد؛ ﴿فإذا هم جميعٌ لَدَينا مُحْضَرونَ﴾: الأولون والآخرون، والإنس والجن؛ ليحاسبوا على أعمالهم.

---

(١) كما في «صحيح البخاري» (٤٨١٤)، و«مسلم» (٢٩٥٥) من حديث أبي هريرة.

﴿٥٤﴾ ﴿فاليومَ لا تُظلَمُ نفسٌ شيئاً﴾: لا يُنقَصُ من حسناتها ولا يُزاد في سيئاتها. ﴿ولا تُجزَوْنَ إلَّا ما كنتُم تعملونَ﴾: من خيرٍ أو شرٍّ؛ فمن وَجَدَ خيراً؛ فليحمد الله، ومن وَجَدَ غير ذٰلك؛ فلا يلومنَّ إلَّا نفسه.

﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿٥٥ ـ ٥٦﴾ لما ذكر تعالى أنَّ كلَّ أحدٍ لا يُجزى[1] إلَّا ما عَمِلَه؛ ذَكَرَ جزاء الفريقينِ، فبدأ بجزاء أهل الجنة، وأخبر أنَّهم في ذٰلك اليوم ﴿في شُغُلٍ فاكهونَ﴾؛ أي: في شُغُل مُفكِّهٍ للنفس مُلِذٍّ لها من كلِّ ما تهواه النفوس وتَلَذُّه العيون ويتمنَّاه المتمنُّون، ومن ذٰلك افتضاض العذارى الجميلات؛ كما قال: ﴿هم وأزواجُهُم﴾: من الحور العين اللَّاتي قد جَمَعْنَ حسنَ الوجوهِ والأبدان وحسنَ الأخلاق ﴿في ظلال على الأرائِكِ﴾؛ أي[2]: السرر المزيَّنة باللباس المزخْرَفِ الحسن ﴿متَّكِئونَ﴾: عليها اتِّكاءً دالاً على كمال الراحة والطمأنينة واللذة.

﴿٥٧﴾ ﴿لهم فيها فاكهةٌ﴾: كثيرة من جميع أنواع الثمارِ اللذيذة؛ من عنب، وتين، ورمان، وغيرها، ﴿ولهم ما يَدَّعونَ﴾؛ أي: يطلبون؛ فمهما طلبوه وتمنَّوْه؛ أدْرَكوه.

﴿٥٨﴾ ولهم أيضاً ﴿سلامٌ﴾ حاصلٌ لهم ﴿من ربٍّ رحيم﴾: ففي هٰذا كلام الربِّ تعالى لأهل الجنةِ وسلامُهُ عليهم، وأكَّده بقولِهِ: ﴿قولاً﴾: وإذا سَلَّم عليهم الربُّ الرحيمُ؛ حَصَلَتْ لهم السلامةُ التامةُ من جميع الوجوه، وحَصَلَتْ لهم التحيةُ التي لا تَحِيَّةَ أعلى منها ولا نعيم مثلها؛ فما ظنُّك بتحيَّة ملك الملوك، الربِّ العظيم، الرءوف الرحيم، لأهل دار كرامته، الذين أحلَّ عليهم رضوانَه؛ فلا يسخط عليهم أبداً؛ فلولا أنَّ الله تعالى قَدَّرَ أنْ لا يموتوا أو تزولَ قلوبُهم عن أماكنها من الفرح والبهجة والسرور؛ لحصل ذٰلك، فنرجو ربَّنا أن لا يَحْرِمَنا ذٰلك النعيم، وأن يُمَتِّعَنا بالنظر إلى وجهه الكريم.

﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا

(١) في (ب): «لا يجازي».
(٢) في (ب): «أي على».

كَثِيرًاۖ أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ
تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ
﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ
لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

﴿٥٩﴾ لمَّا ذَكَرَ تعالى جزاء المتَّقين؛ ذَكَرَ جزاء المجرمين، ﴿و﴾ أنَّهم يُقال لهم يوم القيامةِ: ﴿امْتازوا اليومَ أيُّها المجرمونَ﴾؛ أي: تميَّزوا عن المؤمنين، وكونوا على حِدَةٍ؛ ليوبِّخهم ويُقَرِّعهم على رؤوس الأشهادِ قبلَ أن يُدْخِلَهُمُ النار، فيقول لهم:

﴿٦٠﴾ ﴿ألمْ أعْهَدْ إليكُم﴾؛ أي: آمرُكم وأوصيكم على ألسنةِ رُسُلي وأقول لكم: ﴿يا بَني آدمَ أن لا تَعْبُدوا الشيطانَ﴾؛ أي: لا تطيعوه! وهٰذا التوبيخ يدخل فيه التوبيخُ عن جميع أنواع الكفرِ والمعاصي؛ لأنَّها كلها طاعةٌ للشيطان وعبادةٌ له، ﴿إنَّه لكم عدوٌّ مُبينٌ﴾: فحذَّرتكم منه غايةَ التَّحذير، وأنذرتُكم عن طاعتِهِ، وأخبرتُكم بما يدعوكم إليه.

﴿٦١﴾ ﴿و﴾ أمرتُكم: أنْ تعبدوني بامتثال أوامري وترك زَواجِري. ﴿هٰذا﴾؛ أي: عبادتي وطاعتي ومعصية الشيطان ﴿صراطٌ مستقيمٌ﴾: فعُلوم الصراط المستقيم وأعمالُهُ ترجعُ إلى هٰذين الأمرين؛ أي: فلم تَحْفَظوا عهدي ولم تَعْمَلوا بوصِيَّتي، فواليتُم عدوَّكم.

﴿٦٢﴾ فأضلَّ ﴿منكم جِبِلاً كثيراً﴾؛ أي: خلقاً كثيراً. ﴿أفلم تكونوا تعقلونَ﴾؛ أي: أفلا كان لكم عقلٌ يأمُرُكم بموالاة ربِّكم ووليِّكم الحقِّ، ويزجركم عن اتِّخاذ أعدى الأعداءِ لكم وليًّا؟ فلو كان لكم عقلٌ صحيحٌ؛ لما فعلتُم ذٰلك.

﴿٦٣﴾ فإذْ أطعتُم الشيطان، وعاديتُم الرحمٰن، وكذَّبتم بلقائِهِ، ووردتُم القيامةَ دار الجزاء، وحقَّ عليكم القولُ بالعذاب، فَـ﴿هذه جهنَّمُ التي كنتُم توعَدونَ﴾: وتكذِّبون بها؛ فانظروا إليها عياناً! فهناك تنزعِجُ منهم القلوبُ، وتزوغُ الأبصارُ، ويحصُلُ الفزعُ الأكبرُ.

﴿٦٤﴾ ثم يُكْمِلُ ذٰلك بأنْ يُؤْمَرَ بهم إلى النار، ويقالَ لهم: ﴿اصْلَوْها اليوم بما كنتُم تكفُرونَ﴾؛ أي: ادخُلوها على وجه تَصْلاكُم، ويحيطُ بكم حرُّها، ويبلغُ منكم كلَّ مبلغ بسبب كفرِكُم بآيات الله وتكذيبِكُم لرسل الله.

﴿٦٥﴾ قال تعالى في بيان وَصْفِهِم الفظيع في دار الشقاء: ﴿اليوم نَخْتِمُ على أفواهِهِم﴾: بأن نَجْعَلَهم خُرْساً فلا يتكلمون، فلا يقدِرونَ على إنكارِ ما عَمِلوه من الكُفْرِ والتَّكْذيب. ﴿وتُكَلِّمُنا أيْديهم وتَشْهَدُ أرجُلُهم بما كانوا يَكْسِبونَ﴾؛ أي: تشهد عليهم أعضاؤُهم بما عملوه، ويُنْطِقُها الذي أنطقَ كلَّ شيءٍ.

﴿٦٦﴾ ﴿ولو نشاءُ لَطَمَسْنا على أعيُنِهم﴾: بأن نُذْهِبَ أبصارَهم كما طَمَسْنا على نُطْقِهِم؛ ﴿فاسْتَبَقوا الصراطَ﴾؛ أي: فبادروا إليه؛ لأنَّه الطريق إلى الوصول إلى الجنة. ﴿فأنَّى يُبْصِرونَ﴾: وقد طُمِسَتْ أبصارُهم؟!

﴿٦٧﴾ ﴿ولو نشاءُ لَمَسَخْناهم على مَكانَتِهِم﴾؛ أي: لأذْهَبْنا حَرَكَتَهم، ﴿فما استطاعوا مُضِيًّا﴾: إلى الأمام، ﴿ولا يرجِعونَ﴾: إلى ورائِهِم، ليبعدُوا عن النار.

والمعنى: أنَّ هٰؤلاء الكفار حقَّتْ عليهم كلمةُ العذاب، ولم يكن بدٌّ من عقابهم، وفي ذٰلك الموطن ما ثَمَّ إلَّا النار قد بُرِّزَتْ، وليس لأحدٍ نجاةٌ إلا بالعبور على الصراط، وهٰذا لا يستطيعه إلَّا أهلُ الإيمان الذين يمشونَ في نورِهِم، وأمَّا هٰؤلاء؛ فليس لهم عند اللّه عهدٌ في النجاة من النار؛ فإنْ شاء؛ طمس أعْيُنَهم، وأبقى حَرَكَتَهم فلم يَهْتَدوا إلى الصراطِ لو اسْتَبَقوا إليه وبادروه، وإن شاء؛ أذهبَ حِراكهم فلم يَسْتَطيعوا التقدُّم ولا التأخُّر، المقصودُ أنَّهم لا يَعْبُرونه، فلا تحصُلُ لهم النجاةُ.

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿٦٨﴾ يقولُ تعالى: ﴿ومَن نُعَمِّرْهُ﴾: من بني آدم ﴿نُنَكِّسْه في الخَلْقِ﴾؛ أي: يعود إلى الحالة التي ابتدأ منها؛ حالة الضعف؛ ضعف العقل وضعف القوة. ﴿أفلا يعقلونَ﴾: أنَّ الآدميَّ ناقصٌ من كلِّ وجه، فيتداركوا قوتهم وعقولَهم، فيستَعْمِلونها في طاعة ربِّهم؟

﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿٦٩﴾ ينزِّه تعالى نبيَّه محمداً ﷺ عمَّا رماه به المشركون من أنَّه شاعرٌ، وأنَّ الذي جاء به شعرٌ، فقال: ﴿وما علَّمناه الشعرَ وما يَنبَغي له﴾: أن يكون شاعراً؛ أي: هٰذا من جنس المحال أن يكون شاعراً؛ لأنَّه رشيدٌ مهتدٍ، والشعراء غاوون، يتَّبِعُهم الغاوون، ولأنَّ اللّه تعالى حَسَمَ جميع الشُّبه التي يتعلَّق بها الضالُّون عن رسوله، فحسم أن يكون يكتبُ أو يقرأ، وأخبر أنَّه ما علَّمه الشعر وما ينبغي له.

﴿إن هو إلَّا ذِكرٌ وقرآنٌ مبينٌ﴾؛ أي: ما هٰذا الذي جاء به إلَّا ذكرٌ يتذكَّر به أولو الألباب جميع المطالب الدينيَّة؛ فهو مشتملٌ عليها أتمَّ اشتمال، وهو يذكُرُ العقولَ ما رَكَزَ اللّٰهُ في فِطَرِها من الأمر بكلِّ حسنٍ والنهي عن كلِّ قبيح. ﴿وقرآنٌ مُبينٌ﴾؛ أي: مبينٌ لما يُطْلَبُ بيانُه، ولهٰذا حذف المعمولَ؛ ليدلَّ على أنَّه مبينٌ لجميع الحقِّ بأدلَّته التفصيليَّة والإجماليَّة والباطل وأدلَّة بطلانِهِ. أنزله اللّٰه كذٰلك على رسولِهِ.

﴿٧٠﴾ ﴿لِيُنذِرَ مَن كان حَيًّا﴾؛ أي: حيَّ القلب واعِيَه؛ فهو الذي يزكو على هٰذا القرآن، وهو الذي يزداد من العلم منه والعمل، ويكون القرآنُ لقلبِهِ بمنزلة المطرِ للأرض الطيِّبة الزاكية، ﴿ويَحِقَّ القولُ على الكافرينَ﴾: لأنَّهم قامت عليهم به حُجَّةُ اللّٰه وانقطع احتجاجُهم، فلم يبقَ لهم أدنى عذرٍ وشبهةٍ يُدلون بها.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿٧١ ـ ٧٣﴾ يأمُرُ تعالى العباد بالنظر إلى ما سَخَّر لهم من الأنعام وذلَّلها وجَعَلَهم مالكينَ لها مطاوعةً لهم في كلِّ أمرٍ يريدونَه منها، وأنَّه جعل لهم فيها منافعَ كثيرةً من حَمْلِهم وحَمْل أثقالِهم ومحامِلِهم وأمْتِعَتِهم من محلٍّ إلى محلٍّ، ومن أكْلِهِم منها، وفيها دفءٌ، ومن أوبارِها وأصوافها وأشعارِها أثاثاً ومتاعاً إلى حينٍ، وفيها زينةٌ وجمالٌ وغيرُ ذٰلك من المنافع المشاهدة منها. ﴿أفلا يشكرونَ﴾ اللّٰهَ تعالى الذي أنعم بهٰذه النعم، ويخلِصونَ له العبادةَ، ولا يتمتَّعون بها تمتُّعاً خالياً من العبرة والفكرة؟!

﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿٧٤ ـ ٧٥﴾ هٰذا بيانٌ لبطلان آلهة المشركين التي[1] اتَّخذوها مع اللّٰه تعالى ورَجَوْا نَصْرَها وشَفْعَها؛ فإنها في غاية العجز. ﴿لا يَستَطيعون نَصْرَهم﴾: ولا أنفُسَهم يَنْصُرونَ: فإذا كانوا لا يستطيعون نَصْرَهم؛ فكيف يَنْصُرونَهم؟! والنصر له شرطانِ: الاستطاعةُ [والقدرةُ][2]؛ فإذا استطاع: يبقى: هل يُريدُ نصرةَ مِنْ عَبْدِهِ أم

(١) في (ب): «الذين».

(٢) كذا في هامش (أ). ولا توجد في (ب)، ولعل الصواب: «الإرادة».

لا؟ فنفي الاستطاعةِ ينفي الأمرين كليهما. ﴿وهم لهم جُندٌ محضَرون﴾؛ أي: محضَرون هم وهم في العذاب، ومتبرِّئٌ بعضُهم من بعض، أفلا تبرؤوا في الدنيا من عبادة هٰؤلاء وأخلصوا العبادةَ للذي بيدِهِ الملكُ والنفعُ والضرُّ والعطاءُ والمنعُ وهو الوليُّ النصيرُ؟!

﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿٧٦﴾ أي: فلا يَحْزُنْكَ يا أيُّها الرسولُ قول المكذِّبين، والمرادُ بالقول ما دلَّ عليه السياقُ، كلُّ قول يَقْدَحون فيه في الرسول أو فيما جاء به؛ أي: فلا تَشْغَلْ قَلْبَكَ بالحزن عليهم. ﴿إنَّا نعلمُ ما يُسِرُّونَ وما يُعْلِنونَ﴾؛ فنجازِيهم على حسبِ عِلْمِنا بهم، وإلَّا؛ فقولُهم لا يضرُّك شيئاً.

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

هٰذه الآياتُ الكريمات فيها ذِكْرُ شبهةِ منكري البعث والجواب عنها بأتمِّ جوابٍ وأحسنِهِ وأوضحه.

﴿٧٧﴾ فقال تعالى: ﴿أولَم يَرَ الإنسانُ﴾: المنكِرُ للبعث أو[1] الشاكُّ فيه أمراً يفيدُه اليقينَ التامَّ بوقوعه، وهو ابتداءُ خلقِهِ ﴿من نطفةٍ﴾، ثم تنقُّله في الأطوار شيئاً فشيئاً، حتى كبر وشبَّ وتمَّ عقلُه واستتبَّ؛ ﴿فإذا هو خصيمٌ مبينٌ﴾: بعد أنْ كان ابتداءُ خلقِهِ من نطفةٍ؛ فلينظرِ التفاوتَ بين هاتين الحالتين، ولْيعلمْ أنَّ الذي أنشأه من العدم قادرٌ على أن يعيدَه بعدما تفرَّق وتمزَّق من باب أولى.

﴿٧٨﴾ ﴿وضرب لنا مثلاً﴾: لا ينبغي لأحدٍ أن يضربَه، وهو قياسُ قدرةِ الخالق بقدرةِ المخلوق، وأنَّ الأمر المُسْتَبْعَدَ على قدرة المخلوق مُسْتَبْعَدٌ على قدرة

---

(١) في (ب): «و».

الخالق، فَسَّرَ هٰذا المثل بقوله: ﴿قال﴾: ذٰلك الإنسان: ﴿مَن يُحيي العظامَ وهي رميمٌ﴾؛ أي: هل أحدٌ يحييها؟ استفهام إنكارٍ؛ أي: لا أحَدَ يُحييها بعدما بَلِيَتْ وتلاشَتْ. هٰذا وجهُ الشبهة والمثل، وهو أنَّ هٰذا أمرٌ في غاية البعدِ على ما يُعْهَدُ من قدرةِ البشر، وهٰذا القولُ الذي صَدَرَ من هٰذا الإنسان غفلةٌ منه ونسيانٌ لابتداء خلقِهِ؛ فلو فَطِنَ لِخَلْقِهِ بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً، فوُجِد عياناً؛ لم يضرِبْ هٰذا المثل.

﴿٧٩﴾ فأجاب تعالى عن هٰذا الاستبعادِ بجوابٍ شافٍ كافٍ، فقال: ﴿قُلْ يُحْيِيها الذي أنشأها أوَّلَ مَرَّةٍ﴾: وهٰذا بمجرَّدِ تصوُّرِهِ يعلم به علماً يقيناً لا شبهةَ فيه أنَّ الذي أنشأها أوَّلَ مرةٍ قادرٌ على الإعادةِ ثاني مرةٍ، وهو أهونُ على القدرةِ إذا تصوَّره المتصوِّر. ﴿وهو بكلِّ خلقٍ عليمٌ﴾: هٰذا أيضاً دليلٌ ثانٍ من صفاتِ اللّٰه تعالى، وهو أنَّ علمه تعالى محيطٌ بجميع مخلوقاتِهِ في جميع أحوالِها في جميع الأوقات، ويَعْلَمُ ما تَنْقُصُ الأرضُ من أجسادِ الأمواتِ وما يبقى، ويعلمُ الغيبَ والشهادة؛ فإذا أقرَّ العبدُ بهٰذا العلم العظيم؛ علم أنَّه أعظمُ وأجلُّ من إحياء اللّٰه الموتى من قبورِهم.

﴿٨٠﴾ ثم ذَكَرَ دليلاً ثالثاً، فقال: ﴿الذي جَعَلَ لكم من الشَّجَرِ الأخضرِ ناراً فإذا أنتُم منه توقِدونَ﴾: فإذا أخرجَ النار اليابسة من الشجر الأخضرِ الذي هو في غاية الرُّطوبة مع تضادِّهما وشدَّة تخالُفِهما؛ فإخراجُهُ الموتى من قبورِهِم مثلُ ذٰلك.

﴿٨١﴾ ثم ذكر دليلاً رابعاً، فقال: ﴿أوَ لَيسَ الذي خلقَ السمٰواتِ والأرضَ﴾: على سعتهما وعظمهما ﴿بقادرٍ على أن يَخْلُقَ مثلَهم﴾؛ أي: أن يعيدَهم بأعيانهم ﴿بلى﴾: قادرٌ على ذٰلك؛ فإنَّ خَلْقَ السماواتِ والأرض أكبرُ من خَلْقِ الناس. ﴿وهو الخلَّاقُ العليمُ﴾: وهٰذا دليلٌ خامسٌ؛ فإنَّه تعالى الخلاقُ الذي جميع المخلوقات؛ متقدِّمها ومتأخِّرها، صغيرها وكبيرها؛ كلُّها أثرٌ من آثار خلقِهِ وقدرتِهِ، وأنَّه لا يستعصي عليه مخلوقٌ أراد خَلْقَه؛ فإعادتُهُ للأموات فردٌ من أفراد آثارِ خلقِهِ.

﴿٨٢﴾ ولهٰذا قال: ﴿إنَّما أمرُهُ إذا أراد شيئاً﴾: نكرةٌ في سياق الشرط فَتَعُمُّ كلَّ شيءٍ، ﴿أن يقولَ له كُن فيكونُ﴾؛ أي: في الحال من غير تمانع.

﴿٨٣﴾ ﴿فسبحانَ الذي بيدِهِ مَلَكوتُ كُلِّ شيءٍ﴾: وهٰذا دليلٌ سادسٌ؛ فإنَّه تعالى هو الملِكُ المالكُ لكلِّ شيءٍ؛ الذي جميعُ ما سكن في العالم العلويِّ والسفليِّ مُلْكٌ له وعبيدٌ مسخَّرون مدبَّرون، يَتَصَرَّفُ فيهم بأقدارِهِ الحكميَّة وأحكامِهِ الشرعيَّة وأحكامِهِ الجزائيَّة؛ فإعادتُه إيَّاهم بعد موتِهِم لينفذَ فيهم حكم الجزاء من تمام ملكِهِ،

ولهٰذا قال: ﴿وإليه تُرْجَعونَ﴾: من غير امتراءٍ ولا شكٍّ؛ لتواتُرِ البراهين القاطعةِ والأدلَّةِ الساطعةِ على ذٰلك. فتبارك الذي جَعَلَ في كلامِهِ الهدى والشفاء والنور.

تم تفسير سورة يسٓ.

فلله تعالى الحمدُ كما ينبغي لجلاله، وله الثناء كما يليق بكماله، وله المجد كما تستدعيه عظمته وكبرياؤه، وصلى اللّٰه على محمد وسلم.

❁ ❁ ❁

تفسير سورة الصافات

[وهي] مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ۝٥ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ ۝١١﴾.

﴿١ ـ ٤﴾ هٰذا قسمٌ منه تعالى بالملائكة الكرام في حال عباداتها وتدبيرها ما[١] تُدَبِّرُهُ بإذن ربِّها على ألوهيَّتِهِ تعالى وربوبيَّته، فقال: ﴿والصّافاتِ صَفًّا﴾؛ أي: صفوفاً في خدمة ربِّهم، وهم الملائكة، ﴿فالزاجراتِ زَجْراً﴾: وهم الملائكة يَزْجُرونَ السحابَ وغيرَه بأمر اللّٰه، ﴿فالتّالياتِ ذِكْراً﴾: وهم الملائكة الذين يَتْلون كلامَ اللّٰه تعالى، فلمّا كانوا متألِّهين[٢] لربِّهم ومتعبِّدين في خدمتِهِ ولا يعصونَه طرفةَ عينٍ؛ أقسم بهم على ألوهيَّتِهِ، فقال: ﴿إنَّ إلٰهكم لَواحدٌ﴾: ليس له شريكٌ في الإلٰهيَّة؛ فأخلِصوا له الحبَّ والخوفَ والرجاءَ وسائرَ أنواع العبادة.

﴿٥﴾ ﴿ربُّ السمٰواتِ والأرضِ وما بينَهما وربُّ المشارقِ﴾؛ أي: هو الخالق لهٰذه المخلوقات، الرازقُ[٣] لها، المدبِّرُ لها؛ فكما أنَّه لا شريك له في ربوبيَّتِهِ

---

(١) في (ب): «في ما».
(٢) في (ب): «متأهلين».
(٣) في (ب): «والرازق».

إيَّاها؛ فكذٰلك لا شريك له في ألوهيَّتِهِ. وكثيراً ما يقرِّرُ تعالى توحيد الإلٰهيَّةِ بتوحيد الربوبيَّةِ؛ لأنَّه دالٌّ عليه. وقد أقرَّ به أيضاً المشركون في العبادة، فيلزمُهم بما[1] أقرُّوا به على ما أنكروه. وخصَّ اللّه المشارقَ بالذِّكْر؛ لدلالتها على المغارب، أو لأنَّها مشارقُ النجوم التي سيذكرها. فلهٰذا قال:

﴿٦ ـ ٩﴾ ﴿إنَّا زَيَّنَّا السماءَ الدُّنيا بزينةٍ الكواكِبِ. وحفظاً من كلِّ شيطانٍ ماردٍ. لا يَسَّمَّعونَ إلى الملأ الأعلى﴾: ذكر اللّه في الكواكب هاتين الفائدتين العظيمتين: **إحداهما**: كونُها زينةً للسماء؛ إذ لولاها؛ لكانتِ السماء جرماً مظلماً لا ضوء فيه[2]، ولكن زيَّنها فيها؛ لتستنيرَ[3] أرجاؤها وتَحْسُنَ صورتُها، ويُهْتَدى بها في ظُلُمات البرِّ والبحر، ويحصُلَ فيها من المصالح ما يحصُلُ. **والثانية**: حراسةُ السماء عن كلِّ شيطانٍ ماردٍ يصل بتمرُّدِهِ إلى استماع الملأ الأعلى، وهم الملائكة؛ إذا استمعت قذفتها بالشهب الثواقب ﴿من كلِّ جانبٍ﴾: طَرْداً لهم وإبعاداً عن استماع ما يقولُ الملأُ الأعلى. ﴿ولهم عذابٌ واصِبٌ﴾؛ أي: دائمٌ معدٌّ لهم لتمرُّدهم عن طاعةِ ربِّهم.

﴿١٠﴾ ولولا أنه تعالى استثنى؛ لكان ذٰلك دليلاً على أنَّهم لا يستمعون شيئاً أصلاً، ولٰكن قال: ﴿إلَّا مَنْ خَطِفَ الخَطْفَةَ﴾؛ أي: إلَّا مَنْ تَلَقَّفَ من الشياطين المَرَدَةِ الكلمةَ الواحدةَ على وجه الخفيةِ والسرقةِ، ﴿فأتْبَعَهُ شهابٌ ثاقبٌ﴾: تارة يدرِكُه قبل أن يوصِلَها إلى أوليائِهِ فينقطع خبرُ السماء، وتارةً يُخْبِرُ بها قبل أن يدرِكَه الشهابُ، فيكذِبون معها مائةَ كذبةٍ، يروِّجونها بسبب الكلمةِ التي سُمِعَتْ من السماء.

﴿١١﴾ ولَمَّا بيَّن هٰذه المخلوقاتِ العظيمةَ؛ قال: ﴿فاسْتَفْتِهِم﴾؛ أي: اسأل منكري خَلْقِهِم بعد موتِهِم: ﴿أهم أشدُّ خَلْقاً﴾؛ أي: إيجادُهم بعد موتهم أشدُّ خَلْقاً وأشقُّ. ﴿أم مَنْ خَلَقْنا﴾: من هٰذه المخلوقات؛ فلا بدَّ أن يُقِرُّوا أنَّ خَلْقَ السماواتِ والأرض أكبرُ من خَلْق الناس، فيلزمهم إذاً الإقرار بالبعثِ، بل لو رَجَعوا إلى أنفسهم وفكَّروا فيها؛ لعلموا أنَّ ابتداء خَلْقِهِم من طينٍ لازبٍ أصعب عند الفكر من إنشائهم بعد موتهم، ولهٰذا قال: ﴿إنَّا خَلَقناهُم من طِينٍ لازِبٍ﴾؛ أي: قويٍّ شديدٍ؛ كقوله تعالى: ﴿ولقد خَلَقْنا الإنسانَ من صَلْصال من حَمَأٍ مسنونٍ﴾.

---

(١) في (ب): «ما». (٢) في (ب): «فيها».

(٣) في (ب): «ليستنير».

﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿١٢﴾ ﴿بل عجبتَ﴾: أيُّها[1] الرسولُ أو أيُّها الإنسانُ من تكذيب مَنْ كَذَّبَ بالبعث بعد أن أرَيْتَهم من الآيات العظيمةِ والأدلَّة المستقيمةِ، وهو حقيقةٌ محلُّ عجبٍ واستغرابٍ؛ لأنَّه مما لا يَقْبَلُ الإنكارَ. ﴿و﴾ أعجبُ من إنكارِهم وأبلغُ منه أنَّهم ﴿يسخَرون﴾: ممَّنْ جاء بالخبر عن البعثِ، فلم يَكْفِهِم مجردُ الإنكار، حتى زادوا السخريةَ بالقول الحقِّ.

﴿١٣﴾ ﴿و﴾ من العجب أيضاً أنَّهم ﴿إذا ذُكِّروا﴾: ما يعرفون في فِطَرِهِم وعُقولهم وفَطِنوا له ولَفَتَ نَظَرَهم إليه ﴿لا يَذْكرونَ﴾: ذٰلك؛ فإنْ كان جهلاً؛ فهو من أدلِّ الدلائل على شِدَّةِ بلادَتِهِم العظيمة؛ حيث ذُكِّروا ما هو مستقرٌّ في الفطر معلومٌ بالعقل لا يقبلُ الإشكالَ، وإن كان تَجاهُلاً وعناداً؛ فهو أعجبُ وأغربُ.

﴿١٤﴾ ومن العَجَبِ أيضاً أنَّهم إذا أُقيمتْ عليهم الأدلَّةُ، وذُكِّروا الآياتِ التي يخضعُ لها فحولُ الرجال وألبابُ الألِبَّاء، يَسْخَرون منها ويَعْجَبونَ.

﴿١٥﴾ ومن العجب أيضاً قولُهُم للحقِّ لما جاءهم: ﴿إنْ هٰذا إلَّا سحرٌ مبينٌ﴾: فجعلوا أعلى الأشياء وأجلَّها ـ وهو الحقُّ ـ في رتبة أخسِّ الأشياء وأحقرِها.

﴿١٦ ـ ١٧﴾ ومن العجب أيضاً قياسُهم قدرةَ ربِّ الأرض والسماواتِ على قدرةِ الآدميِّ الناقص من جميع الوجوه، فقالوا استبعاداً وإنكاراً: ﴿أإذا مِتْنا وكُنَّا تُراباً وعِظاماً أإنَّا لَمَبْعوثونَ. أوَ آباؤنا الأوَّلونَ﴾.

﴿١٨﴾ ولمَّا كانَ هٰذا منتهى ما عندَهم وغايةَ ما لَدَيْهم؛ أمر اللّه رسولَه أن يُجيبَهم بجواب مشتمل على ترهيبِهم[2]، فقال: ﴿قل نعم﴾: ستُبْعَثون أنتم وآباؤكم الأولون، ﴿وأنتم داخِرون﴾: ذَليلون صاغِرون لا تمتَنعون، ولا تَسْتَعْصون على قدرةِ اللّه.

﴿١٩﴾ ﴿فإنَّما هي زجرةٌ واحدةٌ﴾: يَنْفُخُ إسرافيلُ فيها في الصُّورِ. ﴿فإذا هم﴾

---

(١) في (ب): «يا أيها».

(٢) في (ب): «تربيتهم».

مبعوثونَ من قبورهم ﴿يَنظُرونَ﴾: كما ابْتُدِىء خَلْقُهم، بُعِثوا بجميع أجزائِهِم حفاةً عراةً غُرلاً.

﴿٢٠﴾ وفي تلك الحال يُظْهِرون الندمَ والخزيَ والخسارَ، ويَدْعونَ بالويل والثُّبور، ﴿وقالوا يا وَيلَنا هٰذا يومُ الدينِ﴾؛ فقد أقرُّوا بما كانوا في الدنيا به يهزؤون![1]

﴿٢١﴾ فيُقالُ لهم: ﴿هٰذا يومُ الفصلِ﴾: بين العبادِ فيما بينَهم وبين ربِّهم من الحقوق وفيما بينهم وبين غيرِهم من الخلق.

﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿٢٢ ـ ٢٣﴾ أي: إذا حضروا يوم القيامةِ وعاينوا ما به يكذبون ورأوا ما به يستسخرون؛ يُؤْمَرُ بهم إلى النارِ التي بها يكذبون، فيقال: ﴿احشُروا الذين ظلموا﴾: أنفسَهم بالكفرِ والشركِ والمعاصي ﴿وأزواجَهم﴾: الذين من جنس عملهم، كلٌّ يُضَمُّ إلى مَنْ يُجانِسُه في العمل، ﴿وما كانوا يَعْبُدون من دونِ اللهِ﴾: من الأصنام والأندادِ التي زعموها، اجمعوهم جميعاً، واهدوهم ﴿إلى صراطِ الجَحيم﴾؛ أي: سوقوهم سوقاً عنيفاً إلى جهنم.

﴿٢٤﴾ ﴿و﴾ بعدما يتعيَّن أمرُهم إلى النار ويَعْرِفون أنَّهم من أهلِ دار البوار؛ يُقالُ: ﴿قِفوهُم﴾: قبل أن توصِلوهم إلى جهنَّم، ﴿إنَّهم مسؤولونَ﴾: عمَّا كانوا يفترونَه في الدُّنيا؛ ليظهرَ على رؤوس الأشهادِ كَذِبُهم وفضيحتُهم.

﴿٢٥﴾ فيقال لهم: ﴿ما لكم لا تناصرون﴾: أي: ما الذي جرى عليكم اليوم، وما الذي طرقكم، لا ينصر بعضكم بعضاً، ولا يغيث بعضُكم بعضاً، بعدما كنتُم تزعُمون في الدُّنيا أنَّ آلهتكم ستدفعُ عنكم العذابَ وتُغيثكم أو[2] تشفعُ لكم عند اللهِ؟!

﴿٢٦﴾ فكأنهم لا يجيبون هٰذا السؤال؛ لأنَّهم قد علاهم الذُّلُّ والصَّغارُ، واستسلموا لعذابِ النارِ وخَشَعوا وخَضَعوا وأُبلِسوا، فلم يَنْطِقوا، ولهٰذا قال: ﴿بل هُمُ اليومَ مُستَسْلِمونَ﴾.

---

(١) في (ب): «يستهزؤون».

(٢) في (ب): «و».

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَـٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَـٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَـٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿٢٧ ـ ٢٨﴾ لما جُمِعوا هم وأزواجهم وآلهتُهم وهُدوا إلى صراط الجحيم ووُقِفوا فسُئِلوا فلم يُجيبوا؛ أقبلوا فيما بينَهم يلومُ بعضُهم بعضاً على إضلالِهِم وضلالِهِم، فقال الأتباعُ للمتبوعينَ الرؤساء: ﴿إنَّكُم كنتُم تأتونَنا عن اليمينِ﴾؛ أي: بالقوَّة والغلبة فتُضِلُّونا، ولولا أنتم؛ لكُنَّا مؤمنينَ.

﴿٢٩ ـ ٣٢﴾ ﴿قالوا﴾ لهم: ﴿بل لَمْ تكونوا مؤمنينَ﴾؛ أي: ما زلتُم مشركين كما نحنُ مشركونَ؛ فأيُّ شيءٍ فضَّلَكم علينا؟! وأيُّ شيءٍ يوجِبُ لومَنا؟! ﴿و﴾ الحالُ أنَّه ﴿ما كان لنا عليكُم من سلطانٍ﴾؛ أي: قهرٍ لكم على اختيار الكفر، ﴿بل كنتُم قوماً طاغينَ﴾: متجاوزين للحدِّ[1]، ﴿فحقَّ علينا﴾: نحنُ وإيَّاكم ﴿قولُ ربِّنا إنَّا لَذائقونَ﴾: العذاب؛ أي: حقَّ علينا قَدَرُ ربِّنا وقضاؤه أنَّا وإيَّاكم سنذوقُ العذابَ ونشترِكُ في العقاب. ﴿فـ﴾ لذلك ﴿أغْوَيْناكم إنَّا كُنَّا غاوينَ﴾؛ أي: دَعَوْناكم إلى طريقتِنا التي نحنُ عليها، وهي الغوايةُ، فاستَجَبْتُم لنا؛ فلا تلومونا ولوموا أنفسكم.

﴿٣٣ ـ ٣٤﴾ قال تعالى: ﴿فإنَّهم يومئذٍ﴾؛ أي: يوم القيامةِ ﴿في العذاب مشترِكونَ﴾: وإن تفاوتتْ[2] مقاديرُ عذابِهِم بحسب جُرمهم؛ كما اشتركوا في الدُّنيا على الكفر اشتركوا في الآخرة بجزائِهِ، ولهٰذا قال: ﴿إنَّا كذٰلك نفعلُ بالمجرِمين﴾.

﴿٣٥ ـ ٣٦﴾ ثم ذكر أنَّ إجرامَهم قد بَلَغَ الغايةَ وجاوز النهايةَ، فقال: ﴿إنَّهم كانوا إذا قيل لهم لا إلٰه إلَّا اللَّهُ﴾: فدعوا إليها وأمروا بترك إلٰهيَّة ما سواه ﴿يَسْتَكْبِرونَ﴾: عنها وعلى مَنْ جاء بها، ﴿ويقولون﴾ معارضةً لها: ﴿أإنَّا لَتارِكو آلهتِنا﴾: التي لم نزل نعبدُها نحنُ وآباؤنا، لقول ﴿شاعرٍ مجنونٍ﴾؛ يعنون:

---

(١) في (ب): «للحق». (٢) في (ب): «تفاوت».

محمداً ﷺ، فلم يكفهم قبَّحَهُمُ اللّهُ الإعراضُ عنه ولا مجردُ تكذيبِهِ، حتى حكموا عليه بأظلم الأحكام، وجعلوه شاعراً مجنوناً، وهم يعلمون أنَّه لا يعرفُ الشعر والشعراء، ولا وصفُهُ وصفُهم، وأنَّه أعقلُ خَلْقِ اللّه وأعظمُهم رأياً.

﴿٣٧﴾ ولهٰذا قال تعالى ناقضاً لقولهم: ﴿بل جاء﴾: محمدٌ ﴿بالحقِّ﴾؛ أي: مجيئه حقًّا، وما جاء به من الشرع والكتاب حقٌّ، ﴿وصدَّق المرسلينَ﴾؛ أي: ومجيئُهُ صَدَّقَ المرسلين؛ فلولا مجيئُهُ وإرسالُهُ؛ لم يكن الرسل صادقين؛ فهو آيةٌ ومعجزةٌ لكلِّ رسول قبله؛ لأنَّهم أخبروا به وبشَّروا، وأخذ اللّه عليهم العهدَ والميثاق لئن جاءهم ليؤمنُنَّ به ولَيَنْصُرُنَّه، وأخذوا ذٰلك على أممهم، فلما جاء؛ ظهر صِدْقُ الرسل الذين قبله، وتبيَّن كَذِبُ مَنْ خالفهم، فلو قدر عدم مجيئه، وهم قد أَخْبَروا به؛ لكان ذٰلك قادحاً في صدقهم. وصَدَّقَ أيضاً المرسلين؛ بأنْ جاء بما جاؤوا به، ودعا إلى ما دَعَوْا إليه، وآمن بهم، وأخبر بصحة رسالتهم ونبوَّتهم وشرعهم.

﴿٣٨ ـ ٣٩﴾ ولما كان قولُهم السابقُ: ﴿إنَّا لَذائقونَ﴾ قولاً صادراً منهم يحتملُ أنْ يكونَ صدقاً أو[1] غيره؛ أخبر تعالى بالقول الفصل الذي لا يَحْتَمِلُ غيرَ الصدق واليقين، وهو الخبر الصادر منه تعالى، فقال: ﴿إنَّكم لَذائقو العذابِ الأليم﴾؛ أي: المؤلم الموجع، ﴿وما تُجزَوْنَ﴾: في إذاقة العذاب الأليم ﴿إلَّا ما كُنتُم تعملونَ﴾: فلم نَظْلِمْكم، وإنَّما عَدَلْنا فيكم.

ولما كان هٰذا الخطاب لفظه عامًّا، والمرادُ به المشركون؛ استثنى تعالى المؤمنين، فقال:

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٤٠ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ۝٤١ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ۝٤٢ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٤٣ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٤٤ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝٤٥ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ۝٤٦ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ۝٤٧ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ۝٤٨ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ۝٤٩﴾.

﴿٤٠﴾ يقول تعالى: ﴿إلَّا عبادَ اللّه المُخْلَصينَ﴾: فإنَّهم غير ذائقي العذاب الأليم؛ لأنَّهم أخلصوا للّه الأعمال، فأخلصهم واختصَّهم برحمتِهِ وجادَ عليهم بلطفِهِ.

---

(١) في (ب): «و».

﴿٤١ ـ ٤٢﴾ ﴿أولٰئك لهم رزقٌ معلومٌ﴾؛ أي: غير مجهول، وإنَّما هو رزقٌ عظيمٌ جليلٌ لا يُجهلُ أمرُهُ ولا يُبْلَغُ كُنْهُهُ، فسَّره بقوله: ﴿فواكِهُ﴾: من جميع أنواع الفواكه التي تَتَفَكَّه بها النفس للذَّتِها في لونها وطعمها. ﴿وهم مُكْرَمونَ﴾: لا مهانون محتَقَرون، بل معظَّمون مبجَّلون موقَّرون، قد أكرم بعضُهم بعضاً، وأكرمَتْهُمُ الملائكةُ الكرامُ، وصاروا يدخُلون عليهم من كلِّ باب، ويهنِّئونهم ببلوغ أهنأ الثواب، وأكرمَهَم أكرمُ الأكرمين وجادَ عليهم بأنواع الكرامات من نعيم القلوب والأرواح والأبدان.

﴿٤٣﴾ ﴿في جنات النعيم﴾؛ أي: الجنات التي النعيم وَصْفُها والسرورُ نعمتُها، وذٰلك لما جَمَعَتْهُ ممَّا لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعتْ، ولا خَطَرَ على قلب بشر، وسلمتْ من كلِّ مخلٍّ بنعيمها من جميع المكدِّرات والمنغِّصات.

﴿٤٤﴾ ومن كرامتهم عند ربِّهم وإكرام بعضهم بعضاً أنَّهم على ﴿سُرُرٍ﴾: وهي المجالس المرتفعةُ المزينة بأنواع الأكسيةِ الفاخرةِ المزخرفة المجملة؛ فهم مُتَّكئونَ عليها على وجهِ الراحةِ والطُّمأنينة والفرح، ﴿متقابلينَ﴾: فيما بينَهم، قد صَفَتْ قلوبُهم ومحبتُهم فيما بينَهم، ونَعِموا باجتماع بعضهم مع بعض؛ فإنَّ مقابلة وجوههم تدلُّ على تقابل قلوبهم وتأدُّب بعضهم مع بعض، فلم يستدبِرْه أو يجعَلْه إلى جانبه، بل من كمال السرور والأدب ما دلَّ عليه ذٰلك التقابل.

﴿٤٥ ـ ٤٧﴾ ﴿يُطافُ عليهم بكأسٍ من مَعين﴾؛ أي: يتردَّدُ الولدان المستعدُّون لخدمتهم عليهم بالأشربةِ اللذَّيذةِ بالكاسات الجميلةِ المنظر المُتْرَعَةِ من الرحيق المختوم بالمسك، وهي كاساتُ الخمر، وتلك الخمرُ تخالِفُ خَمْرَ الدُّنيا من كل وجه؛ فإنَّها في لونها ﴿بيضاء﴾ من أحسن الألوان، وفي طعمها ﴿لَذَّةٍ للشارِبينَ﴾: يلتذُّ[1] شاربُها بها وقتَ شُربها وبعدَه، وأنَّها سالمةٌ من غول العقل وذهابِهِ ونزفِهِ ونزفِ مال صاحبها، وليس فيها صداعٌ ولا كدرٌ.

﴿٤٨ ـ ٤٩﴾ فلمَّا ذَكَرَ طعامهم وشرابَهم ومجالِسَهم. وعمومُ النعيم وتفاصيلُه داخلٌ في قوله: ﴿جنات النعيم﴾، لٰكن فصَّلَ هٰذه الأشياءَ لِتُعْلَمَ فتشتاقَ النفوس إليها؛ ذَكَرَ أزواجَهم، فقال: ﴿وعندهم قاصراتُ الطَّرْفِ عِينٌ﴾؛ أي: وعند أهل دار النعيم في محلاَّتهم القريبة حورٌ حسانٌ كاملاتُ الأوصافِ قاصراتُ الطرفِ: إمَّا أنَّها

(١) في (ب): «يلتذذ».

قَصَرَتْ طَرْفَها على زوجِها لعفَّتِها، وعدم مجاوزتِهِ لغيرِهِ، ولجمال زوجِها وكماله؛ بحيث لا تطلبُ في الجنة سواه، ولا ترغبُ إلَّا به. وإمَّا لأنَّها قَصَرَتْ طَرْفَ زوجها عليها، وذٰلك يدلُّ على كمالها وجمالها الفائق، الذي أوجب لزوجِها أن يَقْصُرَ طرفه عليها. وقَصْرُ الطرفِ أيضاً يدلُّ على قَصْرِ النفس والمحبَّة عليها، وكلا المعنيينِ محتملٌ، وكلاهما صحيحٌ.

وكلُّ هٰذا يدلُّ على جمال الرجال والنساء في الجنَّة ومحبَّة بعضهم بعضاً محبة لا يَطْمَحُ إلى غيره وشدة عفَّتهم كلِّهم وأنَّه لا حَسَدَ فيها ولا تباغُضَ ولا تشاحُنَ، وذٰلك لانتفاء أسبابه. ﴿عِينٌ﴾؛ أي: حسانُ الأعين جميلاتُها ملاحُ الحدق. ﴿كأنهنَّ﴾؛ أي: الحور ﴿بَيْضٌ مكنونٌ﴾؛ أي: مستورٌ، وذٰلك من حسنهنَّ وصفائهنَّ، وكون ألوانهنَّ أحسن الألوان وأبهاها، ليس فيه كدرٌ ولا شينٌ.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿٥٠ ـ ٥٩﴾ لمَّا ذَكَرَ تعالى نعيمَهم وتمام سُرورهم بالمآكل والمشارب والأزواج الحسانِ والمجالس الحسنةِ؛ ذَكَرَ تذاكُرَهم فيما بينَهم ومطارَحَتَهم للأحاديث عن الأمور الماضيةِ وأنَّهم ما زالوا في المحادثة والتساؤل حتى أفضى ذٰلك بهم إلى أن قال قائلٌ منهم: ﴿إنِّي كان لي قرينٌ﴾: في الدنيا ينكِرُ البعث ويلومُني على تصديقي به، ويقولُ لي: ﴿أإنَّك لَمِنَ المصدِّقينَ. أإذا مِتْنا وكُنَّا تراباً وعِظاماً أإنَّا لَمَدينونَ﴾؛ أي: مجازَوْن بأعمالنا؟! أي: كيف تصدِّقُ بهٰذا الأمر البعيد، الذي في غاية الاستغراب، وهو أنَّنا إذا تَمَزَّقْنا فَصِرْنا تراباً وعظاماً أنَّنا نُبعث ونعادُ ثم نحاسبُ ونُجازى بأعمالنا؛ أي: يقول صاحب الجنة لإخوانه: هٰذه قصَّتي وهٰذا خبري أنا وقريني، ما زلتُ أنا مؤمناً مصدِّقاً، وهو ما زال مكذِّباً منكراً للبعث، حتى متنا، ثم بُعِثْنا، فوصلتُ أنا إلى ما تَرَوْن من النعيم الذي أَخْبَرَتْنا به الرسل، وهو لا شكَّ أنَّه قد وَصَلَ إلى العذاب. فهل ﴿أنتم مُطَّلِعونَ﴾: لننظرَ إليه فنزدادَ غِبْطَةً وسروراً بما نحن فيه، ويكونَ ذٰلك رأي عينٍ؟! والظاهرُ من حال أهل الجنة وسرورِ بعضِهِم

ببعضٍ وموافقة بعضِهم بعضاً أنَّهم أجابوه لما قال، وذهبوا تبعاً له للاطِّلاع على قرينه. ﴿فاطَّلَع﴾ فرأى قرينَه ﴿في سواء الجحيم﴾؛ أي: في وسط العذاب وغمراتِهِ. والعذابُ قد أحاطَ به، فقال له لائماً على حالِهِ وشاكراً للّه على نعمتِهِ أنْ نجَّاه من كيدِهِ: ﴿تاللّهِ إنْ كِدْتَ لَتُرْدينِ﴾؛ أي: تهلكني بسبب ما أدخلتَ عليَّ من الشُّبه بزعمك، ﴿ولولا نعمةُ ربِّي﴾: على أن ثبتني على الإسلام ﴿لكنتُ من المُحْضَرينَ﴾: في العذاب معك. ﴿أفما نحنُ بِمَيِّتينَ. إلَّا مَوْتَتَنا الأولى وما نحنُ بِمُعَذَّبينَ﴾؟ أي: يقوله المؤمن مبتهجاً بنعمة اللّه على أهل الجنة بالخلودِ الدائم والسلامة من العذاب. استفهامٌ بمعنى الإثبات والتقرير. وقوله: ﴿فأقبل بعضُهم على بعضٍ يتساءلون﴾، وحَذَفَ المعمولَ، والمقامُ مقامُ لذَّةٍ وسرور، فدلَّ ذٰلك على أنهم يتساءلون بكلِّ ما يتلذَّذون بالتحدُّث به والمسائل التي وقع فيها النزاعُ والإشكالُ، ومن المعلوم أنَّ لَذَّةَ أهل العلم بالتساؤل عن العلم والبحث عنه فوق اللَّذَّاتِ الجاريةِ في أحاديث الدُّنيا؛ فلهم من هٰذا النوع النصيبُ الوافر، ويحصُلُ لهم من انكشافِ الحقائق العلميَّةِ في الجنة ما لا يمكنُ التعبيرُ عنه.

﴿٦٠﴾ فلما ذكر تعالى نعيمَ الجنَّة ووَصَفَه بهٰذه الأوصاف الجميلة؛ مَدَحَه وشوَّقَ العاملين وحثَّهم على العمل له، فقال: ﴿إنَّ هٰذا لهو الفوزُ العظيمُ﴾: الذي حصلَ لهم به كلُّ خيرٍ وكلُّ ما تهوى النفوس وتشتهي، واندفَعَ عنهم به كلُّ محذورٍ ومكروهٍ؛ فهل فوزٌ يُطْلَبُ فوقَه، أم هو غايةُ الغاياتِ ونهايةُ النهايات؛ حيث حلَّ عليهم رضا ربِّ الأرض والسماواتِ، وفرحوا بقربه، وتنعَّموا بمعرفتِهِ، واستَرُّوا برؤيتِهِ، وطربوا لكلامه؟!

﴿٦١﴾ ﴿لمثل هٰذا فليعمل العاملون﴾: فهو أحقُّ ما أُنْفِقَتْ فيه نفائسُ الأنفاس، وأولى ما شَمَّرَ إليه العارفون الأكياس، والحسرةُ كلُّ الحسرة أن يمضي على الحازم وقتٌ من أوقاته وهو غير مشتغل بالعمل الذي يقرِّبُ لهٰذه الدار؛ فكيف إذا كان يسير بخطاياه إلى دار البوار؟!

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم

﴿مُنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿٦٢﴾ ﴿أذلك خير﴾؛ أي: ذٰلك النعيم الذي وصفناهُ لأهل الجنَّة خيرٌ أم العذابُ الذي يكون في الجحيم من جميع أصنافِ العذاب؛ فأيُّ الطعامين أولى؟ الطعامُ الذي وُصِفَ في الجنة، ﴿أم﴾ طعامُ أهل النار، وهو ﴿شجرةُ الزَّقُّوم﴾؟

﴿٦٣ ـ ٦٦﴾ ﴿إنا جعلناها فتنةً﴾؛ أي: عذاباً ونكالاً ﴿للظَّالمينَ﴾: أنفسهم بالكفر والمعاصي. ﴿إنها شجرةٌ تخرجُ في أصل الجحيم﴾؛ أي: وسطه؛ فهٰذا مخرجُها ومعدِنُها؛ شرُّ المعادن وأسوؤها، وشرُّ المغرس يدل على شرِّ الغراس وخسَّته، ولهٰذا نبَّهنا اللّه على شرِّها بما ذكر أين تنبُت به وبما ذكر من صفة ثمرتها، وأنها كرؤوس الشياطينِ؛ فلا تسألْ بعد هٰذا عن طعمها وما تفعلُ في أجوافهم وبطونهم. وليس لهم عنها مندوحةٌ ولا مَعْدِلٌ[1]، ولهٰذا قال: ﴿فإنَّهم لآكلونَ منها فمالِئونَ منها البطونَ﴾: فهٰذا طعامُ أهل النارِ؛ فبئس الطعامُ طعامُهم.

﴿٦٧﴾ ثم ذكر شرابهم، فقال: ﴿ثم إنَّ لهم عليها﴾؛ أي: على أثر هٰذا الطعام ﴿لَشَوْباً من حَميم﴾؛ أي: ماءً حارًّا قد تناهى حرُّه؛ كما قال تعالى: ﴿وإن يَسْتَغيثوا يُغاثوا بماءٍ كالمُهْلِ يَشْوي الوجوهَ بئس الشرابُ وساءتْ مُرْتَفَقاً﴾، وكما قال تعالى: ﴿وسُقوا ماءً حَميماً فقَطَّعَ أمعاءهم﴾.

﴿٦٨﴾ ﴿ثم إنَّ مَرْجِعَهم﴾؛ أي: مآلهم ومقرّهم ومأواهم ﴿لإلى الجحيم﴾: ليذوقوا من عذابه الشديد وحرِّه العظيم ما ليس عليه مزيدٌ من الشقاء.

﴿٦٩ ـ ٧٣﴾ كأنه قيل: ما الذي أوْصَلَهم إلى هٰذه الدار؟ فقال: ﴿إنَّهم ألْفَوْا﴾؛ أي: وجدوا ﴿آباءهم ضالِّينَ. فهم على آثارِهِم يُهْرَعونَ﴾؛ أي: يسرعون في الضلال، فلم يلتفتوا إلى ما دعتهم إليه الرسلُ ولا إلى ما حَذَّرَتْهم عنه الكتبُ ولا إلى أقوال الناصحين، بل عارضوهم بأنْ قالوا: إنَّا وَجَدْنا آباءنا على أمَّةٍ وإنا على آثارهم مقتدونَ. ﴿ولقد ضلَّ قبلَهم﴾؛ أي: قبل هٰؤلاء المخاطبينَ ﴿أكثرُ الأولينَ﴾: وقليلٌ منهم آمن واهتدى، ﴿ولقد أرسَلْنا فيهم مُنذِرينَ﴾: ينذِرونَهم عن غيِّهم وضلالهم، ﴿فانظُرْ كيف كان عاقبةُ المنذَرين﴾: كانت عاقبتهم الهلاك والخزي والفضيحة؛ فليحذرْ هٰؤلاء أن يستمرُّوا على ضلالهم فيصيبهم مثلُ ما أصابهم.

(١) في (ب): «معدن».

﴿٧٤﴾ ولما كان المُنْذَرون ليسوا[1] كلهم ضالِّين، بل منهم مَنْ آمن وأخلصَ الدين لله؛ استثناهُمُ اللّه من الهلاك، فقال: ﴿إلَّا عبادَ اللّه المخلَصين﴾؛ أي: الذين أخْلَصَهم اللّه وخَصَّهم برحمتِهِ لإخلاصهم؛ فإنَّ عواقِبَهم صارت حميدةً.

ثم ذكر نموذجاً من عواقب الأمم المكذِّبين، فقال:

﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿٧٥ ـ ٨٢﴾ يخبر تعالى عن عبدِهِ ورسولِهِ نوح عليه السلام أول الرسل أنَّه لما دعا قومه إلى اللّه تلك المدةَ الطويلة، فلم يزدهم دعاؤهُ إلَّا فراراً؛ أنه نادى ربَّه، فقال: ﴿ربِّ لا تَذَرْ على الأرض من الكافرين ديّاراً...﴾ الآية، وقال: ﴿ربِّ انصُرْني على القوم المُفْسِدينَ﴾[2]. فاستجاب اللّهُ له، ومدح تعالى نفسه، فقال: ﴿فلَنِعْمَ المجيبونَ﴾: لدعاء الداعينَ وسماع تَبَتُّلِهِم وتضرُّعهم، أجابه إجابةً طابقتْ ما سأل، نَجّاه وأهلَه من الكرب العظيم، وأغرقَ جميع الكافرين، وأبقى نسلَه وذُرِّيَّته متسلسلين؛ فجميع الناس من ذُرِّيَّة نوح عليه السلام، وجعل له ثناءً حسناً مستمرًّا إلى وقت الآخرين، وذٰلك لأنَّه محسنٌ في عبادة الخالق، محسنٌ إلى الخلق، وهٰذه سنَّته تعالى في المحسنين؛ أنْ يَنْشُرَ لهم من الثناء على حسب إحسانهم، ودلَّ قولُه: ﴿إنَّه من عبادِنا المؤمنينَ﴾: أنَّ الإيمانَ أرفعُ منازل العباد، وأنَّه مشتملٌ على جميع شرائع الدِّين وأصولِهِ وفروعِهِ؛ لأنَّ اللّه مَدَحَ به خواصَّ خلقِهِ.

﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ[3] ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾

---

(١) في (ب): «ليس».

(٢) هٰذا دعاء لوط عليه السلام على قومه. وأما دعاء نوح: ﴿قال رب انصرني بما كذبون﴾ [المؤمنون: ٢٦].

(٣) في النسختين: إلى آخر القصة.

مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا
تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ
كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ
﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ
فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا
وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾
إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ
إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾.

﴿٨٣ ـ ٨٤﴾؛ أي: وإنَّ من شيعة نوح عليه السلام ومَنْ هو على طريقتِهِ في النبوَّة والرسالة ودعوة الخلقِ إلى الله وإجابةِ الدُّعاء إبراهيم الخليل عليه السلام. ﴿إذ جاء ربَّه بقلبٍ سليم﴾: من الشركِ والشُّبَهِ والشَّهوات المانعة من تصوُّر الحقِّ والعمل به. وإذا كان قلبُ العبدِ سليماً؛ سَلِمَ من كلِّ شرٍّ، وحصل له كلُّ خيرٍ.

﴿٨٥ ـ ٨٧﴾ ومن سلامته أنه سليمٌ من غشِّ الخلق وحَسَدِهم وغير ذلك من مساوىء الأخلاق، ولهذا نصح الخلق في الله، وبدأ بأبيه وقومِهِ، فقال: ﴿إذ قال لأبيه وقومِهِ ماذا تَعْبُدونَ﴾؟ هذا استفهامٌ على وجه[1] الإنكار وإلزامٌ لهم بالحجة. ﴿أإفكاً آلهةً دون الله تريدونَ﴾؟ أي: أتعبدون من دون آلهة[2] كذباً ليست بآلهة، ولا تصلُحُ للعبادة؟! ﴿فما ظنُّكم بربِّ العالمين﴾: أن يفعل بكم وقد عبدتُم معه غيره؟! وهذا ترهيبٌ لهم بالجزاء بالعقابِ على الإقامة على شركهم، وما الذي ظننتُم بربِّ العالمين من النقص حتى جعلتُم له أنداداً وشركاء؟!

﴿٨٨ ـ ٩٣﴾ فأراد عليه السلام أن يكسِرَ أصنامهم ويتمكَّن من ذلك، فانتهز الفرصةَ في حين غفلةٍ منهم لما ذهبوا إلى عيدٍ من أعيادهم، فخرج معهم، ﴿فنظرَ

---

(١) في (ب): «بمعنى».

(٢) كذا في (أ) وفي (ب): «أي تعبدونه آلهة كذباً». ولعل الصواب: «من دونه» أو: «من دون الله».

نظرةً في النجوم. فقال: إني سقيمٌ﴾: في الحديث الصحيح: «لم يكذبْ إبراهيمُ عليه السلام إلَّا ثلاثَ كذباتٍ: قولُهُ: إني سقيمٌ، وقوله: بل فعله كبيرُهُم هٰذا، وقوله عن زوجته: إنها أختي»[1]. والقصدُ أنَّه تخلَّف عنهم ليتمَّ له الكيدُ بآلهتهم. ولهٰذا ﴿تولَّوا عنه مدبِرينَ﴾، فلما وجد الفرصة؛ ﴿فراغ إلى آلهتهم﴾؛ أي: أسرع إليها على وجه الخفية والمراوغة، ﴿فقال﴾ متهكِّماً بها: ﴿ألا تأكُلونَ. ما لكم لا تنطقونَ﴾؛ أي: فكيف يليقُ أن تُعْبَدَ وهي أنقص من الحيوانات التي تأكُلُ و[2]تُكلِّم، وهٰذه جمادٌ لا تأكل ولا تُكلِّم؟! ﴿فراغَ عليهم ضرباً باليمين﴾؛ أي: جعل يضربها بقوَّتِهِ ونشاطِهِ حتى جعلها جذاذاً؛ إلَّا كبيراً لهم لعلَّهم إليه يرجِعون.

﴿٩٤ ـ ٩٦﴾ ﴿فأقبلوا إليه يزِفُّونَ﴾؛ أي: يسرعون ويُهْرَعون؛ يريدون أن يوقعوا به بعد ما بحثوا و﴿قالوا: مَنْ فَعَلَ هٰذا بآلهتنا إنَّه لمن الظالمين﴾؟ ﴿وقيل لهم: سمِعْنا فتى يذكُرُهم يُقالُ له: إبراهيمُ﴾، يقول ﴿تاللّه لأكيدنَّ أصنامَكُم بعدَ أن تُوَلُّوا مدبِرين﴾. فوبَّخوه ولاموه، فقال: ﴿بل فَعَلَه كبيرُهم هٰذا فاسألوهم إن كانوا ينطِقون. فرجَعوا إلى أنفسِهِم فقالوا إنَّكم أنتم الظالمونَ. ثم نُكِسوا على رؤوسِهِم لقد علمتَ ما هٰؤلاء ينطِقون. قال أفتعبدُونَ من دون اللّهِ ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضرُّكم...﴾ الآية، و﴿قال﴾ هنا: ﴿أتعبدُونَ ما تَنْحِتونَ﴾؛ أي: تنحِتونه بأيديكم وتصنعونه؛ فكيف تعبُدونهم وأنتم الذين صنعتُموهم، وتتركون الإخلاصَ للّه الذي ﴿خَلَقَكُم وما تعمَلون﴾؟!

﴿٩٧ ـ ٩٨﴾ ﴿قالوا ابنوا له بنياناً﴾؛ أي: عالياً مرتفعاً وأوقِدوا فيه النارَ، ﴿فألقوه في الجحيم﴾: جزاءً على ما فعل من تكسير آلهتهم، وأرادوا ﴿به كيداً﴾: ليقتُلوه أشنعَ قِتْلَةٍ؛ ﴿فجعلناهُمُ الأسفلينَ﴾: ردَّ اللّه كيدَهم في نُحورهم، وجَعَلَ النار على إبراهيم برداً وسلاماً.

﴿٩٩﴾ ﴿و﴾ لما فعلوا فيه هٰذا الفعل، وأقام عليهم الحجة، وأعذر منهم؛ ﴿قال إنِّي ذاهبٌ إلى ربِّي﴾؛ أي: مهاجر إليه، قاصدٌ إلى الأرض المباركة أرض الشام ﴿سيهدينِ﴾: يدلُّني على[3] ما فيه الخير لي من أمر ديني ودنياي. وقال في الآية الأخرى: ﴿وأعْتزِلُكم وما تَدْعونَ من دونِ اللّه وأدْعو ربِّي عسى ألَّا أكونَ بِدُعاءِ ربي شَقِيًّا﴾.

---

(١) كما في «صحيح البخاري» (٣٣٥٨)، و«مسلم» (٢٣٧١) عن أبي هريرة رضي اللّه عنه.
(٢) في (ب): «أو». (٣) في (ب): «إلى».

﴿١٠٠﴾ ﴿ربِّ هَبْ لي﴾: ولداً يكون ﴿من الصالحين﴾، وذٰلك عندما أيس من قومه، ولم يَرَ فيهم خيراً؛ دعا اللّه أن يَهَبَ له غلاماً صالحاً ينفع اللّه به في حياتِهِ وبعد مماتِهِ.

﴿١٠١﴾ فاستجابَ اللّه له وقال: ﴿فبشَّرناه بغلام حَليم﴾: وهٰذا إسماعيلُ عليه السلام بلا شكٍّ؛ فإنَّه ذكر بعدَه البشارة بإسحاقَ، ولأنَّ اللّه تعالى قال في بُشراه بإسحاقَ: ﴿فبشَّرناها بإسحاقَ ومِن وراء إسحاقَ يعقوبَ﴾: فدلَّ على أنَّ إسحاقَ غير الذبيح، ووَصَفَ اللّه إسماعيلَ عليه السلام بالحلم، وهو يتضمَّنُ الصبرَ وحسنَ الخُلُق وسَعَةَ الصدر والعفو عَمَّنْ جنى.

﴿١٠٢﴾ ﴿فلمَّا بَلَغَ الغلامُ معه السعيَ﴾؛ أي: أدرك أن يسعى معه، وبلغ سنًّا يكون في الغالب أحبَّ ما يكون لوالديه؛ قد ذهبتْ مشقَّتُه وأقبلتْ منفعتُهُ، فقال له إبراهيمُ عليه السلام: ﴿إنِّي أرى في المنام أنِّي أذْبَحُكَ﴾؛ أي: قد رأيت في النوم والرؤيا أنَّ اللّه يأمُرُني بِذَبْحِكَ، ورؤيا[1] الأنبياءِ وحيٌ. ﴿فانْظُرْ ماذا ترى﴾؛ فإنَّ أمر اللّه تعالى لا بدَّ من تنفيذِهِ، فقال إسماعيلُ صابراً محتسباً مرضياً لربِّه وبارًّا بوالده: ﴿يا أبتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرْ﴾؛ أي: امضِ لما أمَرَكَ اللّه، ﴿سَتَجِدُني إن شاء اللّه من الصابرينَ﴾: أخبر أباه أنَّه موطِّنٌ نفسَه على الصبر، وقَرَنَ ذٰلك بمشيئة اللّه تعالى؛ لأنَّه لا يكون شيءٌ بدون مشيئةِ اللّه.

﴿١٠٣﴾ ﴿فلمَّا أسْلَما﴾؛ أي: إبراهيم وابنه إسماعيل: إبراهيم جازماً بقتل ابنه وثمرةِ فؤادِهِ امتثالاً لأمر ربِّه وخوفاً من عقابه، والابن قد وطَّن نفسه على الصبر، وهانتْ عليه في طاعة ربِّه ورضا والده، ﴿وَتَلَّه للجبينِ﴾؛ أي: تلَّ إبراهيمُ إسماعيلَ على جبينِهِ لِيُضْجِعَه فيذبَحَه، وقد انكبَّ لوجهِهِ؛ لئلَّا ينظرَ وقت الذبح إلى وجهِهِ.

﴿١٠٤ ـ ١٠٥﴾ ﴿وناديناه﴾: في تلك الحال المزعجة والأمر المدهش: ﴿أن يا إبراهيمُ. قد صَدَّقْتَ الرؤيا﴾؛ أي: قد فعلتَ ما أُمِرْتَ به؛ فإنَّك وطَّنْتَ نفسك على ذٰلك، وفعلتَ كلَّ سبب، ولم يبقَ إلَّا إمرار السكين على حلقه. ﴿إنَّا كذٰلك نَجْزي المحسنين﴾: في عبادتنا، المقدِّمين رضانا على شهواتِ أنفسهم.

﴿١٠٦﴾ ﴿إنَّ هٰذا﴾: الذي امتحنَّا به إبراهيمَ عليه السلام ﴿لهو البَلاءُ المُبينُ﴾؛ أي: الواضح الذي تَبَيَّنَ به صفاءُ إبراهيم وكمالُ محبَّتِهِ لربِّه وخلَّتِهِ؛ فإن إسماعيلَ

(١) في (ب): «ورأي».

عليه الصلاة (والسلام)[١] لما وَهَبَهُ اللّه لإبراهيم؛ أحبَّه حبًّا شديداً، وهو خليل الرحمٰن، والخلَّة أعلى أنواع المحبة، وهو منصبٌ لا يقبل المشاركة، ويقتضي أن تكونَ جميعُ أجزاء القلب متعلقةً بالمحبوب، فلما تعلقتْ شعبةٌ من شُعَبِ قلبِهِ بابنه إسماعيلَ؛ أراد اللّه تعالى أن يُصَفِّي وُدَّه ويختبرَ خُلَّتَهَ، فأمره أن يذبح مَنْ زاحَمَ حبَّه حبَّ ربِّه، فلما قَدَّمَ حبَّ اللّه وآثره على هواه وعزم على ذبحِهِ وزال ما في القلب من المزاحم، بقي الذبحُ لا فائدة فيه؛ فلهٰذا قال: ﴿إنَّ هٰذا لهو البلاءُ المبينُ﴾.

﴿١٠٧﴾ ﴿وفديناه بِذبْحٍ عظيمٍ﴾؛ أي: صار بَدَلَه ذبحٌ من الغنم عظيمٌ ذبحه إبراهيم، فكان عظيماً: منْ جهة أنَّه كان فداء لإسماعيلَ، ومن جهة أنَّه من جملة العبادات الجليلة، ومن جهة أنه كان قرباناً وسنةً إلى يوم القيامةِ.

﴿١٠٨ ـ ١٠٩﴾ ﴿وتركنا عليه في الآخرين. سلام على إبراهيم﴾؛ أي: وأبقينا عليه ثناءً صادقاً في الآخرين؛ كما كان في الأولين؛ فكل وقت بعد إبراهيم عليه السلام؛ فإنَّه فيه محبوبٌ معظَّم مثنى عليه. ﴿سلامٌ على إبراهيم﴾؛ أي: تحية عليه؛ كقوله: ﴿قُل الحمدُ للّه وسلامٌ على عبادِهِ الذين اصطفى﴾.

﴿١١٠﴾ ﴿إنَّا كذٰلك نجزي المحسنين﴾: في عبادة اللّه ومعاملة خلقِهِ أن نُفَرِّجَ عنهم الشدائدَ، ونَجْعَلَ لهم العاقبة والثناء الحسن.

﴿١١١﴾ ﴿إنَّه من عبادِنا المؤمنينَ﴾: بما أمر اللّه بالإيمان به، الذين بَلَغَ بهم الإيمانُ إلى درجة اليقين؛ كما قال تعالى: ﴿وكذٰلك نُري إبراهيمَ مَلَكوتَ السمٰواتِ والأرضِ وليكون من الموقنين﴾.

﴿١١٢﴾ ﴿وبَشَّرْناهُ بإسحاقَ نَبِيًّا من الصالحين﴾: هٰذه البشارة الثانية بإسحاقَ؛ الذي من ورائِهِ يعقوبَ، فَبُشِّرَ بوجوده وبقائه ووجود ذُرِّيَّتِهِ وكونه نبيًّا من الصالحين؛ فهي بشاراتٌ متعدِّدة.

﴿١١٣﴾ ﴿وبارَكْنا عليه وعلى إسحاقَ﴾؛ أي: أنْزَلْنا عليهما البركةَ التي هي النمو والزيادة في علمهما وعملهما وذريتهما، فنشر اللّه من ذُرِّيَّتِهِما ثلاث أمم عظيمة: أمة العرب من ذُرِّيَّةِ إسماعيلَ، وأمة بني إسرائيل، وأمة الروم من ذُرِّيَّةِ إسحاقَ. ﴿ومن ذُرِّيَّتِهِما محسنٌ وظالمٌ لنفسِهِ مبينٌ﴾؛ أي: منهم الصالح والطالح، والعادل والظالم، الذي تبيَّن ظلمُهُ بكفرِهِ وشركِهِ، ولعل هٰذا من باب دفع الإيهام؛ فإنَّه لمَّا قال: ﴿وبارَكْنا

(١) زيادة لا توجد في النسختين.

عليه وعلى إسحاق﴾؛ اقتضى ذٰلك البركة في ذُرِّيَّتِهِما، وأنَّ من تمام البركة أن تكون الذُّرِّيَّة كلُّهم محسنين، فأخبر اللّه تعالى أنَّ منهم محسناً وظالماً. واللّه أعلم.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ[١] ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾.

﴿١١٤ ـ ١٢٢﴾ يذكُرُ تعالى منَّته على عبديه ورسوليه موسى وهارون ابني عمران بالنبوَّة والرسالة والدعوة إلى اللّه تعالى، ونجاتهما وقومهما من عدوِّهما فرعون، ونصرهما عليه، حتى أغرقه اللّه وهم ينظرون، وإنزال اللّه عليهما الكتاب المستبين، وهو التوراة التي فيها الأحكام والمواعظ وتفصيلُ كلِّ شيء، وأنَّ اللّه هداهما الصراطَ المستقيم؛ بأنْ شَرَعَ لهما ديناً ذا أحكام وشرائع مستقيمةٍ موصلةٍ إلى اللّه، ومَنَّ عليهما بسلوكِهِ. ﴿وتَرَكْنا عليهما في الآخرين. سلامٌ على موسى وهارونَ﴾؛ أي: أبقي عليهما ثناء حسناً وتحيَّةً في الآخرين، ومن باب أولى وأحرى في الأوَّلين. ﴿إنَّا كذٰلك نَجْزي المحسنين. إنَّهما من عبادِنا المؤمنينَ﴾.

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾.

﴿١٢٣ ـ ١٣٢﴾ يمدحُ تعالى عبدَه ورسولَه إلياس عليه الصلاةُ والسلام بالنبوَّةِ والرسالة والدَّعوة إلى اللّه، وأنَّه أمر قومَه بالتَّقوى وعبادة اللّه وحدَه، ونهاهم عن عبادَتِهِم صنماً لهم يُقالُ له: بعلٌ، وتركِهِم عبادَة اللّه الذي خَلَقَ الخلقَ، وأحسنَ خَلْقَهم وربَّاهم فأحسنَ تربِيتهم، وأدرَّ عليهم النِّعَمَ الظاهرة والباطنة، وأنَّكم كيف تركتُم عبادةَ مَنْ هٰذا شأنُه إلى عبادة صنم لا يضرُّ ولا ينفع ولا يخلُق ولا يرزُقُ، بل لا يأكل ولا يتكلَّم، وهل هٰذا إلَّا من أعظم الضلال والسَّفه والغيِّ. ﴿فكذَّبوه﴾: فيما دعاهم إليه، فلم ينقادوا له، قال اللّه متوعِّداً لهم: ﴿فإنَّهم لَمُحْضَرونَ﴾؛ أي:

(١) في النسختين: إلى آخر القصة.

يوم القيامةِ في العذاب، ولم يذكرْ لهم عقوبةً دنيويَّةً ﴿إلَّا عباد الله المُخْلَصينَ﴾؛ أي: الذين أخلصهم الله ومَنَّ عليهم باتِّباع نبيِّهم؛ فإنَّهم غير محضرين في العذاب، وإنَّما لهم من الله جزيل الثواب. ﴿وتركنا عليه﴾؛ أي: على إلياس ﴿في الآخِرين﴾: ثناءً حسناً. ﴿سلامٌ على إل ياسينَ﴾؛ أي: تحية من الله ومن عبادِهِ عليه. ﴿إنَّا كذٰلك نَجْزي المُحْسِنينَ. إنَّه من عبادِنا المؤمنينَ﴾: فأثنى اللهُ عليه كما أثنى على إخوانِهِ صلواتُ الله وسلامُه عليهم أجمعين.

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

﴿١٣٣ ـ ١٣٨﴾ وهٰذا ثناءٌ منه تعالى على عبدِهِ ورسولِهِ لوطٍ بالنبوَّة والرسالة ودعوتِهِ إلى الله قومَه ونهيِهِم عن الشرك وفعل الفاحشةِ، فلمَّا لم ينتهوا؛ نجَّاه الله وأهلَه أجمعين، فَسَرَوْا ليلاً، فنجَوْا؛ ﴿إلَّا عجوزاً في الغابرين﴾؛ أي: الباقين المعذَّبين، وهي زوجة لوطٍ، لم تكن على دينِهِ. ﴿ثم دمَّرْنا الآخرين﴾: بأن قَلَبْنا عليهم ديارَهم فجَعَلْنا عالِيَها سافِلَها، وأمْطَرْنا عليها حجارةً من سِجِّيل منضودٍ حتى هَمَدوا وخَمَدوا، ﴿وإنَّكم لتمرُّون عليهم﴾؛ أي: على ديار قوم لوطٍ ﴿مصبحينَ. وبالليل﴾؛ أي: في هٰذه الأوقات يكثُرُ تَرَدُّدُكم إليها ومروركم بها، فلم تقبل الشك والمِرْيَةَ. ﴿أفلا تعقلونَ﴾: الآياتِ والعِبَرَ وتنزجِرون عمَّا يوجِبُ الهلاكَ؟!

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ[(١)] ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾.

﴿١٣٩﴾ وهٰذا ثناءٌ منه تعالى على عبدِهِ ورسولِهِ يونسَ بن متَّى؛ كما أثنى على إخوانِهِ المرسَلين بالنبوَّة والرسالة والدَّعوة إلى الله.

﴿١٤٠﴾ وذكر تعالى عنه أنَّه عاقَبَه عقوبةً دنيويَّةً أنجاه منها بسبب إيمانِهِ وأعمالِهِ الصالحة، فقال: ﴿إذْ أبَقَ﴾؛ أي: من ربِّه مغاضِباً له ظانًّا أنه لا يقدِرُ عليه ويحبِسُه

(١) في النسختين: إلى آخر قصته.

في بطن الحوت، ولم يذكُرِ اللّه ما غاضبَ عليه ولا ذَنْبَهُ الذي ارتكبه؛ لعدم فائِدَتِنا بذكرِهِ، وإنَّما فائدتُنا بما ذكرنا عنه أنه أذنبَ، وعاقبه اللّه مع كونِهِ من الرُّسل الكرام، وأنَّه نجَّاه بعد ذلك، وأزال عنه الملامَ، وقيَّضَ له ما هو سببُ صلاحِهِ. فلمَّا أبَقَ؛ لجأ ﴿إلى الفلك المشحونِ﴾: بالركاب والأمتعة.

﴿١٤١﴾ فلما رَكِبَ مع غيره والفلك شاحن؛ ثقلتِ السفينةُ، فاحتاجوا إلى إلقاءِ بعضِ الركبانِ، وكأنَّهم لم يجِدوا لأحدٍ مزيَّةً في ذلك، فاقترعوا على أنَّ مَنْ قُرِعَ وغُلِبَ؛ ألقي في البحر؛ عدلاً من أهل السفينة، وإذا أراد اللّه أمراً؛ هيَّأ أسبابه، فلما اقترعوا؛ أصابتِ القرعةُ يونسَ. ﴿فكان من المُدْحَضينَ﴾؛ أي: المغلوبين، فألقي في البحر.

﴿١٤٢﴾ ﴿فالْتَقَمَهُ الحوتُ وهو﴾: وقت التقامِهِ ﴿مُليمٌ﴾؛ أي: فاعلٌ ما يُلام عليه، وهو مغاضبتُهُ لربِّه.

﴿١٤٣ ـ ١٤٤﴾ ﴿فلولا أنَّه كان من المسبِّحينَ﴾؛ أي: في وقتِه السابقِ بكثرةِ عبادته لربِّه وتسبيحِهِ وتحميدِهِ وفي بطن الحوت حيث قال: ﴿لا إلٰه إلا أنت سبحانَكَ إنِّي كُنتُ من الظالمين﴾؛ ﴿لَلَبِثَ في بطنِهِ إلى يوم يُبْعَثونَ﴾؛ أي: لكانتْ مقبرتَهَ، ولٰكن بسبب تسبيحِهِ وعبادتِهِ للّه؛ نجّاه اللّه تعالى، وكذٰلك ينجي اللّه المؤمنين عند وقوعهم في الشدائد.

﴿١٤٥﴾ ﴿فَنبَذْناه بالعراءِ﴾: بأنْ قَذَفَهُ الحوت من بطنِهِ بالعراء، وهي الأرض الخالية العاريةُ من كلِّ أحدٍ، بل ربَّما كانت عارية من الأشجارِ والظِّلال. ﴿وهو سقيمٌ﴾؛ أي: قد سَقِمَ ومَرِضَ بسبب حبسِهِ في بطن الحوت حتى صار مثل الفرخ الممعوط من البيضة.

﴿١٤٦﴾ ﴿وأنبَتْنا عليه شجرةً من يَقْطينٍ﴾: تُظِلُّه بظلِّها الظليل؛ لأنَّها باردةُ الظِّلال، ولا يسقُطُ عليها ذبابٌ، وهٰذا من لطفِهِ به وبرِّه.

﴿١٤٧ ـ ١٤٨﴾ ثم لَطَفَ به لطفاً آخرَ، وامتنَّ عليه مِنَّةً عظمى، وهو أنَّه أرسله ﴿إلى مائةِ ألفٍ﴾: من الناس ﴿أو يَزيدونَ﴾: عنها، والمعنى أنَّهم إنْ لم يزيدوا عنها؛ لم ينقُصوا، فدعاهم إلى اللّه تعالى، ﴿فآمنوا﴾: فصاروا في موازينِهِ؛ لأنَّه الدَّاعي لهم، ﴿فمتَّعْناهم إلى حينٍ﴾: بأن صَرَفَ اللّه عنهم العذابَ بعد ما انعقدتْ أسبابُهُ؛ قال تعالى: ﴿فلولا كانتْ قريةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إيمانُها إلَّا قومَ يونُسَ لما آمنوا كَشَفْنا عنهم عذابَ الخِزْي في الحياة الدُّنيا ومَتَّعْناهم إلى حينٍ﴾.

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾.

﴿١٤٩﴾ يقول تعالى لنبيِّه ﷺ ﴿فاسْتَفْتِهِمْ﴾؛ أي: اسأل المشركين باللّهِ غيرَه، الذين عبدوا الملائكةَ وزَعموا أنَّها بناتُ اللّه، فجمعوا بين الشركِ باللّه ووصفِهِ بما لا يَليقُ بجلالِهِ. ﴿ألِربِّكَ البناتُ ولهم البنونَ﴾؛ أي: هٰذه قسمةٌ ضيزى، وقولٌ جائرٌ من جهة جعلهم الولدَ للّه تعالى، ومن جهة جعلِهِم أردأ القسمينِ وأخسَّهما له، وهو البناتُ، التي لا يَرْضَوْنَهُنَّ لأنفسِهِم؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿ويَجْعَلونَ للّه البناتِ سبحانَه ولهم ما يَشْتَهونَ﴾، ومن جهةِ جعلِهِم الملائكةَ بناتٍ للّه، وحكمِهِم بذٰلك.

﴿١٥٠﴾ قال تعالى في بيان كَذِبِهم: ﴿أمْ خَلَقْنا الملائكةَ إناثاً وهم شاهِدونَ﴾: خَلْقَهم؛ أي: ليس الأمر كذٰلك؛ فإنَّهم ما شَهِدوا خلقَهم، فدلَّ على أنَّهم قالوا هٰذا القول بلا علم، بل افتراءً على اللّه.

﴿١٥١ ـ ١٥٧﴾ ولهٰذا قال: ﴿ألا إنَّهم من إفْكِهِم﴾؛ أي: كذبهم الواضح؛ ﴿لَيقولونَ وَلَدَ اللّهُ وإنَّهم لَكاذبونَ. أصطفى﴾؛ أي: اختار ﴿البناتِ على البنينَ. مالَكُم كيفَ تَحْكُمونَ﴾: هٰذا الحكمَ الجائرَ. ﴿أفلا تَذَكَّرونَ﴾: وتميِّزونَ هٰذا القول الباطل الجائر؟ فإنَّكم لو تَذَكَّرْتُم؛ لم تقولوا هٰذا القول. ﴿أم لكم سلطانٌ مبينٌ﴾؛ أي: حجَّة ظاهرةٌ على قولكم من كتابٍ أو رسول، وكلُّ هٰذا غير واقع، ولهٰذا قال: ﴿فأتوا بكتابِكُم إن كُنتُم صادقينَ﴾: فإنَّ مَنْ يقولُ قولاً لا يُقيم عليه حجَّة شرعيَّة؛ فإنَّه كاذبٌ متعمِّدٌ أو قائلٌ على اللّه بلا علم.

﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾.

﴿١٥٨﴾ أي: جعل هٰؤلاء المشركون باللّهِ بين اللّهِ وبين الجِنَّةِ نَسَباً؛ حيث زَعموا أنَّ الملائكةَ بناتُ اللّه، وأنَّ أمهاتِهِم سَرَواتُ الجنِّ! والحالُ أنَّ الجِنَّةَ قد علمتْ أنَّهم مُحْضَرونَ بين يدي اللّه لِيُجازِيَهم؛ فهم عبادٌ أذلَّاءُ؛ فلو كان بينَهم

وبينه نسبٌ؛ لم يكونوا[1] كذٰلك.

﴿١٥٩ ـ ١٦٠﴾ ﴿سبحانَ اللّه﴾: الملك العظيم، والكامل الحليم، عما يصفه به المشركون من كل وصفٍ أوجَبَه كفرُهم وشركُهم. ﴿إلَّا عبادَ اللّه المخلَصين﴾: فإنَّه لم يُنَزِّهْ نفسَه عمَّا وَصَفوه به؛ لأنَّهم لم يَصِفوه إلَّا بما يليق بجلالِهِ، وبذٰلك كانوا مخلَصين.

﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾.

﴿١٦١ ـ ١٦٣﴾ أي: إنَّكم أيُّها المشركون ومَنْ عَبَدْتُموه مع اللّه لا تقدِرون أن تَفْتِنوا وتُضِلُّوا أحداً إلَّا مَنْ قضى اللّه أنَّه من أهل الجحيم، فَنَفَذَ[2] فيه القضاءُ الإلٰهيُّ. والمقصودُ من هٰذا بيانُ عجزِهم وعجزِ آلهتهم عن إضلال أحدٍ، وبيانُ كمال قدرةِ اللّه تعالى؛ أي: فلا تَطْمَعوا بإضلال عبادِ اللّه المخلَصين وحزبِه المفلحين.

﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾.

﴿١٦٤ ـ ١٦٦﴾ هٰذا فيه بيانُ براءة الملائكة عليهم السلام عمَّا قاله فيهم المشركونَ، وأنَّهم عبادُ اللّه، لا يعصونَه طرفةَ عينٍ؛ فما منهم من أحدٍ إلَّا وله مقامٌ وتدبيرٌ قد أمره[3] اللّه به لا يتعدَّاه ولا يتجاوزه، وليس لهم من الأمر شيءٌ، ﴿وإنَّا لنحنُ الصافُّون﴾: في طاعة اللّه وخدمتِهِ، ﴿وإنَّا لنحنُ المسبِّحونَ﴾: للّه عما لا يَليقُ به؛ فكيف مع هٰذا يَصْلُحون أن يكونوا شركاء للّه، تعالى اللّه!

﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ[4] ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾.

﴿١٦٧ ـ ١٧٠﴾ يخبرُ تعالى أنَّ هٰؤلاء المشركين يُظْهِرونَ التمنِّي ويقولون: لو جاءنا من الذِّكرِ والكتبِ ما جاء الأولين؛ لأخْلَصْنا للّه العبادة، بل لكنَّا المخلِصين على الحقيقةِ، وهم كَذَبَةٌ في ذٰلك؛ فقد جاءهم أفضلُ الكتب فكفروا به، فعُلِمَ أنَّهم

(١) في (ب): «لم يكن».
(٢) في (ب): «فينفذ».
(٣) في (ب): «أمر اللّه».
(٤) في النسختين: إلى آخر السورة.

متمرِّدونَ على الحقِّ. ﴿فسوف يعلمونَ﴾: العذابَ حين يقعُ بهم.

﴿١٧١ ـ ١٧٩﴾ ولا يحسبوا أيضاً أنَّهم في الدنيا غالبون، بل قد سَبَقَتْ كلمةُ اللّه التي لا مردَّ لها ولا مخالفَ لها لعبادِهِ المرسَلين وجندِهِ المفلِحين أنَّهم الغالبونَ لغيرِهِم المنصورون من ربِّهم نصراً عزيزاً يتمكَّنون فيه من إقامة دينهم. وهٰذه بشارةٌ عظيمةٌ لمن اتَّصف بأنَّه من جندِ اللّه؛ بأن كانت أحوالُهُ مستقيمةً، وقاتلَ مَنْ أمر بقتالهم أنه غالبٌ منصورٌ. ثم أمر رسولَه بالإعراض عَمَّنْ عاندوا ولم يَقْبَلوا الحقَّ، وأنَّه ما بقي إلَّا انتظارُ ما يَحِلُّ بهم من العذاب، ولهٰذا قال: ﴿وأبصرهم فسوفَ يُبْصِرونَ﴾: مَنْ يَحِلُّ به النَّكالُ؛ فإنَّه سيحلُّ بهم. ﴿فإذا نَزَلَ بساحتِهِم﴾؛ أي: نزل عليهم وقريباً منهم، ﴿فساء صَباحُ المُنْذَرينَ﴾؛ لأنَّه صباح الشرِّ والعقوبة والاستئصال. ثم كرَّر الأمر بالتولِّي عنهم وتهديدهم بوقوع العذاب.

﴿١٨٠ ـ ١٨٢﴾ ولما ذكر في هٰذه السورة كثيراً من أقوالهم الشنيعة التي وَصَفوه بها؛ نزَّهَ نفسَه عنها، فقال: ﴿سبحانَ ربِّك﴾؛ أي: تنزَّه وتعالى، ﴿ربِّ العزَّةِ﴾؛ أي: الذي عزَّ فقهر كلَّ شيء، واعتزَّ عن كل سوءٍ يصفونه به، ﴿وسلامٌ على المرسلين﴾: لسلامتهم من الذُّنوب والآفات، وسلامة ما وصفوا به فاطر الأرض والسماوات. ﴿والحمدُ للّه ربِّ العالمين﴾: الألف واللام للاستغراق؛ فجميعُ أنواع الحمدِ من الصفاتِ الكاملةِ العظيمةِ والأفعالِ التي ربَّى بها العالمينَ وأدرَّ عليهم فيها النِّعم وصَرَفَ عنهم بها النِّقَمَ ودَبَّرَهم تعالى في حَرَكاتِهِم وسكونِهِم وفي جميع أحوالِهِم كلِّها للّه تعالى؛ فهو المقدَّسُ عن النقص، المحمودُ بكلِّ كمال، المحبوبُ المعظَّم، ورسلُهُ سالمون مسلَّم عليهم، ومن اتَّبَعَهم في ذٰلك له السلامةُ في الدُّنيا والآخرة، وأعداؤُهُ لهم الهلاك والعطبُ في الدُّنيا والآخرة.

تم تفسير سورة الصافات في ٦ شوال سنة ١٣٤٣[1].

على يد جامعِهِ وكاتبِهِ عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي.

وصلى اللّه على محمدٍ وسلم تسليماً. والحمد للّه الذي بنعمته تتم الصالحات[2].

---

(١) في (ب): «تم تفسير سورة الصافات في ٢٥ رجب ١٣٤٥».

(٢) في (ب): «تم تفسير المجلد السادس من تفسير الشيخ عبد الرحمن الناصر العبد الله بن سعدي غفر الله له ورحمه، وذلك في أربع وعشرين من رجب سنة ألف وثلاثمائة وخمس وأربعين، بقلم الفقير إلى ربه محمد بن منصور بن إبراهيم بن زامل، على خط مؤلفه وجامعه شيخنا الشيخ عبد الرحمن جزاه الله خيراً. آمين. وصلى الله على نبيه وسلم».